دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	النجاة في ضوء القرآن الكريم : دراسة موضوعية
المؤلف الرئيسي:	الجربوع، عبد العزيز بن محمد عبد الرحمن
مؤلفين آخرين:	العيدي، محمد بن عبد االله بن محمد(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2012
موقع:	بريدة
الصفحات:	1 - 877
رقم MD:	613050
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	جامعة القصيم
الكلية:	كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدولة:	السعودية
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	القرآن الكريم، النجاة، التفسير الموضوعي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/613050

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الفصل الثاني: أنواع النجاة في القرآن الكريم

(وفيه خمسة مباحث)

المبحث الأول: النجاة من عذاب الله.

المبحث الثاني: النجاة من المخالفات الشرعية.

المبحث الثالث: النجاة من الأعراض القلبية.

المبحث الرابع: النجاة من الأشرار.

المبحث الخامس: النجاة من الابتلاء.

المبحث الأول: النجاة من عذاب الله

(وأتناول فيه ما يلي):

- **تمهيد، (وفيه):**
  - بيان المقصود بعذاب الله الذي سيتم تناوله هنا.
  - بيان شدة أخذ الله، وأنه لا يستهان بشيء منه.
- **النجاة من عذاب الله الدنيوي، (وفيه):**
  - النجاة من عذاب الله الدنيوي غير المستأصل.
  - النجاة من العذاب الدنيوي المستأصل.
- **النجاة من عذاب الله الأخروي، (وفيه):**
  - النجاة من أهوال يوم القيامة.
  - النجاة من النار.

التمهيد؛ (وفيه):

- بيان المقصود بعذاب الله الذي سيتم تناوله هنا.
- بيان شدة أخذ الله، وأنه لا يستهان بشيء منه.

بيان المقصود بعذاب الله الذي سيتم تناوله هنا:

العذاب قد يكون من عند الله مباشرة، وقد يكون بأيدِي العباد[1]، والمقصود في هذا المبحث ما يكون من عند الله مباشرة. وإلا فإن من المعلوم أنه لا يقع شيء إلا بمشيئة الله وقدره، فتسليط الظالمين، والزلازل ، والبراكين، والفقر، والجوع، إنما هو عذاب من الله، ولكن ليس كل هذه الأمور سيتم تناولها في هذا المبحث، وإنما يتم في هذا تناول ما يكون بأمر الله الكوني المباشر، لا الذي يكون بتسليطه الظالمين ونحوهم، فهذا سيتم تناوله في مبحث قادم- بمشيئة الله-، ثم لن يتم إلا تناول ما يقع من البلاء العام على جماعة أهل البلد ونحوهم، لا الذي يقع على أفراد منهم فهذا له موضعه- إن شاء الله-

بيان شدة أخذ الله، وأنه لا يستهان بشيء منه:

من المهم جداً بيان هذا الأمر وكشفه وتجليته، لأنه قد يسري إلى بعض الأذهان - عند الكلام على أنواع النجاة من عذاب الله- التهاون في أنواع من العذاب عند مقارنتها بغيرها مما هو أشد منها، فهذه طبيعة الأذهان في الأصل عندما لا تُنبَه إلى خلاف ذلك.

ولا شك أن بعض أخذ الله أشد من بعض، ولكن الخفيف منه أليم شديد، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ الأنبياء: ٤٦، فبيّنت الآية شدة تأثير أدنى شيء من عذاب الله عليهم، ولو كان مجرد مس

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/٤٤.

نفحة[١]، ونفحة واحدة؛ لم يقل: نفحات، وجاء بها نكرة؛ فهذه أربع مبالغات في التقليل، فما ظنك بالعذاب الشديد[٢]. فالقرآن الذي أنزله الله تعالى تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة، لم يترك هذه النقطة دون بيان، فقد كشف بوضوح شدة عذاب الله -إن هو عذّب- قال الله سبحانه: ﴿ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ الرعد: ١٣، والمَحَلُ: الجدب والشدة[٣]، فالمعنى أنه شديد العقوبة، شديد الإهلاك، شديد النقمة، وكل هذه الأقوال وردت في تفسير الآية[٤]، وظاهرٌ أن الاختلاف فيها ليس اختلاف تضاد، وإنما هو اختلاف تنوع في العبارة.

وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ هود: ١٠٢، ومعنى الآية أن عقوبة الله إذا حلت فإنها تكون "عقوبة مؤلمة شديدة صعبة على المأخوذ والمعاقب، لا يرجى منها الخلاص"[٥].

وقال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ البروج: ١٢ ، أي: إن بطشه وانتقامه لشديد عظيم قوي[٦].

---

(١) النفحة في الأصل: هبوب رائحة الشيء. [انظر: المحكم؛ مادة(نفح). ولسان العرب؛ مادة(نفح). وروح المعاني٩/٥٢].

(٢) انظر: التحرير والتنوير١٧/٥٩.

(٣) يقولون: أمحَلَت الأرض، إذا أجدبت. [انظر: الصحاح؛ مادة(محل)].

(٤) انظر: مفاتيح الغيب١٩/٢٤، وتفسير الخازن٣/١٠

(٥) روح البيان٤/١١٧.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير٨/٣٧٢

فهذه الآيات وغيرها مما ورد في القرآن -مبرزاً هذا المعنى- يجب أن يزيل الغفلة عن النفوس السادرة، والقلوب اللاهية الغافلة عن شدة عذاب الله وشدة إيلامه.

وقد وجه النبي-ﷺ-أمته إلى هذا المعنى؛ فعن عَنْ أَنَسٍ-رضي الله عنه-[1] أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- عَادَ رجلاً من المسلمين قد خَفَتَ فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله -ﷺ- « هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بشيء أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ». قَالَ: نَعَمْ؛ كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ معاقبي بِهِ في الآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لي في الدُّنْيَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- «سُبْحَانَ اللَّهِ لاَ تُطِيقُهُ - أَوْ لاَ تَسْتَطِيعُهُ - أَفَلاَ قُلْتَ: اللَّهُمَّ آتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ». قَالَ فَدَعَا اللَّهَ لَهُ فَشَفَاهُ"[2]، فهذا قد صار مثل الفرخ، وهو ولد الطير عند خروجه من البيضة، وخفت يعني: ضعف، ونحل جسمه، وخفي صوته من شدة الجهد[3]

---

(١) أنس بن مالك (١٠ قبل الهجرة - ٩٣ هـ)أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجاري الخزرجي الأنصاري، كناه النبي ﷺ:أبا حمزة، الإمام، المفتي، المقرئ، المحدث، راوية الإسلام، خادم رسول الله -ﷺ- وتلميذه، وآخر أصحابه موتا بالبصرة، روى عن: النبي -ﷺ- علما جما، وروى أيضاً عن كبار الصحابة -رضي الله عنهم- وروى عنه خلق كثير، حضر بدراً لم يعده أصحاب المغازي في البدريين؛ لكونه حضرها صبيا، وقد دعا له النبي ﷺ بكثرة المال والولد، فبلغ أولاده قريب المائة، وله ابنتان، ومناقب أنس وفضائله كثيرة جدا، آذاه الحجاج إيذاء شديداً، فأمر عبد الملك بن مروان الحجاج أن يذهب إليه ويعتذر منه"[انظر: سير أعلام النبلاء٣/ ٣٩٥، والإصابة١/ ١٢٨].

(٢) أخرجه مسلم٨/ ٦٧حديث٧٠١١،كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب كَرَاهَةِ الدُّعَاءِ بِتَعْجِيلِ الْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا.

(٣) انظر: مشارق الأنوار للقاضي عياض١/٢٤٤.

ولهذا كانت نفوس الصالحين تستحضر شدة ما خفّ من عذاب الله، فكيف بما عظّمه الله وبيّن شدته. قال ابن حزم:" النفس لا تساعد على أن تعد شيئاً من عذاب الله خفيفاً ولو نظرة إلى النار، أعاذنا الله منها"[١] .

والغافلون عن شدة عذاب الله ربما يسألون الله أن يعذبهم، وهذا جهل في الحقيقة مهما كان مبررهم، فبعض الناس يدعي أنه يحب الله مهما فَعَلَ به، فليعذبه إن شاء، فهو راضٍ بعذابه لأنه يحبه، وبعضهم يضجر من فقرٍ ونحوه؛ فيُقْدِم على الدعاء على نفسه بالموت مدعياً أنه يتحمل عذاب الآخرة، أو ينتحر ولا يحسب لعذاب الآخرة حساباً. وتهاونه به إنما نشأ من غياب شدة عذاب الله عن ذهنه، ولو تصور الحقيقة لأحدث تصوره حياة لقلبه يشعر بها بشدة ألم عذاب الله، قال ابن تيمية:" التألم بالنار أمرٌ ضروري، وَمَنْ قَالَ : لَوْ أَدْخَلَنِي النَّارَ لَكُنْتُ رَاضِيًا؛ فَهُوَ عَزْمٌ مِنْهُ عَلَى الرِّضَا؛ وَالْعَزَائِمُ قَدْ تَنْفَسِخُ عِنْدَ وُجُودِ الْحَقَائِقِ، وَمِثْلُ هَذَا يَقَعُ فِي كَلَامِ طائفة، مثل سمنون[٢] الَّذِي قَالَ :

وَلَيْسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ * فَكَيْفَمَا شِئْتَ فَامْتَحِنِّي**

فَابْتُلِيَ بِعُسْرِ الْبَوْلِ، فَجَعَلَ يَطُوفُ عَلَى صبيان المكاتب، وَيَقُولُ: ادْعُوا لِعَمِّكُمْ الْكَذَّابِ"[٣]. قال ابن تيمية:"وقد قال الله تعالى لمن هو أفضل من هؤلاء المشايخ:﴿ وَلَقَدْ

---

(١) رسائل ابن حزم٣/١٥٨

(٢) سمنون (٠٠٠ – نحو ٢٩٠ هـ) ابن حمزة الخواص، أبو الحسن، ويقال: أبو القاسم: صوفي ناسك، من الشعراء. كان يتكلم في المحبة بأحسن كلام، وهو من كبار مشايخ العراق، له مقطوعات في غاية الجودة. وهو من أهل البصرة. سكن بغداد وتوفي بها، ومن شعره الجميل:

(أمستوحش أنت مما جنيت ... فأحسن إذا شئت واستأنس) .

[انظر:صفة الصفوة٢/٤٢٨، وطبقات الصوفية للأزدي ص١٥٨، والأعلام٣/١٤٠].

(٣) مجموع الفتاوى١٠/٢٤١.

كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ آل عمران: ١٤٣،[١]، فالله تعالى ألقى الكلام في هذه الآية إلى بعض المؤمنين من الصحابة-ﷺ-بإجمال بالغ غاية الإيجاز، ليكون جامعاً بين الموعظة، والمعذرة، والملام. فهم كانوا قد أظهروا الشجاعة وحب اللقاء، ولو كان فيه الموت، ...فهم تمنّوا اللقاء ونصر الدين بأقصى جهدهم، وكان هذا يقتضي عدم اكتراث كل واحد منهم بتلف نفسه في الدفاع، رجاء أن يكون قبل هلاكه قد أبلى في العدو، وهيأ النصر لمن بقي بعده... وقوله:{من قبل أن تلقوه}؛ تعريض بأنهم تمنوا شيئاً كأنهم قد جهلوا ما فيه من المصائب... ومحل الموعظة من الآية: أن المرء لا يطلب أمراً حتى يفكر في عواقبه، ويسبر مقدار تحمله لمصائبه[٢].

ولعل في هذا القدر من الكلام كفاية تحيي قلوب السادرين عن شدة هول عذاب الله وبطشه ونقمته، لعلهم يسيرون على النهج الذي رسمه القرآن لهم في تلك الآيات السالفة الذكر وأمثالها.

---

(١) المرجع السابق١٠/٢٨٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير٣/٢٣٦.

النجاة من عذاب الله الدنيوي؛ (وفيه ما يلي):

- النجاة من عذاب الله الدنيوي غير المستأصل.
- النجاة من عذاب الله الدنيوي المستأصل.

النجاة من عذاب الله الدنيوي غير المستأصل(وفيه ما يلي):

- **الحكمة منه.**
- **صور العذاب الدنيوي غير المستأصل:**
- **البأساء والضراء.**
- **الطوفان والجراد والقمل والضفادع.**
- **السنين، ونقص الثمرات.**
- **غلاء الأسعار.**

الحكمة من عذاب الله الدنيوي غير المستأصل:

الله تعالى لطيف بعباده، ومن لطفه سبحانه ورحمته بهم يرسل لهم من الآيات والنذر الموجعة ما يوقظ القلوب، لعلهم بذلك ينتبهوا فلا يعرضوا أنفسهم لغضبة منه دائمة، ونقمة مستمرة مهلكة. وقد أثبت القرآن هذه الرحمة في هذا النوع من العذاب بآياتٍ كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ السجدة: ٢١، قال ابن القيم: "أخبر أنه يعذبهم رحمة بهم؛ ليردهم العذاب إليه، كما يعذب الأب الشفيق ولده إذا فر منه إلى عدوه؛ ليرجع إلى بره وكرامته"(١).

وقال سيد قطب(٢):"ظلال الرحمة تتراءى من وراء هذا العذاب الأدنى «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» .. وتستيقظ فطرتهم ، ويردهم ألم العذاب إلى الصواب"(٣).

وقال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ الأنعام: ٤٢، قال ابن عاشور: المراد: أن الله قدم لهم عذابا هينا قبل العذاب الأكبر...وهذا من فرط رحمته الممازجة لمقتضى حكمته(٤).

---

(١) شفاء العليل ص٢٥٥.

(٢) سيد قطب (١٣٢٤ - ١٣٨٧ هـ) سيد قطب بن إبراهيم: مفكر إسلامي مصري، من مواليد قرية (موشا) في أسيوط.تخرج بكلية دار العلوم (بالقاهرة) سنة ١٣٥٣هـ. عمل في جريدة الأهرام، وكتب في مجلتي: (الرسالة) و(الثقافة). تولى عدة مناصب في وزارة المعارف. وأوفد إلى أمريكا لدراسة (برامج التعليم)، ولما عاد انتقد البرامج المصرية، ورآها من وضع الانجليز، وطالب ببرامج تتمشى والفكرة الإسلامية، وبنى على هذا استقالته. وانضم إلى الإخوان المسلمين، فترأس قسم نشر الدعوة، وتولى تحرير جريدتهم، وسجن معهم. كتبه كثيرة مطبوعة منها: (في ظلال القرآن) و(التصوير الفني في القرآن) و(مشاهد القيامة في القرآن) و(النقد الأدبي، أصوله ومناهجه) و(العدالة الاجتماعية في الإسلام) و(الإسلام ومشكلات الحضارة) و(السلام العالمي والإسلام) و(المستقبل لهذا الدين) و(معالم في الطريق)[انظر: الأعلام٣/١٤٨].

(٣) في ظلال القرآن٥/ ٢٨١٤.

(٤) انظر: التحرير والتنوير٦/٩٧.

هذا النوع من العذاب المؤلم الموجع الذي يكون المقصود منه إعادة التائه إلى جادة الصواب، لا يُراد لذاته، وإنما المقصود تنبيه نفوس من أرسل إليهم العذاب ليستيقظوا من سباتهم، ويعودوا إلى ربهم.

والناس بعد ذلك فريقان: فريق ينتبه ويستيقظ بذلك العذاب -من مرض وزلازل وبراكين وأوبئة وغيرها- ويستدل به على شدة بطش الله ونقمته، فيعود إلى جادة الصواب -وهؤلاء هم الأقلون-، وفريق لا يعرف من هذه النذر إلا المظاهر، فيعرف أنه حدث زلزال، ويعرف أنه حصلت مجاعة، ويعرف أنها حصلت أوبئة، ولا يدري لم حصل هذا؟ وما سببه الحقيقي؟ وما الغرض منه؟ وهؤلاء هم أكثر الناس، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الطور: ٤٧، فالأكثرون لا يستفيدون مما مر بهم، قال ابن كثير:"{ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }أي: نعذبهم في الدنيا، ونبتليهم فيها بالمصائب، لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جُلِّي عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ مما كانوا عليه"[1] وقد جاء في الحديث: «أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَصَابَهُ السَّقَمُ ثُمَّ أَعْفَاهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَانَ كَفَّارَةً لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ، وَمَوْعِظَةً لَهُ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ إِذَا مَرِضَ ثُمَّ أُعْفِيَ، كَانَ كَالْبَعِيرِ عَقَلَهُ أَهْلُهُ ثُمَّ أَرْسَلُوهُ، فَلَمْ يَدْرِ لِمَ عَقَلُوهُ، وَلَمْ يَدْرِ لِمَ أَرْسَلُوهُ»[2].

(١) تفسير ابن كثير٧/ ٤٣٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه٣/ ١٤٩حديث٣٠٩١، كتاب الجنائز، باب الأَمْرَاضِ الْمُكَفِّرَةِ لِلذُّنُوبِ، من حديث عامر الرام-ﷺ-، وقد ضعفه الألباني،[انظر ضعيف الجامع ص٢٥٤ حديث١٧٦٧].

صور العذاب الدنيوي غير المستأصل

ورد في القرآن ذكر أنواع كثيرة من العذاب غير المستأصل، وإليك عرض ما جاء في القرآن من هذا:

أولاً- البأساء والضراء

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ الأعراف: ٩٤

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ الأنعام: ٤٢

البأساء: ما يصيبهم في أموالهم من جوائح وفقر. والضراء: ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام[١]، وهو قول أكثر المفسرين[٢]، "وقد يوضع كل واحد منهما موضع الآخر"[٣].

عندما تتوالى المصائب، وتتلاطم أمواج البلايا، فيجد الإنسان نفسه لا يخرج من مصيبة إلا وقع في أخرى، ولا تهون محنة إلا ويجد أن محنة أخرى أشد منها قد تلتها، فيضجر من هذا الوضع، فهو فوق صبره، ويريد النجاة منه بأي ثمن، لكن الأمر فوق الطاقة، فلا يطيق دفعه لا هو ولا أبناء جنسه.

فإذا وصل الأمر إلى هذا الحد؛ فإن الغالب من الناس يعرف هنا ربه، فيتضرع إليه طالباً النجاة من تلك البلية، مع أن هناك أقواماً قد بلغت بهم القسوة أن لا يتضرعوا حتى في هذه الحال، وقد بين ابن تيمية-رحمه الله- أن القرآن بيّن أن هناك حِزْباً إذَا نَزَلَ بِهِمْ الضُّرُّ؛ لَمْ يَدْعُوا اللَّه، وَلَمْ يَتَضَرَّعُوا إلَيْهِ، وَلَمْ يَتُوبُوا إلَيْهِ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا

---

(١) انظر: تفسير الطبري١١/٣٥٤، ومعالم التنزيل٣/٢٥٩.

(٢) انظر: تفسير القرطبي٦/٤٢٤.

(٣) المرجع السابق

﴿لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ المؤمنون: ٧٦[١]، وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب[٢]: "اعلم أن مشركي زماننا، أغلظ شركاً من الأولين، لأن الأولين يخلصون لله في الشدة، ويشركون في الرخاء؛ ومشركوا زماننا: شركهم دائم، في الرخاء والشدة"[٣]، ونقل الآلوسي عن بعض العارفين قوله:"مرجع الخواص إلى الحق جلَّ شأنه من أول البداية، ومرجع العوام إليه سبحانه بعد اليأس من الخلق" [٤]. ثم علق الآلوسي فقال:"كان هذا في وقت هذا العارف، وأما في وقتنا فنرى العامة إذا ضاق بهم الخناق تركوا دعاء الملك الخلاق ودعوا سكان الثرى ومن لا يسمع ولا يرى"[٥].

والكلام هنا إنما هو عن غالب الناس، وهم الذين إذا ضاقت بهم الدنيا، وتوالت عليهم المصائب، وعيل صبرهم[٦] بتوالي المحن عليهم في أبدانهم وأموالهم وأولادهم ضرعوا إلى ربهم

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى١٤/٣٧٤.

(٢) محمد بن عبد الوهاب:(١١١٥ - ١٢٠٦هـ) محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي: أصولي، مفسر، محدث، فقيه، متكلم – وهو زعيم الدعوة الدينية الإصلاحية في جزيرة العرب– التي سماها خصومها: الوهابية، وشاعت هذه التسمية عند الأوربيين ودخلت معاجمهم. ولد ونشأ في العيينة، ورحل إلى الحجاز، والشام، والعراق؛ وأوذي فيه بسبب دعوته. بعد عودته من رحلاته سكن حريملاء، ثم انتقل إلى العيينة. ناهجا منهج السلف الصالح، داعياً إلى التوحيد الخالص، ونبذ البدع، وتحطيم ما علق بالإسلام من أوهام. ناصره أمير العيينة عثمان بن معمر، ثم خذله، فقصد الدرعية سنة ١١٥٧ هـ فناصره أميرها محمد بن سعود وأبناؤه من بعده. وكانت دعوته التي جهر بها سنة ١١٤٣هـ الشعلة الأولى لليقظة الحديثة في العالم الإسلامي كله. وله مصنفات منها: (كتاب التوحيد) ورسالة(كشف الشبهات) و(تفسير شهادة أن لا إله إلا الله) و(الأصول الثلاثة) و(تفسير الفاتحة) و(أصول الإيمان) و(رسالة في أن التقليد جائز لا واجب) و(كتاب الكبائر) [انظر:معجم المؤلفين١٠/٢٦٩ والأعلام٦/٢٥٧].

(٣) الدرر السنية٣/٢٣.

(٤) روح المعاني٤/١٥٧.

(٥) المرجع السابق.

(٦) عيل صبرهم: أي: غُلِب.[انظر: مادة(عَوَلَ) في الصحاح، وتاج العروس].

طالبين النجاة مما حلّ بهم، فغالب الناس كذلك، والله تعالى إنما يرسل المصائب لكي يتضرعوا- كما سلف في الآيات-.

نجد أن القرآن بيّن أن الناس في هذه الحالة يجأرون إلى الله طالبين النجاة، كما في قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ النحل: ٥٣، فالإنسان يريد النجاة ولو بترك دينه -الذي يزعم وقت الرخاء أنه الحق-.

ولكن هؤلاء الناس-كما بين القرآن- ينقسمون بعد النجاة إلى قسمين: قسم استوعب الدرس، فسلك الطريق الحق، وعرف أن من ينجي وقت الشدة هو الذي يعتمد عليه ، وفريق آخر يعود إلى غيه، وينتكس على رأسه، وقد كشف القرآن عن هذين الفريقين في قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ النحل: ٥٤. هذا الفريق إذا حدث له الغنى والصحة طغى حين رأى أنه استغنى، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ العلق: ٦ – ٧، فيشرد عن ربه إلى حيث هلاكه، ويهرب عنه إلى مصائبه، ولكنه لفرط جهله لا يشعر.

ثانياً: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم

نموذج آخر من نماذج العذاب العام غير المستأصل، وهو ما وقع لآل فرعون عندما كذبوا رسول الله موسى-عليه السلام-، وقد ذكر الله هذا العذاب الذي أرسله عليهم في كتابه فقال سبحانه: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ الأعراف: ١٣٣

الطوفان: الماء الذي يغمر الأرض ويطغى على المنازل والمزارع، وقيل: الموت العام كالطاعون ونحوه(١) .

الجراد: جمع جرادة، وهي حشرة طائرة معروفة، وهو مهلك للزروع، ومن أسباب القحط، وينتشر عند طيرانه(٢). سمي جراداً لأنه يجرد الأرض، أي: يأكل ما عليها(٣).

الْقُمَّلِ: هو شيء يقع في الزرع قبل أن يسنبل فيأكله، وقيل: الدبا(٤)، وقيل: الذر(٥)، وقيل:نوع من القراد، يسمى الحمنان، يمتص دم الإنسان، وهو غير القَمْل الذي يكون بالشَعْر؛ لدسومته أو وسخه(٦)، وقيل: السوس الذي يكون في الحب، وقيل:البراغيث(٧).

---

(١) انظر:تفسير الطبري١٣/٤٩-٥١،ومعالم التنزيل٣/٢٦٩، والمحرر الوجيز٢/٥١١، والتحرير والتنوير٨/٢٥٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير٨/٢٥٤.

(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة(جرد).

(٤) الدبا: صغار الجراد قبل أن يطير[انظر: المحكم، مادة(قمل)].

(٥) انظر: المستقصى في أمثال العرب للزمخشري١/٢٧٢.

(٦) انظر: صحيح البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب طُوفَانٍ مِنَ السَّيْلِ٤/١٨؛ حيث أورد تفسير القُمَّل. والتحرير والتنوير٨/٢٥٤.

(٧) انظر: تفسير الطبري١٣/٥٤، وتفسير ابن كثير٣/٣٦٢.

الضفادع: جمع ضفدع، وهو "حيوان يتولد من المياه الضعيفة الجري، ومن العفونات، وعقيب الأمطار. وأول ما يظهر مثل الحب الأسود ثم ينمو ثم تتشكل له الأعضاء"[١]، وهو "يمشي على أرجل أربع، ويسحب بطنه على الأرض، ويسبح في المياه، ويكون في الغدران ومناقع المياه"[٢]، سلطها الله على آل فرعون فكانت"تسقط في أطعمتهم التي في بيوتهم، وفي أشربتهم"[٣]

الدم: قيل: الرعاف[٤]، وقيل: يكون طعم طعامهم وشرابهم دما[٥]، وقيل: انقلب النيل دما على آل فرعون[٦].

بيان أنها متتالية وليست دفعة واحدة:

الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم؛ خمسة أنواع من العذاب المؤقت تتالت على آل فرعون، ومن الخطأ الذي قد يظنه البعض أن هذه الأنواع الخمسة قد أرسلت جملة واحدة، ثم كشفها الله دفعة واحدة أيضاً. والواقع إن كل واحدٍ منها جاء على انفراد، ثم يعاهدون موسى-عليه السلام- بإجابة دعوته إن هو دعا الله ليكشف ما بهم، فإذا كشفه الله عنهم نقضوا عهدهم في كل مرة. وهذا هو معنى قوله تعالى:(مفصلات)، قال ابن جرير: أي "قد فصل بينها، فجعل بعضها يتلو بعضا، وبعضها في إثر بعض"[٧]

---

(١) المستطرف لأبي الفتح الأبشيهي٢/٢٥٢.

(٢) التحرير والتنوير٨/٢٥٤.

(٣) تفسير الطبري١٣/٦٨.

(٤) انظر: المرجع السابق، وتفسير ابن أبي حاتم٥/١٥٤٩.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم٥/١٥٤٩.

(٦) انظر: تفسير الطبري١٣/٦٧.

(٧) المرجع السابق١٣/٦٨

وجاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- من حديث طويل أنه "لَمَّا طَالَ مُكْثُ مُوسَى بِمَوَاعِدِ فِرْعَوْنَ الْكَاذِبَةِ، كُلَّمَا جَاءَهُ بِآيَةٍ وَعَدَهُ أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا مَضَتْ أَخْلَفَ مَوْعِدَهُ وَقَالَ: هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَصْنَعَ غَيْرَ هَذَا؟ فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى قَوْمِهِ: {الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقَمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ} كُلُّ ذَلِكَ يَشْكُو إِلَى مُوسَى وَيَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَكُفَّهَا عَنْهُ، عَلَى أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا كَفَّها عنه أَخْلَفَ مَوْعِدَهُ، حَتَّى أُمِرَ مُوسَى بِالْخُرُوجِ بِقَوْمِهِ، فَخَرَجَ بِهِمْ لَيْلاً، فَلَمَّا أَصْبَحَ فِرْعَوْنُ فَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ مَضَوْا أَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، فَتَبِعَهُ بِجُنُوده"[(١)].

وورد ما يفيد أن هذه الآيات من العذاب متفرقة لا مجتمعة في آثار أخرى أخرجها ابن جرير[(٢)] وابن أبي حاتم[(٣)]. وأكثر المفسرين اختار الروايات التي تبين أن بين كل اثنتين شهراً، وأن امتداد كل واحدة منها أسبوعاً[(٤)]، وبعضهم اختار أن كل واحدة كانت تمتد شهرا[(٥)].

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى١٠/١٧٩حديث ١١٢٦٣، كتاب التفسير، باب سورة مريم. وأبو يعلى في مسنده (٥/١٠،حديث ٢٦١٨) من مسند ابن عباس. قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير أصبغ بن زيد، والقاسم بن أبي أيوب وهما ثقتان.[مجمع الزوائد٧/١٦٥].

(٢) تفسير الطبري١٣/٥٦.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم٥/ ١٥٤٥- ١٥٤٩.

وابن أبي حاتم(٢٤٠ - ٣٢٧ هـ) هو العَلاَّمَةُ، الحَافِظُ:عبد الرحمن بن أبي حاتم بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، أبو محمد: عابدٌ، زاهدٌ، حافظ للحديث، من كبارهم، بحرٌ في العلوم ومعرفة الرجال لا تكدره الدلاء. كساه الله نوراً وبهاء يسر من ينظر إليه. لم يُحفظ عليه جهالة قط، وكان يعرف اسم الله الأعظم، فمرض ابنه فاجتهد أن لا يدعو به؛ لأنه لا يريد أن ينال به عرضاً من الدنيا، فلما اشتدت علته حزن ودعا به فعوفي.تصانيفه: لَهُ (تفسير) كَبِيْرٌ مِنْ أحسن التفاسير، عامته آثار بأسانيده، وكتاب نفيس فِي (الجرح والتعديل)، و(الرد على الجهمية)، و(المسند) و(الزهد)، و(الفوائد الكبير)، و(العلل). [انظر: سير أعلام النبلاء١٣/٢٦٣، والأعلام٣/٣٢٤].

(٤) انظر: بحر العلوم١/٥٦٠، وتفسير السمعاني٢/٢٠٩،وتفسير البيضاوي٣/٥٣، والسراج المنير١/٤٠١، وروح البيان٣/١٦٨، وتفسير أبي السعود٣/٢٦٥.

(٥) انظر:النكت والعيون٢/٢٥٣، وروح المعاني٥/٣٤، والبحر المديد٢/٥٣٢.

الحكمة من تفريقها في الوقوع؛ وجمعها في الذكر:

الحكمة من تفريقها في الوقوع: أن يكون مع الإنذار إعذار[١] -والعلم عند الله-

أما **الحكمة من جمعها في السياق القرآني مع كونها متفرقة في الوقوع:** فقد أحسن سيد قطب إبرازها حين قال:"جمع السياق الآيات كلها، كأنما جاءتهم مرة واحدة، وكأنما وقع النكث منهم مرة واحدة؛ ذلك أن التجارب كلها كانت واحدة، وكانت نهايتها واحدة كذلك؛ وهي طريقة من طرق العرض القرآني للقصص؛ يجمع فيها البدايات لتماثلها، ويجمع فيه النهايات لتماثلها كذلك .. ذلك أن القلب المغلق المطموس يتلقى التجارب المنوعة وكأنها واحدة لا يفيد منها شيئا ، ولا يجد فيها عبرة"[٢]-والله أعلم-.

ولما كانت هذه الوقائع متفرقة في الوقوع، فإن من المناسب-بعد الاستعانة بالله- دراستها واحدة واحدة:

---

(١) انظر:النكت والعيون٢/٢٥٣.

(٢) في ظلال القرآن٣/ ١٣٥٨.

الطوفان

يشاهد الناس في حياتهم ما يحدث عندما تهطل الأمطار بغزارة، وعندما تحدث الفيضانات، فتنقطع السبل ، وتصعب الحياة، فالمساكن مهددة بالانهيار، والمزارع مهددة بالتلف، والأوحال تمنع الناس من السعي في قضاء حوائجهم وأعمالهم، ويزداد الأمر سوءاً إذا تعدى الوضع مجرد المشاق والمصاعب إلى الخوف من الغرق، وصار كل إنسان يتوقع أن يغرق اليوم أو غداً هو أو أحد قرابته.

لو حدث الطوفان الناتج من استمرار هطول الأمطار، أو من الفيضانات، أو ارتفاع منسوب مياه الأنهار ليوم أو يومين لحدث من المصاعب ما لا يعلمه إلا من يعيش في تلك الأوضاع. فكيف تكون الحال إذا استمر مدة أطول من المعتاد الذي يمكن للناس تَحَمُّل مشاقه؟

سيهرع الناس حينها إلى ما عندهم من الإمكانات لتصريف السيول ونحوها، وكلما أحسوا أن إمكاناتهم لا يمكنها مجابهة ما يحدث؛ شعروا بالحاجة إلى قوة خارقة تنقذهم من هذه الأزمة. فما الذي يحدث عادة؟

يتجه الناس إلى ربهم من أعماق قلوبهم لينجيهم من هذا العذاب.

يحدث هذا التوجه إلى الخالق العظيم في كل عصر ومصر، وقد تحدث القرآن عن وقوعه لآل فرعون، فإنهم عندما كذبوا موسى-عليه السلام- وغُلِب السحرة الذين أرادوا أن يطفئوا بهم نور الحق الذي جاء به موسى-عليه السلام- من عند الله، زاد شرهم وطغيانهم فأرسل الله عليهم طوفان ماء، قطع سبلهم، وشعروا أنهم مهددين بالغرق، فاتجهوا إلى موسى-عليه السلام- ليتوسل إلى الله أن يكشف عنهم هذا الرجز الذي أرسله عليهم، فهم لا يطيقونه، ويريدون النجاة منه بأي ثمن، وتعهدوا له-عليه السلام- أنهم سيؤمنون به، وسيرسلون معه بني إسرائيل، كما قال الله سبحانه:

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ الأعراف: ١٣٤

وفعلاً توجه موسى إلى ربه داعياً أن يكشف عنهم ما أصابهم، ولكن فرعون وآله لم يفوا بما عاهدوا موسى عليه، كما نصّ الله على ذلك بقوله: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ الأعراف: ١٣٥. وعن ابن إسحاق قال:"رجع عدو الله-يعني فرعون-حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر، والتمادي في الشر، فتابع الله عليه بالآيات، وأخذه بالسنين، فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع ، ثم الدم، آيات مفصلات، فأرسل الطوفان -وهو الماء- ففاض على وجه الأرض، ثم ركد، لا يقدرون على أن يحرثوا، ولا يعملوا شيئا، حتى جهدوا جوعا؛ فلما بلغهم ذلك، قالوا: يا موسى، ادع لنا ربك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك، ولنرسلن معك بني إسرائيل ! فدعا موسى ربه، فكشفه عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا"[1].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره١٣/٦٣.

الجراد

ربما يغفل الإنسان عن ضعفه، ويظن أنه قوي بحرثه وزرعه، فيظن أنه بإمكاناته قد ضمن قُوْتَه، فالمحاصيل الزراعية أكثر من الحاجة، والأراضي خصبة تطيب بها الزروع، والمياه متوفرة لا يخاف على الزرع من العطش واليبس.

فبينما هو سَكِر في هذه الحال يفاجأ بجند ضعيف قوي التدمير، لا يترك شيئاً من المحاصيل إلا جَرَدَه وأباده، فلم يبق من الزرع باقية.

إنه الجراد؛ جيوش تخضع لرئيس، فهو-بأمر الله- ينقاد إلى رئيس يجتمع إليه كالعسكر، إن ظعن أوّله تتابع كلّه ظاعناً ؛ وإذا نزل أوّله نزل جميعه"[١] فالناس يصابون بالهلع عندما يشاهدون تلك الجيوش مقبلة على زروعهم، وشَكل خلقته يساعد على هذا الهلع فإن في الجرادة " شبه من عشرة من جبابرة الحيوان، وهي : وجه فرس، وعينا فيل، وعنق ثور، وقرنا إيل[٢]، وصدر أسد، وبطن عقرب، وجناحا نسر، وفخذا جمل، ورجلا نعامة، وذنب حية"[٣].

الجراد، يجرد الزروع جرداً، ومن أمثال العرب -التي تُقال للرجل الذي يُفسد-: (أجرد من جراد)، لأن الجراد إذا وقع في زرع جرده حتى لا يبق منه شيئا[٤]. وقد زصف أحد الأعراب إفساده محاصيلهم؛ فقال:"أتتنا غيوم جراد، بمناجل حداد، فأخربت البلاد، وأهلكت العباد، فسبحان من يهلك القويَّ الأَكُول، بالضعيف المأكول"[٥].

---

(١) نهاية الأرب؛ لشهاب الدين النويري١٠/١٧٩.

(٢) الْأَيِّلُ: ذَكَرُ الْأَوْعَالِ وَهُوَ التَّيْسُ الْجَبَلِيُّ.[انظر: المصباح المنير؛ مادة(ء ي ل)].

(٣) المرجع السابق١٠/١٨٠.

(٤) انظر: جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري١/٣٣٥.

(٥) نهاية الأرب١٠/١٨٠.

فالزروع تكون به هباء، والمجاعة تحدث بعد أن كانت الثمار كثيرة، والأراضي خصيبة، وزيادة على ما يأكله من المحاصيل فإن"لعابه سمّ على الأشجار، لا يقع على شيء منها إلا أهلكه"[١].

وقد عذّب الله خلقه به مراراً لعلهم يذّكّرون، وإليه يعودون.

ذكر ابن كثير حوادث سنة ثلاثمائة وإحدى عشرة، فقال:"فيها كثر الجراد، وأفسد كثيرا من الغلات"[٢].

وقال أيضاً-وهو يسرد حوادث سنة ثمان وستين وأربعمائة-:"جاء جراد في شعبان بعدد الرمل والحصا، فأكل الغلات، وآذى الناس، وجاعوا"[٣].

وفي سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، كان الجراد بالشام قد زاد أمره، وعظم خطبه، وأمحلت السّنة بعد السّنة، ولم يسلم من الزرع إلا أقله[٤].

وقال ابن كثير-وهو يسرد حوادث سنة اثنتين وعشرين وستمائة-:" فيها كان غلاء شديد بالعراق والشام بسبب قلة الأمطار وانتشار الجراد، ثم أعقب ذلك فناء كثير بالعراق والشام أيضا، فمات بسببه خلق كثير في البلدان، فإنا لله وإنا إليه راجعون"[٥] .

والمؤرخون قد ذكروا من حوادث الجراد على مر السنين ما لا يكاد يحصر.

---

(١) المرجع السابق١٠/١٨٠.

(٢) البداية والنهاية١١/١٦٨.

(٣) المرجع السابق١٢/١٣٧.

(٤) نهاية الأرب١٠/١٨٠.

(٥) البداية والنهاية١٣/١٢٤.

والجراد عذّب الله به فرعون وقومه؛ حينما نكثوا عهدهم بالإيمان بموسى-عليه السلام- إن هو دعا الله فكشف عنهم الطوفان-كما دلت على ذلك الآية الآنفة الذكر-.

والناس بعد حلول هذه المصيبة يكتشفون أنهم في خطرٍ إن لم ينجهم الله من هذا المخلوق، *وينقسم الناس بعد هذه الحادثة ثلاثة أقسام:*

قسم قست قلوبهم فلا تُحْدِثُ فيها هذه المصائب أثراً، بل يعدُّون الأمر طبيعياً ،يحدث نتيجة أسباب حسية معروفة، كهجرة الجراد ونحوها، ويقولون: قد مسّ آباءنا الضراء والسراء.

وقسم استفادوا الدرس، وعلموا ضعفهم، وقوة خالقهم، وأن له جنوداً لا يعلمها إلا هو سبحانه، فيعودون إلى ربهم، ويعدُّون ما أصابهم فائدة ورحمة؛ حيث أيقظهم من غفلة كادت تهلكهم.

وقسم كآل فرعون، يلجأون إلى الله متضرعين إليه ليكشف عنهم ما أصابهم، فإذا كشف الجراد عنهم إذا هم أسوأ حالاً منهم قبله.

آل فرعون لما وقع عليهم الجراد أتوا إلى موسى-عليه السلام- مرّة أخرى طالبين منه دعاء الله أن يكشف عنهم ما أصابهم من الجراد الذي لم يترك من محاصيلهم شيئاً، معاهدين له أن يؤمنوا ويرسلوا معه بني إسرائيل؛ فدعا الله فكشف عنهم ما أصابهم من بلائه، ولكن فرعون وآله لم يكونوا في هذه المرة أحسن حالاً من سابقتها، بل نكثوا عهدهم كما نصّ الله على ذلك بقوله: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ الأعراف: ١٣٥.

القمل

هناك قمّل يقع على الإنسان فيمتص دمه، وهو غير القَمْل الذي يصيب الشعر[١].

وهناك قمّل الزرع؛ مهلك للزروع، فإن كان الجراد الضعيف يهلك الزروع بعدما أينعت وطابت، فهذا المخلوق الأضعف من الجراد يفسدها قبل ذلك، فإن طبيعة القمَّل: أنه يقع في الزرع قبل أن يسنبل فيأكله[٢]، ويمتص الحب وهو رطب فتذهب قوته وخيره، وهو خبيث الرائحة[٣].

حقاً إنها حشرات صغيرة تكشف ضعف الإنسان، وكثرة جند الله، فلا يعلم جنود ربك إلا هو، تقع على الإنسان الذي يطغى إذا رأى أنه استغنى، فتمتص خُلاصة غذائه، وهو دمه.

وتأتي هذه الحشرات الحقيرة المنتنة الرائحة إلى محاصيل الناس قبل نضجها فتستهلكها قبل أن يستهلكها صاحبها.

هذه الحشرات الصغيرة الحقيرة إذا أراد الله أن يعذِّب بها من شاء من خلقه، أرسلها بكميات لا طاقة له بها، فلا تنفع الإنسان استعداداته، ولا تفيده آلاته. فيضطر حينها إلى إعلان عجزه وضعفه، فيلجأ إلى خالقه ليكشف ما أصابه. ولو بلغ الإنسان من الطغيان أن يدعي الألوهية، ويتجاوز ذلك إلى ادعاء الربوبية، فلن تعجز هذه الحشرات إذا أراد الله أن تكشف لهذا الإنسان أنه في غرور، كما حصل لفرعون، فقد أرسل الله عليه وعلى قومه القمَّل، فجاءوا يستغيثون بموسى ليدعو ربه أن يكشف ما أصابهم منه، وعاهدوه مرة أخرى أن يؤمنوا ويرسلوا معه بني إسرائيل، وفعلاً فعل موسى ذلك، ولكنهم نكثوا كالمرتين السابقتين.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير٨/٢٥٤.

(٢) انظر: المستقصى في أمثال العرب١/٢٧٢.

(٣) انظر: المحكم، مادة(قمل).

والمقصود هنا الموعظة المستفادة من هذا العذاب، ولن يختلف الأمر عند دراسة القمَّل بالمعاني الأخرى، فالمقصود أنه حشرات حقيرة تضطر الإنسان إلى أن يضرع لربه؛ طالباً أن ينجيه منها.

الضفادع

حيوان رقيق الجسم، لطيف الملمس، يعيش في الأماكن الرخوة، وغالب عيشه في المياه. هذا الحيوان الرخو الذي لا عظام له، أجحظ المخلوقات عيناً[1].

أطلق العنان لخيالك، وفكِّر كيف سيكون حيوان بهذه الصفات؛ عذاباً شديداً؛ لا يتحمله أعتى العتاة عتواً، وأشد الجبابرة جبروتاً.

لم تقف رخاوة جسمه حائلاً بينه وبين إفساد حِيَلْ الإنسان في دفعه، فمحاولات الناس وحِيَلِهم تذهب أدراج الرياح حينما يريد الله أن يرسل هذا الحيوان عذاباً لأولئك، ليستفيقوا من سكرة غرورهم؛ إن كان لهم قلوب يعقلون بها.

هذا الكلام ليس كلاماً إنشائياً لا يسنده واقع، ولا تدعمه حقيقة، بل إنه حقيقة واقعة يجدها المتأمل لكتاب الله في قصة فرعون، فذلك الطاغية المتكبر، والمتعالي، والمكذب لنبي الله موسى -عليه السلام- الذي ادعى انفراده بألوهية أهل مصر، كما قال الله تعالى عنه: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ القصص: ٣٨، ولم يكتف بهذا حتى جمع الناس ليزعم أنه ربهم، كما نصّ الله على ذلك بقوله: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ النازعات: ٢٣ – ٢٤.

فكان مما سلط الله عليه وعلى ملئه؛ هذا الحيوان الرخو، كما أخبر الله عن ذلك في آية سبق ذكرها؛ وهي قوله سبحانه: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ﴾ الأعراف: ١٣٣، ولم يأت في القرآن ذكر ما فعلت بهم الضفادع، ولكن ذكر المؤرخون والمفسرون آثاراً كثيرة تدل على ما فعلته بهم الضفادع، ومنها ما يلي:

---

(١) انظر: الحيوان للجاحظ٥/٥٢٩.

ورد عن ابن عباس-رضي الله عنهما- "أن الله أرسل عليهم الضفادع، فامتلأت منها البيوت، فلم يبق لهم طعام ولا شراب إلا وفيه الضفادع، فلقوا منها شيئا لم يلقوه فيما مضى"[١].

وعن ابن إسحاق" أن الله أرسل عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً ولا إناء إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فجهدهم ذلك"[٢]

.

وعن سعيد بن جبير[٣] قال:"أرسل الله عليهم الضفادع، فكان أحدهم يضطجع، فتركبه الضفادع، فتكون عليه ركاما، حتى ما يستطيع أن ينصرف إلى الشق الآخر، ويفتح فاه لأكلته فيسبق الضفدع أكلته إلى فيه، ولا يعجن عجينا إلا تسدحت فيه، ولا يطبخ قدرا إلا امتلأت ضفادع، فعذبوا بها أشد العذاب، فشكوا إلى موسى ﷺ وقالوا: هذه المرة نتوب ولا نعود! فأخذ عهدهم وميثاقهم. ثم دعا ربه، فكشف الله عنهم الضفادع بعد ما أقام عليهم سبعا؛ من السبت إلى السبت"[٤] .

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره١٣/٦٣.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره١٣/٦٤.

(٣) سعيد بن جبير(٣٨-٩٥): الإمام، الحافظ، المقرئ، المفسر، الشهيد، الأسدي، الوالبي منسوب إلى ولاء بني والبة، الكوفي، أحد الأعلام(أبو عبد الله): كان أسوداً، يقال عنه:جهبذ العلماء، أجمع التابعين لعلوم الشريعة، كان ابن عباس يحيل عليه المستفتين؛ قُتل وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه. كان في كلامه حِكم ووعظ، وكان مجاب الدعوة. قتله الحجاج ظُلماً بسبب خروجه مع ابن الأشعث، خيّره الحجاج في كيفية قتله؛ فقال: اختر أنت فإن القصاص أمامك. قال الذهبي:"لما علم من فضل الشهادة، ثبت للقتل، ولم يكترث، ولا عامل عدوه بالتقية المباحة له".[انظر:تهذيب الأسماء واللغات١/٢٤٢، وسير أعلام النبلاء٤/٣٢١].

(٤)أخرجه الطبري في تفسيره١٣/٦٧.

وذكروا من كثرة الضفادع عليهم: أن الرجل كان يجلس إلى ذقنه في الضفادع، وما يتكلم أحدهم إلا ويثب ضفدع في فيه ، وما من آنيتهم من شيء إلا وهي ممتلئة من الضفادع" أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس[١] والطبري عن سعيد بن جبير[٢] .

هذه الروايات تكشف جانباً مما يمكن أن تفعله الضفادع -بإذن الله- من العذاب الذي لا يطاق، ويمكن أن يسلطها الله بما هو أعظم من ذلك.

أي قوة، وأي حيلة؛ تدفع هذا العذاب، فأين ألوهية فرعون المدّعاة؟ وأين الربوبية المزعومة؟

يطأطئ فرعون وآله رؤوسهم، ويأتون إلى موسى-عليه السلام- طالبين منه أن يكشف ما بهم ويؤمنوا له ويرسلوا معه بني إسرائيل، معاهدين أنهم لن يكونوا هذه المرة كالمرات السابقة، فأمر الضفادع آية واضحة، العذاب بها لا يطاق، لذا أتوا موسى-عليه السلام-كارهين رجاء النجاة منها.

وفعلاً فعل موسى-عليه السلام- ودعا ربه أن يكشف الضفادع عنهم، ولكنهم هذه المرة لم يكونوا أحسن حالاً من المرات السابقة، وقد أوضح الله تعالى موقفهم في كل مرة: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ الزخرف: ٥٠.

هؤلاء القوم مرّ بهم عذاب شديد، ولكنهم نسوه لما ذهب، عذاب بالضفادع يكشف الله بها مدى قدرته الله على خلقه.

ذلك العذاب يعطي العاقل درساً ينظر من خلاله إلى أن للكون رباً يدبره، فإذا جاء عذاب من زلازل، وبراكين، ومحنٍ، وغلاء أسعار؛ عاد إلى ربه منيباً متفكراً في قدرته وحقه، ولا

---

(١)انظر: تفسير ابن أبي حاتم٥/١٥٤٨.

(٢) انظر: تفسير الطبري١٣/٥٨.

ينظر إلى هذه الأنواع من العذاب على أنها مجرد ظواهر طبيعية؛ ناظراً إلى أسبابها المادية، متناسياً الأسباب الحقيقية لتلك الأسباب المادية.

فمن أراد الله سعادته استيقظ بمثل ذلك من سنة الغفلة، وعاد إلى رشده، وأناب إلى ربه، ومن أراد الله شقاوته وقف عند مجرد المعرفة بالأسباب المادية، وما يذكره علماء الفلك والطب ونحوهم، ولم يستفق إلا بالعذاب الأكبر- نسأل الله السلامة والعافية-.

الدم

عندما يكون الدم بالحالة المناسبة لجسم الإنسان؛ فإنه يكون سبباً في الاستقرار النفسي والبدني، أما إذا اختل عن الحالة المناسبة بالزيادة أو النقص أو فقدان بعض العناصر، فيكون سبباً في تدهور الحالة الإنسان النفسية أو البدنية، كما هو مشاهد معروف. إن تحليل الدم يساعد على تشخيص الأمراض النفسية والجسمية؛ مما يدل على أهمية الدم. وهناك أمراض كثيرة تعرف بـ"أمراض الدم"، والأمراض التى تصيب دم الإنسان كثيرة لها أنواع وأشكال، منها ما هو حاد، ومنها ما هو مزمن، وبعضها يكون سببه الوراثة أو نقص التغذية، وبعضها يكون سببه أورام سرطانية مثلا[١].

وحيث إن هذا الأمر مما لا يكاد يجهله أحد، فمن المستحسن عدم الإطالة فيه. إن الله تعالى إذا أراد أن يذيق أمَّة من الأمم شيئاً من بأسه بالدم؛ فعل، وقد فعل ذلك بفرعون وقومه حينما سلط عليهم الرعاف[٢]، فكثر فيهم، ولم يستطيعوا أن يواجهوا ذلك بما عُرف عنهم من تقدم الطب، وما يُسمى الحضارة.

لقد وقفوا أمام الرُعاف عاجزين، كما يقف الطب المعاصر أمام بعض الأمراض، لا يستطيع إلا تحليل مظاهرها.

وقفوا مكتوفي الأيدي أمام ما قد يُعد في غاية البساطة، مما يدلك على سهولة إهلاك الخلق على الخالق، فقد يهلكهم بالبرد أو بالحر أو بالرعاف، ويريهم ضعفهم.

---

(١) انظر: بحث في بيولجية الحياة والإنسان ص١١٠، وموسوعة الطب الحديث ص٢٢٦.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره١٣/٦٨، وابن أبي حاتم في تفسيره٥/١٥٤٩، كلاهما عن زيد بن أسلم.

وهناك رواياتٌ أن مياه الآبار والأنهار تحولت دماً، فكانوا لا يشربون إلا دماً[1]، فلم يقدروا على الصبر على هذه الشدة التي أصابتهم.

اضطروا أمام هذا الحدث أن يأتوا موسى -عليه السلام- صاغرين، مكررين له نفس العهود السابقة؛ بالإيمان، وإرسال بني إسرائيل معه؛ طالبين منه أن يدعوَ ربه؛ لينجيهم من هذا البلاء، كما نصّ الله على ذلك بقوله: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ الأعراف: ١٣٤، وقوله سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ الزخرف: ٤٩.

ولكنهم لم يكونوا هذه المرة أوفى منهم في المرات السابقة، فقد كرروا نفس الفعلة، كما أخبر الله عن ذلك بقوله: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ الأعراف: ١٣٥، وقوله: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ الزخرف: ٥٠.

إن العاقل من يأخذ العظة مما حدث لفرعون وقومه؛ فلا يجعل حظه من العقوبات الإلهية دراسة مظاهرها ومادياتها، دون أن يستشعر الحكمة الربانية من إرسالها، والأسباب الإيمانية لحدوثها، فما حدث بلاء إلا بذنب، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ الشورى: ٣٠.

---

(١) انظر: المرجعين السابقين.

ثالثاً: السنين ونقص الثمرات

نموذجان آخران من عذاب الله الدنيوي غير المستأصل؛ يقصهما الله في كتابه، من الشدة والبأس الذي أصاب فرعون وآله، ويصيب غيرهم ممن أعرض عن الله، وعن كتابه ودينه، فسنة الله لا تتبدل ولا تتغير، كما قال الله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ الفتح: ٢٣.

هذان النموجان هما السنين ونقص الثمرات. ذكرهما الله في كتابه بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ الأعراف: ١٣٠.

ويحسن عرض كل واحدٍ منهما على حدة، كما سبق فيما قبلهما:

السنين

السنين: القحط والجدب[١].

الإنسان لا يستطيع العيش إلا بالطعام والشراب، وقد جعل الله عماد ذلك على المياه والنباتات، فإذا أجدبت الأرض سنة من السنين، وانعدمت النباتات، وقَلَّت الأمطار، عرض للناس من الجوع والفاقة بنفاد مخزونهم من الطعام ما لا يخفى على متأمل. هذا إذا كان لسنة واحدة، فكيف إذا توالت السنون، وتتابعت الأعوام، وهم على هذه الحال؟!

وعلى مر التاريخ يعظ الله عباده بالسنين؛ لعلهم بهذا العذاب يعودون إلى الصواب، ومما مرّ في تاريخ المسلمين من ذلك ما يلي:

قال ابن جرير -وهو يسرد حوادث سنة ثمان وستين-:"في هذه السنة كان القحط الشديد بالشام حتى لم يقدروا من شدته على الغزو"[٢].

---

(١) انظر: لسان العرب، مادة(سنت)، وتاج العروس،مادة(سنو)، وتفسير الطبري١٣/٤٥.

(٢) تاريخ الأمم والملوك٣/٥٠٢.

وقال الذهبي[١] -وهو يسرد أخبار سنة أربعمائة وواحدٍ للهجرة-:"فيها كان القحط الشديد بخراسان[٢]، لاسيما بَنْيسابور؛ فهلك بنَيْسابور وضواحيها مائة ألف أو يزيدون. وعجزوا عن غسل الأموات وتكفينهم. وأُكِلَتْ الجيفة، والأرواث، ولحوم الآدميين؛ أكْلاً ذريعاً، وقبض على أقوام بلا عدد كانوا يغتالون بني آدم ويأكلونهم"[٣].

وقال السلاوي[٤]:"في سنة تسع وثمانين وستمائة؛ كانت الريح الشرقية المتوالية الهبوب؛ ونشأ عنها القحط الشديد، واستمر ذلك إلى آخر سنة تسعين، بعدها رحم الله بلاده وعباده"[٥].

---

(١) الذهبي(٦٧٣ - ٧٤٨ هـ): محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله: إمام الوجود، حافظ، مؤرخ، علامة، محقق. تركماني الأصل، مولده ووفاته في دمشق. كان علامة زمانه في الرجال وأحوالهم، حديد الفهم، ثاقب الذهن. وشهرته تغني عن الإطناب فيه. رحل إلى القاهرة وطاف كثيرا من البلدان. وكف بصره سنة ٧٤١ هـ. قال السبكي:"كان شيخنا[يعني الذهبي] والحق أحق ما قيل، والصدق أولى ما آثره ذو السبيل، شديد الميل إلى آراء الحنابلة(يعني السلفية)، كثير الإزراء بأهل السنة(يعني الأشاعرة). تصانيفه كبيرة يرغبها الناس، كثيرة تقارب المائة -كان أكثر أهل عصره تصنيفا- منها: (طبقات القراء) و(تاريخ الإسلام الكبير) و(سير النبلاء) و(الكاشف) و(الطب النبوي) و(زغل العلم). [انظر: الدرر الكامنة٥/٦٦، وطبقات الشافعية للسبكي٩/١٠٠، وأبجد العلوم٣/٩٨ ومعجم المؤلفين٨/٢٨٩، والأعلام٥/٣٢٦].

(٢) خراسان: بلاد واسعة؛ أول حدودها مما يلي العراق، وآخر حدودها مما يلي الهند.[انظر: معجم البلدان٢/٣٥٠].

(٣) تاريخ الإسلام٢٨/١٠.

(٤) السلاوي (١٢٥٠ - ١٣١٥ هـ): أحمد بن خالد بن حماد بن محمد الناصري الدرعي، شهاب الدين، من عرب معقل، من أسرة جعفرية زينبية: مؤرخ، أديب، بحاث. مولده ووفاته في مدينة سلا (بالمغرب). من مؤلفاته: تاريخه الممتع النفيس (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) و(تعظيم المنة بنصرة السنة) و(الرد على الطبيعيين)، و(مجموع فتاويه الفقهية) و(ديوان شعر). انقطع في آخر عمره عن مخالطة الناس.[أنظر: الأعلام١/١٢٠، ومعجم المؤلفين١/١٨٧].

(٥) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٣/٩٠.

فإذا توالت السنون المجدبة، وتتابع القحط العام، لم يجد الناس ما يأكلونه، فجاعوا وعطشوا، ووصلت بهم الحال أن يأكلوا الميتات والأرواث والكلاب والحمير، وتبيّن لهم أن قوّتَهم لم تكن إلا غرورا، حيث لم تدفع عنهم هذا القحط، ولم تجلب لهم الخصب، هنا لابد أن يتجهوا بكل قلوبهم، متضرعين إلى القادر على كل شيء؛ لعله أن يغيثهم، ويكشف ما بهم.

فمهما بلغ جبروت الإنسان وطغيانه، ومهما بلغ عتوه وكبره، لابد أن يخضع، فالأمر فوق الطاقة، والحقائق حقائق، والدعاوى تذهب أدراج الرياح.

ولكن: قد تقسوا القلوب، وتظْلِم الأفئدة، فلا تنفعها عظة، ولا تجدي معها حيلة.

قد أخذ الله قريشاً بالسنين حين دعا عليهم النبي-ﷺ-فقال:" اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ؛ اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ"[1] ، وبعد هذا"أَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ؛ حَتَّى أَكَلُوا الْجُلُودَ وَالْمَيْتَةَ وَالْجِيَفَ وَيَنْظُرَ أَحَدُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى الدُّخَانَ مِنَ الْجُوعِ، فَأَتَى أَبُو سُفْيَانَ النبي-ﷺ-؛ وقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللهِ، وَبِصِلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا فَادْعُ اللَّهَ لَهُمْ"[2] .

وقد أخذ الله بالسنين آل فرعون فما زادهم إلا عتواً وطغياناً وإيذاءً لموسى-عليه السلام- ومن معه من المسلمين، كما بيّن الله ذلك بقوله سبحانه:﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟

(١) متفق عليه عن أبي هريرة: انظر: صحيح البخاري٢/٣٣حديث(١٠٠٦)،كتاب الاستسقاء، باب دُعَاءِ النَّبِيِّﷺ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ. وصحيح مسلم٢/٢٣٤حديث(١٥٧٢)، كتاب المساجد، باب اسْتِحْبَابِ الْقُنُوتِ فِي جَمِيعِ الصَّلاَةِ إِذَا نَزَلَتْ بِالْمُسْلِمِينَ نَازِلَةٌ.

(٢) أخرجه البخاري٢/٣٣حديث١٠٠٧، عن ابن مسعود، كتاب الاستسقاء، باب دُعَاءِ النَّبِيِّ-ﷺ- اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ.

بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ الأعراف: ١٣٠ – ١٣١، قال ابن عجيبة:"{ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ } أي : بالجدب والقحط لقلة الأمطار والمياه، {وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ }بكثرة العاهات، {لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } أي : لكي ينتبهوا أن ذلك من شؤم كفرهم ومعاصيهم، ويتعظوا، وترق قلوبهم بالشدائد، فيفزعوا إلى الله، ويرغبوا فيما عنده، {فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ }: من الخصب والسعة والرخاء، {قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ} أي: قالوا: هذه لنا ولسعودنا، ونحن مستحقون له. {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ }: جدب وبلاء {يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ} أي : يتشاءمون بهم، ويقولون : ما أصابتنا إلا بشؤمهم، وهذا إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة ؛ فإن الشدائد تُرقق القلوب ، وتُذلل العرائك أي: الطبائع، وتُزيل التماسك ، سيما بعد مشاهدة الآيات ، وهي لم تؤثر فيهم ، بل زادوا عندها عتوًا وانهماكًا في الغي"[1].

التمادي في الغفلة، وعدم الاعتبار بالحوادث، يوقعان الإنسان في الكوارث، والقرآن مليء بالدعوة إلى الاتعاظ والاعتبار، فلننتبه، ولا نكن من الغافلين عن النذر، الذين ذمهم الله بقوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ يوسف: ١٠٥

(١) البحر المديد٢/٣٨٣-٣٨٤.

نقص الثمرات

المراد به: نقص غَلَّات الزروع والثمار عن المعتاد فلا يَنْتُج عنها إلا القليل اليسير، وقد يصل الأمر إلى أن لا تنتج النخلة إلا بسرة واحدة[١].

إن كانت سنين الجدب والقحط أظهر في البادية وأهل المواشي، فإن نقص الثمرات أظهر في الحاضرة وأهل المزارع، ولذا قال قتادة:"أما السنون؛ فكان ذلك في باديتهم وأهل مواشيهم، وأما نقص الثمرات؛ فكان في أمصارهم وقراهم"[٢].

عندما تَقِل الغلات من الزروع والثمار، فإن الأغذية لن تَكْفِ الناس، وستنتشر الحاجة والمجاعة، وهذا أمرٌ في غاية الوضوح والظهور، ولذا-فيما يظهر- أخبر الله تعالى عباده أنه سيختبر قوة إيمانهم بهذا الأمر، فقال سبحانه: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ البقرة: ١٥٥.

ولكن المصيبة أن من الناس من لا يحس بفظاعة هذا النوع من العذاب إلا بعد وقوعه فعلاً، ولذا كان من الأقوال في تفسير الآية السابقة الذكر أن ما حدث سيحدث مثله في آخر الزمان[٣]، وقد جاء في بعض الآثار:"يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا ثمرة"[٤]. روي هذا الأثر عن رجاء بن حيوة[٥].

---

(١) انظر:تفسير الطبري١٣/٤٩، وتفسيرابن أبي حاتم١/٦٤، والتحرير والتنوير٨/٢٤٩، وروح المعاني٥/٣١.

(٢) أخرجه عنه الطبري في تفسيره١٣/٤٦، وابن أبي حاتم في تفسيره٥/١٥٤٢.

(٣) انظر:زاد المسير١/١٦٢، والبحر المحيط٢/٥٤.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره١٣/٤٦.

(٥) **رجاء بن حيوة** (٠٠٠ - ١١٢ هـ) هو رجاء بن حيوة بن جرول الكندي، أبو المقدام: شيخ الشام في عصره. عالمٌ، فقيه، واعظٌ، فصيح. كان شريفا نبيلا كامل السؤدد. وهو الذي أشار على سليمان بن عبد الملك باستخلاف عمر بن عبد العزيز، ولازم عمر بن عبد العزيز في عهدي الإمارة والخلافة. وله معه

وروي مثله عن كعب الأحبار[1].

فالناس إذا أصيبوا بهذا العذاب فهم مضطرون إلى العمل بكل وسيلة ممكنة للنجاة منه، ولكن قد يصيبهم من العمى وقسوة القلوب ما يمنعهم من الالتجاء إلى ربهم ليكشف ما بهم، فهم قد ارتبطوا بالماديات، وغفلوا عن ما وراءها، فما مثل هؤلاء إلا كمثل أناس لا يعرفون من

أخبار، فلما مات عمر بن عبد العزيز انقطع عن صحبة الخلفاء، فقيل له: نخاف عليك منهم؛ فقال: يكفينهم الذي تركتهم له.[انظر: صفة الصفوة٤/٢١٤، وشذرات الذهب١/١٤٥، والأعلام٣/ ١٧].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره١٣/٤٦.

وكعب الأحبار(٧٢ قبل الهجرة- ٣٢ هـ) هو كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري، أبو إسحاق: تابعي. كَانَ عَلَى دِينِ يَهُودَ، ومن كبار علمائهم، فَأَسْلَمَ في زمن أبي بكر ﷺ، وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ في دولة عمر ﷺ، وكان حسن الإسلام، متين الديانة، من نبلاء العلماء، وكان خبيرا بكتب اليهود، له ذوق في معرفة صحيحها من باطلها في الجملة. وكان يغزو مع الصحابة ﷺ. أخذ من علم الكتاب والسنة عن الصحابة ﷺ. وأخذ عنه بعض الصحابة ﷺ وغيرهم كثيرا من أخبار الأمم الغابرة، وخرج إلى الشام، فسكن حمص، وتوفي فيها فِي خِلاَفَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ، عن مئة وأربع سنين. [انظر: طبقات ابن سعد٧/٤٤٥، وسير أعلام النبلاء٣/٤٨٩ والأعلام٥/٢٢٨].

فائدة: انتقد ابن باز المتأخرين الذين يصفون كعب الأحبار-رحمه الله- بأنه يهودي أظهر الإسلام من أجل الكيد للإسلام وإفساد أهله، فقال:" هذا خلاف المعروف عن علماء الإسلام ونقلة الأخبار... وقد أثنى عليه معاوية -ﷺ-وكثير من السلف الصالح ... فكيف يجوز لمن يخاف الله ويتقيه أن يرمي شخصا أظهر الإسلام والدعوة إليه وشارك الصحابة في أعمالهم بأنه يهودي بدون حجة ولا برهان يسوغ ذلك؟ وقد صح عن النبي-ﷺ-التحذير من رمي المسلم لأخيه بالصفات الذميمة، وأن من رمى أخاه بما هو بريء منه كان الرامي أولى بذلك الوصف الذي رمى به أخاه وكونه يروي بعض الأخبار الإسرائيلية الغريبة لا يوجب رميه باليهودية، والكيد للإسلام لأن النبي-ﷺ-قال : «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»...وكعب في ذلك يشبه عبد الله بن عمرو، وعبد الله بن سلام، ووهبا، وغيرهم ممن نقل أخبار بني إسرائيل، فكما أن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- لا يجوز أن يتهم باليهودية لكونه نقل كثيرا من أخبار بني إسرائيل من الزاملتين اللتين أصابهما يوم اليرموك من كتبهم، فهكذا كعب لا يجوز أن يرمى باليهودية والكيد للإسلام من أجل ذلك، ولا يجوز أن يجعل في صف عبد الله بن سبأ وأشباهه من المعروفين بالكفر والإلحاد والكيد للإسلام.[انظر:مجموع فتاوى ابن باز٣/٢١٥].

ضرب المؤدِّب إلا أن هناك عصا يرفعها بيده ثم ينزل بها بقوة نحو جلودهم، فهم عندما يدرسون هذه الظاهرة؛ يدرسون طول العصا وعرضه وتأثيره على أجسادهم، ولا يدرسون السبب الذي حدا بالمؤدب إلى ضربهم، فيتلافون ذلك مستقبلاً.

إنك تجد كثيراً من الناس اليوم عندما تحل مصيبة من المصائب لا يدرسون إلا أسبابها المادية ومظاهرها، ويغفل عن السبب الإيماني لذلك الحدث المعين.

والمتأمل في كتاب الله يجد أن فرعون وآله لم يكونوا عن هذا الوصف ببعيد، فحين ضربهم الله بنقص الثمرات لم يلجأوا إلى ربهم ، ولم يتضرعوا ، ولم يستوعبوا الدرس الذي لأجله ضربوا بهذا النوع من العذاب، كما بيّن الله ذلك بقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣١. فهم هنا ازدادوا كفراً وعناداً. قال الثعالبي:"كان القصد في إصابتهم بالقحط، والنقص في الثمرات، أن ينيبوا ويرجعوا، فإذا هم قد ضلوا، وجعلوها تشاؤما بموسى"(١) .

وقال أبو حيان:"ابتلوا بالجدب ونقص الثمرات رجاء التذكير، فلم يقع المرجو، وصاروا إذا أخصبوا وصحّوا؛ قالوا: نحن أحقاء بذلك. وإذا أصابهم ما يسوءهم تشاءموا بموسى"(٢).

وهذه عادة الجهال في التطير؛ فهم يتيمنون بكل شيء مالوا إليه واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم، ويتشاءمون بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا، وبشؤم هذا (٣).

---

(١) الجواهر الحسان٢/٤٦.

(٢) البحر المحيط٥/ ١٤٧.

(٣) انظر: الكشاف٤/٩.

فعلى المؤمن الناصح لنفسه أن يأخذ العظة من هذا الدرس العظيم المستفاد من هذه الآيات الكريمات.

رابعاً: غلاء الأسعار

تشتعل الأسعار ارتفاعاً بقَدَر الله فتخلِّف وراءها من الدروس والعظات ما تعقلها أفئدة أولي الألباب، وتغفل عنها أفئدة الغافلين الساهين اللاهين المرتبطين بالماديات، فالواحد من هؤلاء "كَالْبَعِيرِ عَقَلَهُ أَهْلُهُ ثُمَّ أَرْسَلُوهُ، فَلَمْ يَدْرِ لِمَ عَقَلُوهُ؟ وَلَمْ يَدْرِ لِمَ أَرْسَلُوهُ؟"[١].

فغلاء الأسعار عذابٌ يعذِّب الله به من شاء من خلقه، فيشق على عامة الناس توفير حاجاتهم وأغذيتهم، فتصعب المعيشة، وتسوء الحال، ويكثر الناس القيل والقال في أسباب ذلك، ويكثر الاختلاف.

لقد حذر أحد الأنبياء قومه من الاستمرار على مخالفة شرع الله، وبيّن لهم أنهم إن فعلوا ذلك فإنهم يعرضون أنفسهم لرفع أسعارهم؛ عقوبة من الله لهم لمخالفتهم شرعه. بيّن الله ذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ هود: ٨٤، ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾ أي: رخص السعر، ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾، أي: غلاء سعر" كما قال ذلك ابن عباس[٢] والحسن[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه٣/ ١٤٩حديث٣٠٩١، كتاب الجنائز، باب الأمراض المكفرة للذنوب، من حديث عامر الرام، وقد ضعفه الألباني.[انظر حديث (١٧٦٧) في ضعيف الجامع].

(٢) تفسير الطبري١٥/٤٤٤.

(٣) المرجع السابق١٥/٤٤٤.

والحسن (٢١-١١٠) هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري؛ من سادات التابعين وكبرائهم. كان فصيحاً، بليغاً، حكيماً. جمع علماً، وزهداً، وورعاً، وعبادة، وأوبة. مولى زيد بن ثابت الأنصاري ﷺ. أبوه من سبي ميسان، وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي -ﷺ-، وربما غابت في حاجة فيبكي فتعطيه أم

هذا ما حذّر منه شعيب قومه، وسنة الله لا تتغير ولا تتبدل، والسعيد من وُعظ بغيره لا من وُعظ به غيره، والقرآن يعظ الناس بما يحدث لهم في أنفسهم، وبما حدث لغيرهم، فعلى المسلم أن يكون يَقِظاً لشؤم الذنوب، وما يأتي بسببها من البلاء والمشاق.

وقد ذكر المؤرخون المسلمون من حوادث غلاء الأسعار في تاريخ المسلمين ما لا يمكن حصره، ومن ذلك ما يلي:

ذكر ابن كثير في حوادث سنة ٢٨٠ للهجرة حوادث غلاء؛ ومن ذلك قوله:" فيها غلت الأسعار جداً، وجهد الناس حتى أكل بعضهم بعضاً، فكان الرجل يأكل ابنه وابنته. فإنا لله وإنا إليه راجعون"[١].

وقال أيضاً:"دخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، فيها غلت الأسعار ببغداد؛ حتى بلغ الكر من الطعام[٢] إلى أربع آلاف وثمانمائة"[٣].

وذكر ابن حجر[٤] في حوادث سنة ٨٠٦ للهجرة حوادث غلاء الأدوية والأغذية؛

سلمة-رضي الله عنها-ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه، فدر عليه ثديها فشربه، فيرون أن تلك حكمته وفصاحته من بركة ذلك. قال رجل قبل موت الحسن لابن سيرين: رأيت كأن طائراً أخذ أحسن حصاة بالمسجد، فقال: إن صدقت رؤياك مات الحسن، فلم يكن إلا قليلاً حتى مات. أغمي عليه عند موته، ثم أفاق؛ فقال: لقد نبهتموني من جنات وعيون ومقام كريم. وكانت جنازته مشهودة؛ تبعها الناس كلهم تبعوا الجنازة فلم تقم صلاة العصر في الجامع بسبب ذلك. [انظر: صفة الصفوة٢/ ٦٩].

(١) البداية والنهاية١١/٨١.

(٢) الكرّ: مكيال قدره سِتُّونَ قَفِيزًا ، والقَفِيزُ : ثَمانِيَةُ مَكاكِيكَ، والمَكُّوكُ: صاعٌ ونِصْفٌ[انظر: تهذيب اللغة؛ مادة(كرّ)، وتاج العروس؛ مادة(مكك)].

(٣) المرجع السابق١١/٣٤٣.

(٤) ابن حجر العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ):أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي؛ الكناني شهاب الدين، أبو الفضل. عسقلاني الأصل، مصري المولد، والدار، والوفاة. شافعي المذهب. أمير المؤمنين في الحديث، مؤرخ، أديب، شاعر. نشأ يتيماً. أقبل على الحديث بعد أن كان مولعاً بالأدب والشعر. رحل إلى بلادٍ كثيرة لطلب العلم. وكان ملازماً للعبادة، كثير الصوم، فصيح اللسان، شجي الصوت، جيد الذكاء،

ففي غلاء الأدوية يقول:"في شوال تزايد هبوب الريح، وكثرت الأمراض، ووقع الطاعون والأمراض الحادة، وغلت الأدوية؛ حتى بيع القدح من لب القرع بمائة درهم"[١].

وقال في غلاء الأغذية:"وفي أول ربيع الأول وقع الغلاء في القمح، واشتد الأمر"[٢]

وقال:"في رجب غلت الأسعار جدا، حتى وصل القمح إلى أربعمائة، وهو بالذهب خمسة مثاقيل[٣]، والفول والشعير إلى مائتين وخمسين، ونحو ذلك"[٤].

والمقصود ذكر نماذج من حوادث غلاء الأسعار لا حصرها، فقد ذكر المؤرخون حوادث لا تكاد تحصر.

ونبي الله شعيب-عليه السلام- قد بيّن لقومه في الآية السابقة أن الذنوب ومخالفة شريعة الله هي السبب الحقيقي لغلاء السعر، أما الأسباب المحسوسة فإنها تحدث نتيجة لذلك السبب، ولو قام الناس بما أوجب الله عليهم من الإيمان والمتابعة لبدّل الله أحوالهم، كما بيّن الله ذلك بقوله

عظيم الحذق، راوية للشعر، عارفا بأيام المتقدمين وأخبار المتأخرين، صبيح الوجه. علت له شهرة فقصده الناس للأخذ عنه. ولي قضاء مصر مرات ثم اعتزل. تصانيفه كثيرة جليلة مائة وخمسين مصنفا، انتشرت في حياته، وتهادتها الملوك، وكتبها الأكابر، منها: (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) لم يؤلف قبله ولا بعده مثله، و(الإحكام لبيان ما في القرآن من الأحكام) و(الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) و(لسان الميزان) و(تقريب التهذيب) و(بلوغ المرام من أدلة الأحكام) وأول تصانيفه:(تغليق التعليق) وهو كتاب نفيس جداً. [انظر: شذرات الذهب٧/٢٧٠، نظم العقيان ص٤٥، والأعلام١/١٧٨، ومعجم المؤلفين٢/٢٠].

(١) إنباء الغمر٥/١٣٧.

(٢) المرجع السابق٥/١٣٥.

(٣) المثقال= أربع جرامات وربع. هذا ما انتهى إليه الباحثون والمؤرخون بعد تجارب عديدة.[انظر: مجلة البحوث٣٩/٢٤٦]، ومن المعلوم أن سعر جرام الذهب يختلف بحسب ارتفاع أسعار الذهب وانخفاضها. [انظر: مجالس شهر رمضان لابن عثيمين ص٧٧].

(٤) إنباء الغمر٥/١٣٧.

سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الأعراف: ٩٦.

ومن لم يوفقه الله وقف مع الماديات المحسوسة، ولم يلحظ ما وراء ذلك، فوقع فيه كل بلاء، ولم يعرف طريق النجاة منه.

النجاة من عذاب الله الدنيوي المستأصل. (وفيه ما يلي):

- تنبيهات.
- النجاة من الغرق العام. (وفيه):
  - نجاة نوح-عليه السلام-، ومن معه.
  - نجاة موسى-عليه السلام-ومن معه.
- النجاة من الهلاك بالريح المدمرة.
- النجاة من الهلاك بالصيحة.
- النجاة من الهلاك بأنواع متعددة من العذاب. (وفيه):
  - هلاك مدين، ونجاة شعيب-عليه السلام-ومن معه.
  - هلاك قوم لوط، ونجاة لوط-عليه السلام-وأهل بيته.

تنبيهات

• العذاب المستأصل يكون بعد النذر التي أرسلها الله بالعذاب غير المستأصل، فإذا لم تغن النذر، ولم تستيقظ القلوب؛ فسنة الله الكونية أن يهلك أولئك القوم بعذاب يستأصلهم من شأفتهم، كقول الله تعالى عن آل فرعون: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الزخرف: ٥٥، قال الشنقيطي: "أَيْ : فَلَمَّا أغضبونا بتماديهم في الكفر مع توالي الآيات عليهم انتقمنا منهم"(١).

• المقصود بالعذاب غير المستأصل: وعظ نفس الأقوام الذين يقع عليهم العذاب، بينما المقصود من ذكر العذاب المستأصل وعظ أقوامٍ آخرين غير الذين أهلكوا، فهو درس ينبغي أن يستوعبه الآخرون، فلا يقعوا بما وقع به أولئك، فإنهم إن وقعوا فيه فإن الهلاك ينتظرهم، لأن سنة الله لا تتغير. وهذا ما بينه شعيب -عليه السلام- لقومه؛ كما ذكر الله ذلك عنه بقوله سبحانه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ هود: ٨٩.

• تختلف النجاة في العذاب المستأصل عن النجاة في العذاب غير المستأصل، فالنجاة من العذاب غير المستأصل تكون لأولئك الذين وقع عليهم العذاب، بينما تكون النجاة في العذاب المستأصل لأناس لم تحصل منهم المخالفة التي أوقع الله بسببها ذلك العذاب المهلك على أولئك القوم.

• يسبق العذاب المستأصل مرحلة استدراج بنِعَم ورخاء؛ ليكون العذاب النازل بهم على حين غِرة منهم، فينزل بهم العذاب بغتة، وقد ذكّر الله الناس بهذه السنة من سننه في آياتٍ كثيرة ، ومنها قوله تعالى عن الأقوام السابقين: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا

(١) أضواء البيان ٤/٧٩.

بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾الأعراف: ٩٤ – ٩٥. وقوله سبحانه ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ الأنعام: ٤٤ قال الشوكاني:"{بغتة} أي فجأة، وهم غير مترقبين لذلك"[١]، وقال قتادة:"بَغَتَ الْقَوْمَ أَمْرُ اللهِ، ومَا أَخَذَ اللهُ قَوْمًا قَطُّ إلا عِنْدَ سَكْرَتِهِمْ وَغِرَّتِهِمْ وَنِعْمَتِهِمْ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِاللهِ، فَإِنَّهُ لا يَغْتَرُّ بِاللهِ إلا القوم الفاسقون"[٢]. وقد تنبه إلى هذه السنة الربانية – وهي أن الأخذ بالعذاب المهلك لا يكون إلا على حين غرة- الصالحون من علماء الأمة؛ فحذروا الناس من الاغترار بالنعم مع ظهور الفواحش والمنكرات، قال الشيخ صالح بن أحمد الخريصي[٣]-في نصيحة له لأهل هذه البلاد: "لا يغرنكم ما بسط عليكم من النعم التي لا يحصيها عدد، ولا ينهيها أمد، من صحة الأبدان، وأمن في الأوطان، وبسط في الرزق، وخفض في العيش؛ فإنها إذا لم تكن على استقامة، سريعة الذهاب، وشيكة التغير والانقلاب، وما أُخذ قوم إلا عند سلوتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله"[٤].

---

(١) فتح القدير٢/١٦٨.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٥/ ١٥٢٨.

(٣) الخريصي(١٣٢٧-١٤١٥هـ) صالح بن أحمد الخريصي: عالم، ورع، زاهد. تعلم القرآن الكريم والنحو على يد الشيخ صالح الكريديس، وباقي العلوم الشرعية على عدد من المشايخ، منهم: محمد بن عبد الله الحسيني، ومحمد السليم، وعبد الله بن محمد بن حميد. فتح حلقة ذكر وتدريس في مسجده عام ١٣٥٤هـ، وعيّن في القضاء في القصيم، ثم في الأسياح، ثم في الدلم، ثم تولى رئاسة المحكمة الكبرى ببريدة، ثم عين رئيسا لمحاكم القصيم. وله تلامذة كثيرون. وكان لا يدع الحج والعمرة، ولا يدع صيام ثلاثة أيام من كل شهر، ولا يدع قيام الليل. وكان شافعا لأصحاب الحاجات والغارمين واليتامى والمساكين والأرامل، وجلّ وقته لقضاء مصالح المسلمين. له رسائل، ونصائح؛ طبع بعضها، وانتشر.[الدرر السنية في الكتب النجدية١٦/٤٨٢].

(٤) الدرر السنية في الكتب النجدية١٥/٥٠.

• إهلاك القوم المهلكين، وقطع دابرهم؛ نعمة يستحق ربنا الحمد عليها، كما بيّن ذلك الله تعالى في قوله: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الأنعام: ٤٥، ففي إهلاكهم مصلحة للأرض؛ إذ إن المصائب والنكبات لا تحدث إلا بسبب الذنوب والمعاصي، وهؤلاء الكفرة قد أضروا بذنوبهم أعظم إضرار، فكان في إهلاكهم خير ومصلحة، قال ابن تيمية رحمه الله:"إن عبادة غير الله، والدعوة إلى غيره، والشرك به؛ هو أعظم الفساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة؛ إنما هو الشرك بالله، ومخالفة أمره"(١)، وقال البيضاوي(٢) في تفسير الآية السالفة الذكر:﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ "الحمد لله رب العالمين على إهلاكهم، فإن هلاك الكفار والعصاة- من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم- نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها"(٣)، وقال الآلوسي:"هذا منه تعالى تعليم للعباد أن يحمدوه على مثل ذلك"(٤) .

• وأخيراً؛ فإن ما ورد في القرآن من العذاب المستأصل أنواع كثيرة، ومن المستحسن عرض كل نوع منها في مسألة خاصة به، فإلى المقصود:

---

(١) مجموع الفتاوى١٥/٢٤.

(٢) البيضاوي (٦٣٦ - ٦٨٥ هـ)عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي، أبو سعيد، أو أبو الخير: علامة، مفسر، محدث، فقيه. وكان صالحا، متعبداً، زاهداً. ولد في المدينة البيضاء (بفارس-قرب شيراز) ولي قضاء شيراز مدة. وصرف عن القضاء، فرحل إلى تبريز فتوفي فيها، وعمره تسعاً وأربعين سنة. له مؤلفات منها:(أنوار التنزيل وأسرار التأويل) يعرف بتفسير البيضاوي و(طوالع الأنوار) في التوحيد و(منهاج الوصول إلى علم الأصول) و(لب اللباب في علم الإعراب) و(الغاية القصوى في دراية الفتوى) في فقه الشافعية.[انظر: تاريخ الجندي٢/٤٣٦، طبقات الشافعية للسبكي٨/١٥٥، والأعلام٤/١١٠].

(٣) تفسير البيضاوي٢/ ٤٠٩.وانظر:السراج المنير١/٣٣٤، وتفسير أبي السعود٣/١٣٤.

(٤) روح المعاني٤/١٤٤.

النجاة من الغرق العام

ورد في القرآن ذكر الإهلاك بالغرق لأمتين؛ هما: قوم نوح-عليه السلام-، وآل فرعون، وأنجى الله في الحادثة الأولى نوح-عليه السلام- والمؤمنين معه، وفي الحادثةالثانية: موسى-عليه السلام-وقومه.

الغرق: شيء مروِّع، ويكفي لتتصور روعته أن تتخيل الفئام من الناس وهي تصرخ وتستغيث وتستجدي[1] طالبة النجاة من الموت بهذه الطريقة، ولكن لا جدوى، فالمياه غامرة، ووسائل النجاة لم تغن من الغرق شيئاً، وتخيل منظر أولئك المستغيثين بعد لحظات وإذا تلك الأجسام القوية قد صارت جثثاً فوق الماء هامده.

إن تصوير فضاعة الهلاك؛ مهم لتتحرك القلوب إلى الاهتمام بما ينجي منه. وإذا كان تصوير ذلك مهم، فلا يَقِل عنه أهمية تصوير روعة النجاة لأولئك الذين نجوا.

وقد عرض القرآن الكريم حالتين حدث فيهما غرقٌ عامٌ، وفي كلا الحالتين أنجى الله أولياءه، فإلى بيان الحالتين:

أولاً- غرق قوم نوح ونجاته-عليه السلام- ومن معه :

لم يذهب الله بهم إلى أماكن المياه، ولكن جاء بالماء إليهم في أماكنهم وبلادهم، بلادهم ذات جبال شاهقة[2]- ولكن ماذا تغني الجبال، حين يغضب الملك الجبار، لم يعلم ذلك الجاهلون، فظن المغرور ابن نوح -عليه السلام- أن أحد تلك الجبال سينقذه من الغرق، ناداه أبوه ذو القلب المشفق المقدِّر لشدة بطش الله، بما ذكره الله عنه في قوله: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ هود: ٤٢، ولكن شقاوة الابن

---

(١) الاستجداء؛ مفاعلة من جَدَا واجْتَدى: إذا سأَل وطلب.[انظر: لسان العرب؛ مادة(جدا)].

(٢) يدل على ذلك ماذكره الله تعالى من قول ابن نوح:{سأوي إلى جبل يعصمني من الماء}هود:٤٣.

وجهلة، أعمت قلبه عن تصور بطش الله بصورته، لقد وقف مع الماديات﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ ﴾ هود:٤٣، والأبُ المتقزز من هذا الجهل المطبق يعظه وينصحه: ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ ﴾ هود: ٤٣، وكانت النتيجة صِدْقَ عقيدة الأب، وكذب ظن الابن الكافر؛ كما ذكر الله ذلك بقوله:﴿ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ هود: ٤٣.

لقد جاء الماء من كل مكان! من الأعلى ومن الأسفل! **السماء** في المعتاد يأتي منها الماء عند المطر: قطرات، ومع هذا تسيل الشعاب، وتجري الأودية، فكيف إذا لم يكن الماء النازل منها مجرد قطرات، بل ينهمر الماء انهماراً؟!. **والأرض** في المعتاد تتشرب المطر النازل من السماء، ولكنها هذه المرة- على غير المعتاد- لقد صارت مصدراً للماء هي أيضاً! إن المياه تنبع منها في نفس الوقت الذي ينزل فيه الماء من السماء، لم يجيء هذا الكلام بأساطير ، ولكن الله تعالى ذكره في كتابه، فقال:﴿ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ القمر: ١١ ــ ١٢، لقد بلغت المياه من الكثرة ما يصعب مجرد تصوره، حتى أن أمواج تلك المياه صارت كالجبال، كما بيّن الله ذلك في وصفه سفينة نوح -عليه السلام- بقوله:﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ ﴾ هود:٤٢.

لا نتيجة لهذا الأمر المهول إلا الموت غرقاً! كما قال الله تعالى:﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ الفرقان: ٣٧

لقد أغضبوا العزيز الجبار، وكذبوا رسوله-عليه السلام- لقد أسرفوا على أنفسهم بتعديهم حدود الله، فهم يستحقون الإبادة، كما قال الله تعالى:﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ

يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾ نوح: ٢٥، وقال سبحانه: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ الفرقان: ٣٧.

لكن، أين نوحٍ؟ أين المؤمنون معه؟ كيف سينجون من مياه بهذا الوصف؟ أم ليس عنهم خبر؟

نوحٌ نجا، والمؤمنون معه نجوا! كيف؟

قبل أن يفتح الله أبواب السماء بذلك الماء المنهمر؛ أمر نوحاً أن يصنع سفينة، وعلَّمه كيفية صُنعها، فصنع نوح تلك السفينة بأمر الله، كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ هود: ٣٧، إنها صنعة سهلة بألواح ومسامير، كما قال الله تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ القمر: ١٣ و"الدسر": "المسامير، مسامير الحديد"[(١)].

لقد ركب نوحٌ ومن معه من المؤمنين تلك السفينة؛ وكانت سبب نجاتهم، قال الله سبحانه: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ الشعراء: ١١٩ - ١٢٠ ، وقال الله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ الأعراف: ٦٤، والفُلْك هي السفينة[(٢)]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ

---

(١) تفسير الطبري١٥/٣١٥

(٢) المرجع السابق١٢/٥٠٢

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ يونس: ٧٣، وقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ المؤمنون: ٢٨.

أنجاهم الله كلهم، وهم قليلون، وأنجى معهم من المخلوقات من كلٍ زوجين اثنين، كما قال الله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ هود: ٤٠، قيل: ثلاثة، وقيل: سبعة، وقيل: ثمانين سوى نسائهم- ذكر هذه الأقوال ابن جرير، ثم قال:"والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله:(وما آمن معه إلا قليل)، يصفهم بأنهم كانوا قليلا؛ ولم يحد عددهم بمقدار، ولا خبر عن رسول الله-ﷺ-صحيح، فلا ينبغي أن يتجاوز في ذلك حد الله، إذ لم يكن لمبلغ عدد ذلك حد من كتاب الله ، أو أثر عن رسول الله-ﷺ-"[1] .

لقد أنجى الله المؤمنين بفضله، وأهلك الكافرين بعَدْلِه- لم يظلمهم، بل كانوا هم الظالمين- والحمد لله رب العالمين.

(١) المرجع السابق١٥/٣٢٧

ثانياً- غرق فرعون وآله، ونجاة موسى-عليه السلام- ومن معه:

مقارنة: ستجد في هذه الحادثة أوجه مقارنة مع حادثة قوم نوحٍ، فكل واحدة منهما أعجب من الأخرى من وجه: فالعجب في غرق قوم نوح مجيء الغرق لهم في أماكنهم، والعجب في نجاة نوح-عليه السلام- ومن معه، نجاتهم بذات ألواح ودسر.

والعجب في غرق آل فرعون: خروجهم إلى حيث مكان غرقهم، والعجب في نجاة موسى-عليه السلام- ومن معه، تشقق البحر طُرقاً بضربة العصا.

الحادثة: تمر السنون والقرون بعد غرق قوم نوح-عليه السلام- ونجاته ومن معه، وتتوالى الدهور والأمم، ويرسل الله الرسل إلى أقوامهم فيكذبونهم، فيهلكهم الله وينجي رسله -عليهم السلام- والمؤمنين.

وفي زمان ومكان ليس بالبعيد، يظهر رجلٌ متغطرس متكبر، يدعي الألوهية، فيقول كما ذكر الله عنه: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ القصص: ٣٨، فيجب على الناس-بظنه- أن تتوجه قلوبهم إليه، فيكون هو مقصدهم، ورضاه هو محل عنايتهم. ولم يكتف بهذا حتى ادعى الربوبية، كما ذكر الله ذلك عنه بقوله: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ النازعات: ٢٣ ـ ٢٤، فكل التدبير والتشريعات يجب أن تصدر عنه هو فقط، لأنه بزعمه هو الرب المدبر.

ظهر هذا في أناس فسقة، فهم لفسقهم يَسْتَخِف بهم فيطيعونه، كما ذكر الله ذلك بقوله: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ الزخرف: ٥٤.

ولكن كان من الموجودين عندهم؛ قومٌ من ذرية أنبياء، فهم يعلمون أن الإله المعبود هو الله، ويعلمون أن الرب المدبر هو الله، ويعلمون أن الأمر كله لله، فما كان من الطاغية إلا أن

قرر إستضعافهم؛ فيفعل بهم الأفاعيل، فمرة يسخرهم للخدمة، ومرة يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، كما بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ القصص: ٤. وكان هؤلاء يتطلعون للنجاة من هذا الوضع المزري. فأرسل الله إلى فرعون رسوله موسى- عليه السلام- ليدعوه إلى أن يؤمن بالله، ويترك ما هو عليه من الكفر والفجور، ويترك بني إسرائيل فيرسلهم معه، فلم يكن من فرعون إلا أن كذب وعصى، واستكبر وطغى، فأرسل الله عليه وقومه ما سبق من النذر والعظات، وفي كل مرة يقولون ما ذكره الله عنهم بقوله: ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الأعراف: ١٣٤، وفي كل مرة يكون منهم الإخلاف والنكث، كما سبق بيان ذلك بما ذكره الله في قوله: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ الأعراف: ١٣٥.

وكان موسى-عليه السلام- يطلب من فرعون في كل مرة أن يترك بني إسرائيل، ويرسلهم معه، وأن لا يعذبهم، كما ذكر الله ذلك عنه بقوله: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الأعراف: ١٠٥ ، وكلّف الله موسى وهارون-عليهما السلام- أن يأتيا فرعون ويطلبا منه ذلك، كما بيّن الله ذلك لهما بقوله: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ طه: ٤٧.

وكان فرعون مع عظمة دلائل صدق موسى-عليه السلام- يقابل هذا الطلب بالرفض التام، وبعد طول مدة؛ جاء الأمر الرباني لموسى وهارون -عليهما السلام- أمرٌ ذكره الله بقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ يونس: ٨٧ فهم هنا أُمروا أن يوجهوا بيوتهم نحو القبلة، ويصلوا بها؛ بدلاً من الكنائس[١]، وذلك حين اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه[٢].

وأَمْرُهُم باتخاذ بيوتاً مبنية على هذه الطريقة مشعر بأن هناك أمر ما سيحدث، وأن هناك في القدر أمرٌ فيه حسن عاقبتهم، وأنهم منصورون على عدوهم وناجون منه[٣].

وفعلاً حدث هذا الأمر المرتقب، فقد أوحى الله إلى موسى-عليه السلام- "أن سر ببني إسرائيل ليلا من أرض مصر"[٤]؛ كما ذكر الله ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ طه: ٧٧ ، وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ الشعراء: ٥٢ ، مُرْهُم كلهم بذلك، والاتصال بهم سهل فهم قد اتخذوا بيوتاً كلها متجهة نحو القبلة.

وفعلاً فعل موسى-عليه السلام- وما كان له أن يتأخر عن أمر الله له، ولما أشرق الصبح لم يجد فرعون وآله من بني إسرائيل أحداً، لقد خرجوا كلهم. فامتلأ فرعون غيظاً، وقد غاظه مجرد طلب موسى-عليه السلام- منه أن يرسلهم معه، فكيف إذا خرج بهم فعلاً من غير موافقته! إن الأمر أكبر من أن يتحملّه طغيان فرعون!

وما الذي يذهب غيظ فرعون؟ ليس إلا شيءٌ واحدٌ، وهو أن يجمع كل جنوده ويسير هو بنفسه بهم نحو الجهة التي سار إليها موسى-عليه السلام- وقومه المؤمنين به، وإلى أين يا ترى سيسير موسى-عليه السلام- وقومه؟ إنهم-بظن فرعون- تحت السيطرة، فالبحر سيردهم! وكل ما دون البحر هو تحت سلطة فرعون. لكن يجب أن لا يبقى من جنود فرعون أحد، ولذا أرسل حاشرين

---

(١) انظر: تفسير الطبري١٥/١٧٤

(٢) انظر: تفسير ابن كثير٤/٢٨٩

(٣) انظر: التحرير والتنوير١١/١٦٣.

(٤) تفسير الطبري١٩/٣٥٠

يجمعون له جنده في كل مدائن مصر، وقد ذكر الله كل ذلك بقوله سبحانه: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) ﴾ الشعراء: ٥٣ ـ ٥٦. ولم يدر المتجبر المسكين أن الله أراد له أن يسير هو بنفسه إلى حيث هلاكه هو وجنوده، فقد أراد الله أن يغرقهم في البحر، وأراد سبحانه أن يسيروا هم بأنفسهم إلى حيث حتفهم.

وصلت تلك الجموع الزاحفة بقيادة فرعون إلى المكان الذي وصل إليه موسى-عليه السلام- وقومه، وصار الفريقان يشاهدان بعضهما، ووصل موسى إلى حافة البحر، فظهر من موسى- عليه السلام- إيمان لا تزنه الجبال، وقد ذكر الله كل ذلك بقوله: ﴿ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ الشعراء: ٦٠ ـ ٦٢ "قال موسى لقومه: ليس الأمر كما ذكرتم، كلا لن تُدْرَكُوا إن معي ربي سيهدين لطريق أنجو فيه من فرعون وقومه"[1]، وبعد ظهور هذه الثقة التامة من موسى-عليه السلام- بربه أوحى الله إليه أن اضرب البحر بعصاك، ففلق الله له ولقومه البحر بتلك الضربة، كما قال الله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ الشعراء: ٦٣، انفلق البحر ليكون طريقاً يسير فيه موسى-عليه السلام- ومن معه كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) ﴾ طه: ٧٧ ، أفاد السدي[2] أن البحر صار اثني عشر طريقا، في كل طريق

---

(١) المرجع السابق ٣٥٦/١٩

(٢) السدي الكبير (٠٠٠ - ١٢٧ هـ): إسماعيل بن عبد الرحمن السدي (نسبة إلى سُدّة في المسجد كان يبيع فيها الخُمُر، أو لأنه سكن في مكان يقال له: السدة) أبو محمد. صاحب التفسير والمغازي

سبط[١]؛ ولخص الثعلبي[٢] الروايات الواردة في ذلك فقال:"خاضت بنو إسرائيل البحر كل سبط في طريق وعن جانبه الماء كالجبل الضخم ولا يرى بعضهم بعضا ، فخافوا؛ وقال كل سبط: قد غرق كل إخواننا. فأوحى الله إلى حال الماء أن تشبّكي ، فصار الماء شبكات يرى بعضهم بعضا، ويسمع بعضهم كلام بعض حتى عبروا البحر سالمين"[٣].

فيا لعِظَم النجاة! ويظهر ذلك بتأمل الشِدَّة التي وقعوا فيها، ثم الفرج الذي قدَّره الله لهم، فهم وقعوا في مضيق لا أشدّ منه، ثم حدث لهم فرج لا أعظم منه، فتأمل: فرعون وجنوده من ورائهم، وقدامهم البحر؛ فإن توقفوا أدركهم العدو وأهلكهم بأشد العذاب، وإن ساروا غرقوا؛ فلا خوف أعظم من ذلك. ثم إن اللّه نجاهم بفلق البحر، فلا فرج أشد من ذلك"[٤].

والسير. الحجازي، ثم الكوفي. التابعي. أحد موالي قريش. اختلف المحدثون فيه، "وثقه احمد وغيره، وضعفه ابن معين"، قال ابن حجر:" صدوق يهم، ورمي بالتشيع". قال الذهبي:"أما السدي الصغير، فهو محمد بن مروان الكوفي؛ أحد المتروكين". [انظر:الجرح والتعديل لابن أبي حاتم٢/١٨٥، وسير أعلام النبلاء٥/٢٦٥، وتهذيب التهذيب١/٢٧٥، وتقريب التهذيب ص١٠٨، والأعلام١/٣١٧، ومعجم المؤلفين٢/٢٧٦].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره٢/ ٥٠، وابن أبي حاتم في تفسيره٨/ ٢٧٧٣.

والسبط: جمها: أسباط؛ والأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من العرب[انظر: اللباب للسراج ص٢١٢].

(٢) الثعلبي (٠٠٠ - ٤٢٧ هـ):أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق. الإمام، الحافظ، العلامة، أحد أوعية العلم، شيخ التفسير. مقرئ، واعظ، أديب، وله اشتغال بالتاريخ، وكان بصيرا بالعربية. من أهل نيسابور. قال السمعاني: يقال له: الثعلبي والثعالبي، وهو لقب له لا نسب. قال ابن تيمية في الفتاوى١٣/ ٣٥٤:"كَانَ فِيهِ خَيْرٌ وَدِينٌ، ولكنه كَانَ حَاطِبَ لَيْلٍ؛ يَنْقُلُ مَا وُجِدَ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ مِنْ صَحِيحٍ وَضَعِيفٍ وَمَوْضُوعٍ". من كتبه: (الكشف والبيان في تفسير القرآن)ويعرف بتفسير الثعلبي،(عرائس المجالس) في قصص الأنبياء[انظر:سير أعلام النبلاء١٧/٤٣٥، والأعلام١/٢١٢].

(٣) الكشف والبيان١/١٩٣. وانظر: الروايات في تفسير الطبري١٩/٣٥٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/٢٧٧٣.

(٤) مفاتيح الغيب٣/٥٠٨.

جاز أصحاب موسى كلهم البحر، كما قال ابن عباس:" فلما جاز أصحاب موسى كلهم؛ دخل أصحاب فرعون كلهم؛ فالتقى البحر عليهم كما أمر"(١).

حينما نجا موسى-عليه السلام- وكل من معه من المؤمنين، ظن-عليه السلام- أن الأمر يقتصر على ذلك؛ فأراد أن يضرب البحر قبل أن يدخله فرعون؛ ليكون حاجزاً بينهم وبينه، فلا يستطيع فرعون مجاوزته إليهم، فأوحى الله إليه بما أخبر به في قوله سبحانه: ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الدخان: ٢٤، عن قتادة قال:"لما خرج آخر بني إسرائيل أراد نبي الله -صلى الله عليه وسلم- أن يضرب البحر بعصاه حتى يعود كما كان، مخافة آل فرعون أن يدركوهم، فقيل له:(وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ)"(٢).

وهنا تأتي روعة أخرى في نجاة موسى-عليه السلام- ومن معه، إنها نجاة تامة بإهلاك عدوهم، فالأمر كما قال الرازي:"لو أنه تعالى خلَّص موسى وقومه من تلك الورطة، وما أهلك فرعون وقومه؛ لكان الخوف باقياً من حيث إنه ربما اجتمعوا واحتالوا بحيلة، وقصدوا إيذاء موسى -عليه السلام- وقومه، ولكن الله تعالى لما أغرقهم فقد حسم مادة الخوف بالكلية"(٣).

والموت بالغرق أمرٌ مفزع، لقد بحث فرعون عن النجاة حينها بالطريقة التي كان يَرْفُضُها طُول الوقت، لقد أراد النجاة من الغرق بالإيمان بالله الذي آمن به بنوا إسرائيل، حيث أعلنها صريحة هذه المرة، كما ذكر الله ذلك بقوله سبحانه: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢٧٧٥/٨.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره٢٩/٢٢.

(٣) مفاتيح الغيب٥٠٨/٣.

بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ يونس: ٩٠، لقد كان فرعون وآله في مرات العذاب السابقة لا يؤمنون، ولكنهم كانوا يقْسِمون أنهم سيؤمنون إذا زال عنهم العذاب، كما ذكر الله ذلك بقوله عنهم: ﴿ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ الأعراف: ١٣٤، ولكن في هذه المرة ليس وعداً بالإيمان! إنه إيمانٌ فعلاً ﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ يونس: ٩٠، تأكيدات متتالية بالإيمان، وترك للاستكبار، ولكن قد فات الأوان، كما قال الله له: ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ يونس: ٩١، فسنة الله لا تتغير! وسنته أن الإيمان وقت معاينة الموت لا ينفع، كما قال سبحانه عن كل أمة أهلكت: ﴿ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ غافر: ٨٥.

ولكن حصل لفرعون نجاة معينة، وهي نجاة بدنه، ولكن هذه النجاة ليست من أجله! ولكنها من أجل غيره، وهي أن يكون لمن خلفه آية، وعظة، وعبرة؛ لعلهم يستفيدون منها ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ يونس: ٩٢، ويستفاد من كلام الشوكاني أن نجاة بدن فرعون آية لمن خلفه من أحد ثلاثة أمور:

آية لمن خلفك من الناس، أي: علامة يعرفون بها هلاكك، وأنك لست كما تدعي، ويندفع عنهم الشك في كونك قد صرت ميتا بالغرق.

أو أن طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك آية من آيات الله، يعتبر بها الناس الموجودين في ذلك الوقت.

أو آية يعتبر بها من سيأتي من الأمم إذا سمعوا ذلك؛ حتى يحذروا من التكبر والتجبر والتمرد على الله سبحانه، فإن هذا الذي بلغ ما بلغ إليه من دعوى الإلهية، واستمر على ذلك دهرا طويلا؛ كانت له هذه العاقبة القبيحة[1].

ومن الاستطراد ذكر بقية ما حصل لفرعون وآله بعد الغرق، فليس المراد إثبات الهلاك، وإنما المراد هنا دراسة أنواع النجاة.

(١) انظر: فتح القدير ٢/ ٦٨٠.

النجاة من الهلاك بالريح المدمرة

قال الله تعالى: ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ الأحقاف:٢٤-٢٥.

وقال تعالى: ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ البقرة: ٢٦٦.

عندما تهب الريح المدمرة، وتعصف الأعاصير الشديدة، ويشاهد الناس ذلك يعلمون أنهم لا حيلة لهم بردها، وأن ما تسببه من دمار وخراب كائن لا محالة، ونجد في زمننا المعاصر أن الدول التي تسمى(متقدمة) عندما تُقبل عليهم هذه الأعاصير والعواصف ويعلمون ذلك بأجهزتهم ووسائلهم، فإنها لا تملك إلا أن تطلب من السكان الانتقال إلى مناطق أخرى، فالأمر فوق طاقتهم، وشدة قوتهم لا تدفع عنهم شيئاً كما لم تدفع عن عادٍ قبلهم.

ولشدة ما تسببه الريح من تدمير، يسبها الناس الذين لم يتأدبوا بأدب الشرع ويذمونها، أما الذين اتبعوا هدى الله الذي بعث به محمداً -ﷺ-، فقد أعلمهم نبيهم أنها مُسَخَّرة مدبَّرة، لا ينبغي أن تذم، فقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « لاَ تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ »[1].

هلاك عاد بريح مدمرة، ونجاة هود ومن معه

في الجزيرة العربية، وفي جهتها الجنوبية -جهة اليمن(الأحقاف[2])- عاش فيها قوم من العرب يقال لهم: عاد.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٥٢١حديث٢٢٥٢، من حديث أبي بن كعب، كتاب الفتن عن رسول الله -ﷺ-، باب مَا جَاءَ فِي النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيَاحِ. قال الترمذي"هذا حديث حسن صحيح".

(٢) قال الله تعالى{واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف} [الاحقاف: ٢١] والأحقاف : جمع حقف، وهو الرمل المعوج، يعني أن منازلهم كانت في الرمال. يقال إن تلك الرمال كانت بجبال بالشام،

أعطى الله عاداً قوة في أجسامهم، فظهر أثر هذه القوة في تخطيطهم، وبناء بلادهم، فهي بلادٌ لم يخلق مثلها، كما بيّن الله ذلك بقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ ﴾ الفجر: ٦ – ٨، فاغتروا بقوّتهم، ونسوا قوة من وهبهم تلك القوة، كما بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ فصلت: ١٥، وكانوا يبطشون بالناس المخالفين لهم ضرباً بالسياط وقتلاً بالسيوف[1] ، فأرسل الله إليهم نبياً منهم يذكّرهم بالحق ويدعوهم إليه، ويأمرهم بترك الشرك وعبادة الأوثان، ويذمهم على بطشهم بالناس، كما ذكر الله ذلك عنه بقوله: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ الشعراء: ١٢٨ – ١٣٠، فصموا آذانهم، وأعلنوا لهودٍ -عليه السلام- أنهم لن يتركوا آلهتهم وأفعالهم الشنيعة، وقالوا له ما ذكره الله عنهم بقوله: ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ هود: ٥٣.

ومرت الأيام حتى جاء يوم هلاكهم، فأقبل عارض تجاه بلادهم فظنوها سحابة جاءت بالمطر، وإذا الأمر غير ما توقعوه، كما قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾

والأصح أنهم كانوا باليمن. [انظر: الصحاح؛ مادة(حقف)، وتاج العروس؛ مادة(حقف)، و تفسير السمعاني٥/١٥٨].

(١) انظر: تفسير الطبري١٩/٣٧٧، وتفسير ابن أبي حاتم٩/٢٧٩٥.

الأحقاف: ٢٤ - ٢٥ ، إن هذا العارض الذي أقبل؛ هو ريح الدبور[١]، ريح تعصف عصفاً، ريح تصرُّ صريراً من شدة برودتها، هبت بسرعة عاتية، كما قال الله تعالى:﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ[٢] عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾ الحاقة: ٦، واستمرت أيام وليالي متوالية، كما قال الله: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ الحاقة: ٧ "حَسمت كل شيء مرّت به" قاله السدي[٣]، إنها أيام نحسات، كما قال الله تعالى:﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ فصلت: ١٦، وقال الله سبحانه:﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ القمر: ١٩ ، يومٌ "دائم الشؤم استمر عليهم بنحوسه، واستمر عليهم فيه العذاب إلى الهلاك"[٤].

---

(١) قال رسول الله -ﷺ-:نصرت بالصَبَا، وأهلكت عاد بالدبور" أخرجه البخاري٢/٤٠ حديث١٠٣٥؛ كتاب الاستسقاء، باب إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ. ومسلم٣/٢٧ حديث٢١٢٤، كتاب صلاة الاستسقاء، باب فِي رِيحِ الصَّبَا وَالدَّبُورِ. كلاهما عن -ابن عباس رضي الله عنهما-.

والدبور: هي الريح الغربية. [انظر:شرح صحيح البخاري لابن بطال٣/٢٥، وشرح النووي لمسلم٦/١٩٨] وقيل: التي تهب من جهة وجهك إذا استقبلت الكعبة، فهي من دبر الكعبة. قال القلقشندي:"سميت الدبور لأن مستقبل المشرق يستدبرها، وتسمى الغربية لهبوبها من جهة المغرب"[انظر: وصبح الأعشى٢/١٨٥، ومرعاة المفاتيح للمباركفوري٥/١٩٥].

(٢) الريح الصرصر: هي الباردة ذات الصوت، إما من الصِّر؛ وهو البَرْد، أو من الصرير؛ وهو الصوت. وبعض المفسرين فسرها بالباردة، وبعضهم بالشديدة، وبعضهم بالباردة الشديدة.[انظر:تاج العروس؛ مادة:صرر، وتفسير الطبري٢١/٤٤٤].

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره١٢/٥٢٠.

(٤) تفسير القرطبي١٧/١٣٥.

إن هذه الريح الصرصر العاتية قد دمرت كل شيء، لقد كانت كما وصفها الله سبحانه بقوله: ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأحقاف: ٢٤ ــ ٢٥، وقوله سبحانه: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ الذاريات: ٤١ ــ ٤٢.

نجاة هود ومن معه

إن كان عجبٌ قوة تدمير هذه الريح، فأعجب منه نجاة هودٍ ومن معه من المؤمنين، لم ينس الله أولياءه فقد نجاهم من الريح الصرصر العاتية، كما بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ هود: ٥٨، وقال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ الأعراف: ٧٢.

ولم يذكر المفسرون والمؤرخون نصوصاً عن الله تعالى أو عن رسوله -ﷺ-؛ تبيّن كيفية نجاة هودٍ ومن معه من المؤمنين، لكن ورد في بعض الآثار أن الله تبارك وتعالى لما أرسل الريح على عاد؛ اعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبهم من الريح؛ إلا ما تلين عليه الجلود، وتلتذه الأنفس، وإنها لتمر بالعادي فتحمله بين السماء والأرض وتدمغه بالحجارة. ورد هذا الأثر عن وهب بن منبه[1]، وعن ابن إسحاق[1].

---

(١) أخرجه أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم٢٩/٧، حديث رقم ٨٧١، قال محققه مشهور حسن: "إسناده ضعيف جداً".

ووهب بن منبه (٣٤ - ١١٤ هـ) بن كامل اليماني الذماري الصنعاني، أبو عبد الله، أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن: تابعي، حافظ، فقيه، عالم بالكتب القديمة وأساطير الأولين ولا

وسواء كانت هذه هي الكيفية التي كانت بها نجاتهم، أم كانت بغيرها، فإن المقطوع به أن نجاتهم من أثر تلك الريح العاتية التي كانت " تقتلع الناس ثم ترمي بهم على رءوسهم، فتندقّ رقابهم، وتنفصل رؤوسهم بسببها من أجسامهم"[٢] فهذا هو معنى قول الله تعالى في وصفها: ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ[٣] ﴿٢٠﴾ ﴾ القمر: ٢٠، وكان من وصف الله لها أيضاً قوله: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ الحاقة: ٧، " خاوية"أي: متآكلة الأجواف"[٤] أي: بقوا أبداناً بلا رؤوس؛ وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه؛ فتشدخ دماغه، وتكسر رأسه، وتلقيه، فكانوا كأنهم أعجاز نخل منقعر. وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئا"[٥] ، نجاة هودٍ ومن معه من ريح هذا وصفها أعجوبة بلا شك.

فما أعظَم النجاة من هذا البلاء! وما أعجبها! بأي كيفية كانت.

سيما الإسرائيليات، وكان ينطق بالحكمة. ولي قضاء صنعاء لعمر بن عبد العزيز.[انظر:الطبقات الكبرى٥/٥٤٣، وصفة الصفوة٢/٢٩١، ولسان الميزان٩/٤٤٥، والأعلام٨/١٢٥].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره١٢/٥١٣، وابن أبي حاتم في تفسيره٩/٢٧٩٩.

(٢) تفسير الطبري٢٢/٥٨٧.

(٣) منقعر: قعر الشيء: نهاية أسفله. وقوله : {كأنهم أعجاز نخل منقعر}[القمر/٢٠] أي: ذاهب في قعر الأرض.[المفردات للراغب ص٦٧٩].

(٤) تفسير البيضاوي٥/ ٣٧٩.

(٥) تفسير ابن كثير٦/١٥٤.

النجاة من الهلاك بالصيحة

من عجيب ضعف الإنسان أن تخيفه الأصوات! فيصاب بالهلع من أصوات الرعود القاصفة، وتكاد تهلكه أصوات الصواعق، كما قال الله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ البقرة: ١٩. إن الإنسان ضعيف حقاً، وإن خفي عنه هذا نتيجة غفلته وغروره.

قد أهلك الله بقدرته أمماً بالصوت، صوت قاصف مهلك تتقطَّع منه القلوب، ويتجمد به الدم في العروق فزعاً وهلعاً، تلك هي الصيحة التي أهلك الله بها ثمود قوم صالح، وأهلك الله بها مع أنواع عذاب أخرى مدين، وقوم لوط[١].

أهلك الله ثمود بالصيحة، كما بين الله ذلك في كتابه بقوله: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ هود: ٦٧ ـ ٦٨، وآيات أخر.

وقد يشكل على هذا ما جاء في القرآن من آياتٍ أن ثمود أهلكوا بالرجفة[٢]، وأنهم أهلكوا بالطاغية[٣] ، وأنهم أهلكوا بالدمدمة[٤].

---

(١) لكون العذاب الذي نزل بمدين وقوم لوط لا يقتصر على الصيحة، كان الأنسب دراستهم في مسألة مستقلة.

(٢) قال الله تعالى:"وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ" [الأعراف: ٧٧ - ٧٨] .

(٣) قال الله تعالى:" فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ" [الحاقة: ٥].

(٤) قال الله تعالى:" فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا" [الشمس: ١٤].

وللشنقيطي -رحمه الله- كلامٌ يزيل هذا الإشكال، حيث بيّن أن كل هذه العبارات ترجع إلى معنى الصحية فقال:"وَمَعْنَى هَذِهِ الْعِبَارَاتِ كُلِّهَا رَاجِعٌ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً أَهْلَكَتْهُمْ، وَالصَّيْحَةُ: الصَّوْتُ الْمُزْعِجُ الْمُهْلِكُ، وَالصَّاعِقَةُ تُطْلَقُ أَيْضًا عَلَى الصَّوْتِ الْمُزْعِجِ الْمُهْلِكِ، وَعَلَى النَّارِ الْمُحْرِقَةِ، وَعَلَيْهِمَا مَعًا، وَلِشِدَّةِ عِظَمِ الصَّيْحَةِ وَهَوْلِهَا مِنْ فَوْقِهِمْ رَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِمْ ، أَيْ تَحَرَّكَتْ حَرَكَةً قَوِيَّةً...وَقِيلَ لَهَا طَاغِيَةٌ ؛ لِأَنَّهَا وَاقِعَةٌ مُجَاوَزَةٌ لِلْحَدِّ فِي الْقُوَّةِ وَشِدَّةِ الْإِهْلَاكِ"[(١)].

إنها صيحة مدمرة! لم يَدُرْ بخَلَدِ أحدٍ من قوم صالح أن هناك صيحة بهذه الشدة، وكان القوم عرباً، فأنشد أحدهم شعراً يصف تلك الصيحة قبل أن ينخلع قلبه- على ما قيل-، في قصيدة جزلة تصوِّر فظاعة الهلاك، وروعة نجاة صالح ومن معه، ذكرها أبو زيد القرشي[(٢)]، حيث يقول:

كانَتْ صَيحَةً لم تُبْقِ شَيئاً ... بوادي الحِجرِ وانْتَسَفَتْ رِياحَا

فَخَرَّ لِصَوتِها أَجْبالُ رَضوَى ... وَخَرَّبَتِ الأشاقِرَ [(٣)] والصِّفاحَا

وأدْرَكَتِ الوُحُوشَ فكَنَفتْها ... ولم تَتْرُكْ لطائرِها جَنَاحَا

ونُجّي صالحٌ في مُؤْمنيهِ ... وطُحْطِحَ كُلُّ عاديٍّ فَطاحَا[(٤)]

---

(١) انظر: أضواء البيان٧/٢٢.

(٢) أبو زيد القرشي(...-١٧٠ هـ): محمد بن أبي الخطاب القرشي، أبو زيد. أديب، راوية، عالم بالشعر. صنف (جمهرة أشعار العرب). [انظر:الأعلام٦/١١٤، ومعجم المؤلفين٩/٢٨١].

(٣) الأشاقر: جِبَالٌ بينَ الحَرَمَيْنِ. [انظر:تاج العروس، مادة(شقر)].

(٤) جمهرة أشعار العرب ص٣٣.

نجاة صالح ومن معه من المؤمنين

لم ينس الله أولياءه، فقد أنجاهم من الهلاك بالصيحة، ولم يترك الله تعالى ذلك دون بيان، بل بيّنه في كتابه فقال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ هود: ٦٦ – ٦٧، وقال الله في قصتهم: ﴿ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ النمل: ٥٣.

كيفية إنجاء الله صالحاً ومن معه!

لقد نجوا وكفى! دلّ القرآن على هذا دلالة واضحة مؤكدة، ويَفْهَم بعض المفسرين من قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الأعراف: ٧٩ أن نجاتهم كانت بخروجهم من تلك البلاد، قال الطبري في تفسيره الآية السالفة الذكر:" يقول تعالى ذكره: فأدبر صالح عنهم حين استعجلوه العذاب وعقروا ناقة الله ، خارجًا عن أرضهم من بين أظهُرهم، لأن الله –تعالى ذكره– أوحَى إليه: إنّي مهلكهم بعد ثالثة، وقيل: إنه لم تهلك أمة ونبيها بين أظهُرها"[(١)]، وقال ابن عطية:"روي أنه –ﷺ– خرج من بين أظهرهم قبل نزول العذاب، وهو الذي تقتضيه مخاطبته لهم، وأما لفظ الآية فيحتمل أنه خاطبهم وهم موتى على جهة التفجع عليهم"[(٢)]. وستجد مزيد بحث–بمشيئة الله تعالى– عن لفظ التولي في نجاة شعيبٍ ومن معه، فإن هناك آية وردت بنفس اللفظ:(فتولى عنهم)، والبحث في الآيتين سواء[(٣)].

---

(١) تفسير الطبري١٢/٥٤٦– ٥٤٧.

وهذا الرأي يخالف فيما يظهر قول–ﷺ–:"إِذَا أَرَادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ، عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حَيٌّ، فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ، فَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ"[أخرجه مسلم في صحيحه٤/١٧٩١حديث٢٢٨٨].

(٢) المحرر الوجيز٢/ ٤٩١، وانظر الجواهر الحسان٢/ ٣٤.

(٣) وذلك قريباً في مبحث: كيفية إنجاء الله شعيباً–عليه السلام–والمؤمنين معه.

وكأن بعض المفسرين أخذوا هذا من الروايات التي تدل على خروج صالح ومن معه قبل نزول العذاب[١]، وسترى بعضها بعد ذكر أيام المتاع التي أُجِّل هلاكهم إلى نهايتها:

أيام المتاع لهود: هي التي ذكرها سبحانه بقوله:﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ هود: ٦٥، فأُجِّلوا ثلاثة أيام: أول يوم تكون فيه وجوهم مصفرة، والثاني: محمرة، والثالث: مسودة، وفي الرابع يأتيهم العذاب[٢]. وخلاصة الروايات في تحديد الأيام أن يوم الخميس هو اليوم الأول من أيام النظرة ،واليوم الثاني من أيام التأجيل هو يوم الجمعة،واليوم الثالث من أيام المتاع هو يوم السبت[٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري١٢/٥٣٦، وتفسير ابن أبي حاتم٦/٢٠٥١، وبحر العلوم١/٥٤٣، والتحرير والتنوير١٩/٢٧٨.

(٢) روي تفسير ذلك في حديث مرفوع، وهو أن صالحاً أخبر قومه أن العذاب يأتيهم بعد ثلاثة أيام، وأخبرهم"أن آية العذاب أن اليوم الأول تصبح وجوههم مصفرة، واليوم الثاني محمرة، واليوم مسودة، فلما أصبحوا إذا وجوههم كأنما طليت بالخلوق صغيرهم و كبيرهم ذكرهم و أنثاهم فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل و حضركم العذاب فلما أصبحوا يوم الثاني إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدماء فصاحوا وضجوا وبكوا؛ و عرفوا أنه العذاب. فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم: ألا قد مضى يومان من الأجل، وحضركم العذاب، فلما أصبحوا اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار؛ فصاحوا جميعا: ألا قد حضركم العذاب فتكفنوا وتحنطوا، وكان حنوطهم الصبر والمر، وكانت أكفانهم الأنطاع، ثم ألقوا أنفسهم بالأرض فجعلوا يقلبون أبصارهم إلى السماء مرة و إلى الأرض مرة؛ لا يدرون من حيث يأتيهم العذاب: من فوقهم من السماء أو من تحت أرجلهم من الأرض، خشعا وفَرَقاً، فلما أصبحوا اليوم الرابع أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء له صوت في الأرض؛ فتقطعت قلوبهم في صدورهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين. أخرجه الحاكم في المستدرك٦/٢١٧، حديث٤٠٦٩، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء و المرسلين، باب ذكر صالح النبي -ﷺ- ، قال الحاكم:" تفرد به شهر بن حوشب، وليس له إسناد غيرها، ولم يُسْتغن عن إخراجه، و له شاهد على سبيل الإختصار بإسناد صحيح؛ دل على صحة الحديث الطويل على شرط مسلم". وقال الذهبي: "أبو بكر بن عبدالله:واه"

(٣) انظر: البداية والنهاية١/١٥٦-١٥٧.

عن ابن إسحاق قال:"حتى إذا كان ليلة الأحد خرج صالح ومن معه من بين أظهرهم ومن أسلم معه إلى الشام فنزل رملة فلسطين"[(١)]، وليلة الأحد هي ليلة العذاب كما مرّ.

وقال السدي عن أثر العلامات التي ظهرت على وجوههم في أيام المتاع الثلاثة:"شغلهم عن صالح ما أنزل الله بهم من عذابه. فجعل بعضهم يخبر بعضًا بما يرون في وجوههم حين أصبحوا من يوم الخميس، وذلك أن وجوههم أصبحت مصفرَّة، ثم أصبحوا يوم الجمعة ووجوههم محمرَّة، ثم أصبحوا يوم السبت ووجوههم مسودّة، حتى إذا كان ليلة الأحد خرج صالح من بين أظهرهم ومن أسلم معه إلى الشام، فنزل رملة فلسطين"[(٢)]

وفي هذه الروايات تحديد وقت خروجه، فهو محدّدٌ باليوم الثالث، أو بليلة اليوم الرابع من أيام المتاع.

لكن تحديد يوم خروج صالح-إن كان صحيحاً- باليوم الثالث من أيام المتاع يخالف فيما يظهر ظاهر القرآن، لأن الله تعالى قال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾ هود: ٦٦، فظاهر الآية أن الله أنجاه ومن معه يوم مجيء العذاب لا قبله، وخروجه قبل ذلك يعني أنه نجاه قبل أن يجئ العذاب -والله أعلم-.

لكن قال ابن عاشور عن هذه الروايات والتي فيها تحديد المكان الذي خرج إليه صالح ومن معه:"كلها أخبار غير موثوق بها"[(٣)].

---

(١) قال ابن إسحاق: قال لهم صالح-ﷺ-"تصبحون غداً: يوم مؤنس -يعني: الخميس- وجوهكم مصفرة، وتصبحون يوم العروبة -يعني: الجمعة- ووجوهكم محمرة، ثم تصبحون يوم شبار-يعني: السبت- ووجوهكم مسودة" [أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٦/٢٠٥١].

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره١٢/٥٣٦.

(٣) التحرير والتنوير١٩/٢٧٨.

قد نجى الله صالحاً والمؤمنين معه من صيحة شديدة رجفت الأرض من شدتها[١]، وتصدَّعت لها قلوب ثمود[٢]؛ إنها صيحة من جبريل -عليه السلام-؛ صاح بهم صيحة واحدة، فهلكوا جميعا، وقيل: أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض[٣].

إن النجاة من تلك الصيحة المزلزلة؛ لأمر عجيب من قدرة ربنا سبحانه ورحمته بأوليائه.

فيا لها من نجاة ما أجملها! ومن قدرة ما أعظمها! ومن خيرٍ ورحمة ما أوسعها.

---

(١) انظر: أضواء البيان٢/ ٣٥.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي٤/ ١٥٥.

(٣) انظر: تفسير الخازن٢/ ٤٩٢، وتفسير أبي السعود٥/ ٨٧.

النجاة من الهلاك بأنواع متعددة من العذاب

قد يغضب الملك الجبّار سبحانه على أمة من الأمم؛ فيجمع عليها أنواعاً من العذاب يهلكها به، مع أنه يكفي لهلاك تلك الأمة المعينة نوعٌ واحدٌ من تلك الأنواع المتعددة، ولكن تنويع العذاب زيادة ترويعٍ ونكالٍ بهم، وزيادة إذلالٍ لهم، وسببٌ في زيادة اعتبار من يأتي بعدهم.

وقد ذكر الله في كتابه حالتين من ذلك، وهما: حالة مدين، وحالة قوم لوطٍ -عليه السلام-، وإليك تفصيل ما ذكره الله عنهما:

أولاً- ما حدث لمدين ونجاة شعيب -عليه السلام- ومن معه:

أرسل الله إلى مدين خطيب الأنبياء[1] شعيباً -عليه السلام-، لقد كان فصيحاً يحسن مراجعة قومه فيما يوردونه عليه من الأباطيل، ويزيلها بطريقة بالغة الوضوح والبيان -لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد- لقد كان نبي الله شعيب حليماً، كان -عليه السلام- إذا سفلت عباراتهم وقاحة وسفها، زادت عباراته رزانة ونصحاً وشفقة، وهذا ظاهر لمن يتأمل الآيات التي فيها مراجعته لقومه[2]، ولكن ذلك لم يُجْدِ شيئاً مع أقوام قد سلك الله في قلوبهم العناد والتكذيب.

لم يعد بالأمر خفاء، ولم يجد قومه قولاً يردون به قوله؛ إلا الاعتذار بعدم الفهم، والتهديد بالرجم؛ كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ هود: ٩١.

---

(١) ورد ذلك في روايات أخرجها الطبري في تفسيره١٢/ ٥٦٧،و١٥/ ٥٨، وابن أبي حاتم في تفسيره٥/ ١٥٢٢، و٦/ ٢٠٧٦، و٩/ ٢٨١٤.

(٢) انظر مثلاً: سورة الأعراف، الآيات٨٥-٨٩. وسورة هود، الآيات٨٤-٩٣.

لقد أجرموا! أشركوا بالله، وأنقصوا المكيال والميزان، وبخسوا الناس أشياءهم، وصاروا يفسدون في الأرض؛ فينشرون فيها المعاصي والفسق، لقد هددوا وتوعدوا كل من آمن بالله، لم يشكروا الله على نِعَمِهِ، ولم يلتزموا بشرعه. كما بيّن الله ذلك عن نبيهم شعيبٌ في قوله سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ الأعراف:٨٥ ـ٨٦.

لقد أغضبوا الإله العظيم سبحانه! أغضبوا جبّار السماوات والأرض! لم يلتفتوا إلى ما جاءهم من البينات والهدى، فجلبوا لأنفسهم بذلك ما لا طاقة لهم به من العذاب.

نزول العذاب المتنوع بهم ونجاة شعيب -عليه السلام- ومن معه:

بيّن الله تعالى أنواعاً من العذاب أهلك بها مدين-قوم شعيب- فبيّن أنهم أخذتهم الرجفة، فقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ الأعراف: ٩٠ ـ ٩١.

وبيّن أنهم أخذتهم الصيحة، فقال سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ هود:٩٤.

وبيّن أن الذي حلّ بهم عذاب يوم الظلة، فقال سبحانه في سياق قصة أصحاب الأيكة- وهم مدين على الصحيح[١] -: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ الشعراء: ١٨٩.

قال ابن كثير:"قد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة: وهي سحابة أظلتهم، فيها شرر من نار ولهب، ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم؛ فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجساد"[٢].

الذي يظهر في ترتيب هذه الأنواع من العذاب أنهم أصابهم أولاً حرّ شديدٌ، استمرّ سبعة أيام بلياليهن[٣] جاء وصفه عن بعض مفسري السلف من الصحابة والتابعين، فقد ذكر ابن عباس-رضي الله عنهما- عذاب يوم الظلة فقال: بعث الله عز وجل عليهم وهُدَةً؛ فأخذت بأنفاسهم، حتى نضجتهم في بيوتهم؛ فخرجوا يلتمسون الروح فخرجوا من قريتهم، فبعث الله سبحانه وتعالى عليهم سحابة حتى إذا أظلتهم واجتمعوا تحت ظلها، أسقطها عليهم فأحرقتهم"[٤].

---

(١) قال ابن كثير-رحمه الله-"أصحاب الأيكة، هم أهل مدين على الصحيح. وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة. وقيل: شجر ملتف كالغيضة، كانوا يعبدونها؛ فلهذا لما قال: كذب أصحاب الأيكة المرسلين، لم يقل: "إذ قال لهم أخوهم شعيب"، وإنما قال: {إذ قال لهم شعيب} ، فقطع نسبة الأخوة بينهم؛ للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسبا. ومن الناس من لم يتفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبا -عليه السلام- ، بعثه الله إلى أمتين، ومنهم من قال: ثلاث أمم"[تفسير ابن كثير٦/١٥٩] وهو كلام نفيس جداً، وقد بيّن ابن كثير في نفس الموضع ضعف أدلة من قال إنهم أمتين، أو ثلاث أمم، فراجعه إن شئت.

(٢) تفسير ابن كثير٣/ ٤٤٩

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٩/ ٢٨١٦ عن الحسن.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٩/ ٢٨١٤.

وقال السدي:"فتح الله عليهم بابًا من أبواب جهنم، فأهلكهم الحرّ منه، فلم ينفعهم ظلّ ولا ماء. ثم إنه بعثَ سحابةً فيها ريحٌ طيبة، فوجدوا بَرْدَ الرّيح وطيبِها، فتنادوا: الظُّلّةَ، عليكم بها" ! فلما اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم، انطبقت عليهم فأهلكتهم"(١).

وربما يرى البعض أن الأنسب لهم مع شدة حر الشمس؛ البقاء في البيوت؛ ليستظلوا بها، لكنهم خرجوا منها بسبب الرجفة، وخافوا أن يدخلوها؛ فتسقط عليهم بسبب الزلزلة، قال محمد بن كعب القرظي"أخذتهم الرجفة في دارهم حين خرجوا منها، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد، ففرقوا إن دخلوا البيوت أن تسقط عَلَيْهِمْ"(٢).

ثم إنهم في هذا الوضع الصعب -شدة حرٍ مع عدم إمكانية الاستظلال بالبيوت- جاءهم ما يظنون أنه رَوحٌ وبرْدُ سلامٍ، وهو سحابة أظلتهم، قال ابن إسحاق:" بلغني-والله أعلم-: أنَّ الله سلط عليهم الحرّ حتى أنضجهم، ثم أنشأ لهم الظُّلّةَ كالسحابة السوداء، فلما رأوها ابتدرُوها يستغيثون ببَرْدها مما هم فيه من الحر، حتى إذا دَخلوا تحتها ، أطبقت عليهم، فهلكوا جميعًا، ونجى الله شعيبًا والذين آمنوا معه برحمته."(٣).

وقال قتادة:"ذُكر لنا: أنه سلَّط عليهم الحرّ سبعة أيام، لا يظللهم منه ظلّ، ولا يمنعهم منه شيء، فبعث الله عليهم سحابة، فحَلُّوا تحتها يلتمسون الرَّوْح فيها ، فجعلها الله عليهم عذابا، بعث عليهم نارا فاضطرمت عليهم فأكلتهم ، فذلك عذاب يوم الظلّة، إنه كان عذاب يوم عظيم"(٤).

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره١٢/ ٥٦٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٦/ ٢٠٧٩، و٩/ ٢٨١٥.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره١٢/ ٥٦٧.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره١٧/ ١٢٤.

وقال ابن جريج[١]: "لما أنزل الله عليهم أوّل العذاب، أخذهم منه حر شديد، فرفع الله لهم غمامة، فخرج إليها طائفة منهم ليستظلوا بها، فأصابهم منها روح وبرد وريح طيبة، فصبّ الله عليهم من فوقهم من تلك الغمامة عذابا، فذلك قوله:(عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ)"[٢]

وقال عبد الرحمن بن زيدٍ[٣]:"بعث الله إليهم ظلة من سحاب، وبعث إلى الشمس فأحرقت ما على وجه الأرض، فخرجوا كلهم إلى تلك الظلة، حتى إذا اجتمعوا كلهم، كشف الله عنهم الظلة، وأحمى عليهم الشمس، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى"[٤].

وبهذا يُعلم أن الله جمع عليهم أنواعاً من العذاب، وقد نصّ على ذلك بعض مفسري السلف، فعَنْ مُحَمَّد بْنِ كَعْبٍ القُرَظِيِّ، قَالَ:"إِنَّ أَهْل مدين عذبوا بثلاثة أصناف مِنَ العذاب: أخذتهم الرجفة في دارهم حني خرجوا منها، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد، ففرقوا إن دخلوا البيوت أن تسقط عَلَيْهِمْ، فأرسل الله عَلَيْهِمْ الظلة فدخل تحتها رجل، فقال: مَا رأيت كاليوم ظلا أطيب ولا أبرد ! هلموا أيها الناس، فدخلوا جميعاً تحت الظلة، فصاح فيهم صيحة

---

(١) ابن جريج (٨٠ - ١٥٠ هـ) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، أبو الوليد: إمام الحجاز، مفسر، حافظ، فقيه. رومي الأصل، مكي المولد والوفاة. معدود في أعيان علماء مكة، أول من صنف الكتب في الإسلام. كان من أوعية العلم، مع أنه لم يطلب العلم إلا في الكهولة. كان حسن الصلاة، وكان صاحب ليل (أي يكثر التهجد). [أنظر: صفة الصفوة٢/ ٢١٦، شذرات الذهب١/ ٢٢٦، والأعلام٤/ ١٦٠، ومعجم المؤلفين٦/ ١٨٣].

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره١٩/ ٣٩٤.

(٣) ابن زيد المدني(...-١٨٢هـ) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، مولى عمر بن الخطاب، كان صاحب قرآن وتفسير. وكان في نفسه صالحاً، لكنه كان في الحديث واهياً. من مؤلفاته: (تفسير القرآن)، (الناسخ والمنسوخ من القرآن). [انظر:الجرح والتعديل لابن أبي حاتم٥/ ٢٣٣،وشذرات الذهب١/ ٢٩٧، وسير أعلام النبلاء٨/ ٣٤٩].

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره١٩/ ٣٩٥، وابن أبي حاتم في تفسيره٩/ ٢٨١٧.

واحدة فماتوا جميعاً"[١]. وعند تفسيره قول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ هود: ٩٤ قال ابن كثير:"ذكر هاهنا أنه أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها"[٢].

والتمس ابن كثير-رحمه الله- أسباب ما جمع الله عليهم من العذاب فأفاد أنهم أخذتهم الرجفة كما أرجفوا شعيبا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، وكانوا قد تهكموا بنبي الله شعيب -عليه السلام-فجاءت الصيحة فأسكتتهم، وقالوا لشعيبٍ-عليه السلام-: أسقط علينا كسفاً من السماء، فأصابهم عذاب يوم الظلة"[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٦/ ٢٠٧٩، و٩/ ٢٨١٥.

(٢) تفسير ابن كثير٤/٣٤٧.

(٣) انظر:المرجع السابق في موضعين: ٣/ ٤٤٩-٤٥٠، و٤/٣٤٧، وقال هنا:"وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة، ولله الحمد والمنة كثيرا دائما".

نجاة شعيبٍ -عليه السلام- ومن معه من المؤمنين

نصّ الله صراحة على نجاة شعيبٍ ومن معه من المؤمنين في قوله سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ هود: ٩٤.

وآية أخرى أومأت إلى النجاة دون تصريح، وهي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ الأعراف: ٩٢، فهنا لم يصرح بنجاتهم، لكن تستفاد نجاتهم من قصر الخَسار على مكذبيه، قال الآلوسي: "في بناء الخبر على الموصول؛ إيماء إلى أن علة الحكم هي الصلة؛ فكأنه قيل: الذين كذبوا شعيبا هلكوا لتكذيبهم إياه هلاك الأبد، ويشعر ذلك هنا بأن مصدقيه -عليه السلام- نجوا نجاة الأبد، وهذا مراد من قال بالاختصاص في الآية"[1]، ويفيد هذا الحصر أن "الذين كذبوه -عليه السلام- صاروا هم الخاسرين للدنيا والدين؛ لتكذيبهم، لا المتبعون له -عليه السلام- المصدقون إياه -عليه السلام-، وبهذا القصر اكتفى عن التصريح بالانجاء"[2].

كيفية إنجاء الله شعيب -عليه السلام- والمؤمنين معه

لقد نجوا وكفى! لقد نجوا من عذابٍ مهولٍ شديدٍ متنوعٍ في غاية الشدَّة، إن نجاتهم منه لأمر عظيم رائع. فالمهم أن يعلم المؤمن أن الله قد أنجى أولياءه، ولم يُسْلِمْهُم لذلك العذاب. أما كيفية الإنجاء فهي أمرٌ ثانوي.

لكن بعض المفسرين استنبط أن نجاتهم كانت بخروجهم عن أولئك القوم المعذبين من قول الله تعالى عن شعيب -عليه السلام-: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ الأعراف: ٩٣، وهذا الاستنباط مبني على أن المراد

---

(١) روح المعاني ٥/ ٨.

(٢) المرجع السابق.

بالتولي؛ الانصراف والذهاب، ويَرْجُحُ أن هذه المفارقة كانت وقت نزول العذاب، أو قبله، لا بعده[١]. قال الطبري في تفسيرها:"أدبر شعيب عنهم، شاخصًا من بين أظهرهم حين أتاهم عذاب الله"[٢].

وبعضهم يرى أن هذا الخروج كان بعد نزول العذاب، فلا يدل على أن النجاة حصلت بسببه، قال ابن كثير في تفسير الآية السابقة:" أي: فتولى عنهم شعيب-عليه السلام- بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال"[٣]، وأفاد البيضاوي أن هذا هو ظاهر الآية[٤].

وأفاد البقاعي[٥] أنه تولى عنهم بعد نزول العذاب، وقبل حلوله الفعلي-أي: عند رؤية مخايله- تولى ذاهباً إلى مكان غيره، يعبد ربه فيه[٦].

وكثيرٌ من المفسرين يرى أن الآية محتملة للأمرين[٧].

---

(١) ما يقال عن هذه الآية يقال: عن آية تولي صالح-كما سبق بيان ذلك-، وأيضاً ما يقال هناك يقال هنا.

(٢) تفسير الطبري١٢/ ٥٧١.

(٣) تفسير ابن كثير٣/ ٤٤٩.

(٤) تفسير البيضاوي٣/٣٧.

(٥) البقاعي (٨٠٩-٨٨٥هـ) إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، برهان الدين، أبو الحسن: علامة، مفسر، حافظ، أديب، مؤرخ. مهر وبرع في الفنون، وكان من أعاجيب الدهر. أصله من البقاع في الشام، ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة، وسكن دمشق وتوفي فيها. آذاه الجهال وبعض المنتسبين للعلم؛ بسبب تكفيره ابن عربي وابن الفارض. مؤلفاته كثيرة منها:(نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، (عنوان الزمان في التراجم ،(مصرع التصوف)، وله ديوان شعر سماه: (إشعار الواعي بأشعار البقاعي). [انظر:نظم العقيان١/٢٤، شذرات الذهب٧/٣٣٩، والأعلام١/٥٦، ومعجم المؤلفين١/٧١].

(٦) نظم الدرر٣/٧٢.

(٧) انظر: غرائب القرآن للقمي النيسابوري٣/٢٨٩.

ويقتصر بعضهم على ذكر الخلاف، كأبي حيان[١] وابن عادل الحنبلي[٢].فالله أعلم.

وبعض المفسرين يرى أن التولي يعني الإعراض وعدم الاكتراث[٣]، فهو حينها لا يدل على كيفية النجاة أصلاً.

ورأى ابن عاشور أن اللفظ يحتمل أن يراد به المفارقة، ويحتمل أن يراد به الإعراض[٤].

المهم أن شعيباً-عليه السلام-ومن معه من المؤمنين نجوا، وقد بيّن القرآن أنهم سعدوا بنجاتهم تلك، ولم يعكِّر عليها كون المهلكين قومهم وأقاربهم، فإن كُفر أولئك مانع من الأسى والحزن عليهم. وقد بيّن الله ذلك عن شعيبٍ-عليه السلام-في قوله سبحانه عنه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ الأعراف: ٩٣، قال الطبري في تفسيرها:" يقول: فكيف أحزن على قوم جَحَدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله ، وأتوجَّع لهلاكهم"[٥]

وقال الشنقيطي:"أنكر نبي الله شعيب -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- الأسى، أي: الحزن على الكفار إذا أهلكهم الله بعد إبلاغهم ، وإقامة الحجة عليهم مع تماديهم في الكفر والطغيان؛ لجاجا وعنادا. وإنكاره لذلك يدل على أنه لا ينبغي"[٦].

---

(١) البحر المحيط٥/٩٨

(٢) اللباب٩/١٩٧.

(٣) انظر: زاد المسير٣/٢٣٣، والسراج المنير١/٣٩١،

(٤) التحرير والتنوير٨/١٧٦

(٥) تفسير الطبري١٢/٥٧١

(٦) أضواء البيان٢/٣٧

وأفاد ابن عاشور أن قوله: ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ خطابٌ منه -ﷺ- لنفسه إذ خطر له خاطر الحزن عليهم فدفعه عن نفسه بأنهم لا يستحقون أن يؤسف عليهم. ثم قال:" ويجوز أن يكون الاستفهام الإنكاري موجها إلى نفسه في الظاهر، والمقصود نهي من معه من المؤمنين عن الأسى على قومهم الهالكين، إذ يجوز أن يحصل في نفوسهم حزن على هلكى قومهم وإن كانوا قد استحقوا الهلاك"(١).

والخلاصة: أن هلاك أولئك الكفار كان يُسعد أولئك المؤمنين، وقد سبق نقل تفسير البيضاوي لقول الله تعالى:﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أن هلاك الكفار والعصاة- من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم- نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها"(٢) ، قال الآلوسي:" هذا منه تعالى تعليم للعباد أن يحمدوه على مثل ذلك"(٣).

---

(١) انظر: التحرير والتنوير٨/ ٢٠٤

(٢) تفسير البيضاوي٢/ ٤٠٩ .وانظر:السراج المنير١/٣٣٤، وتفسير أبي السعود٣/١٣٤.

(٣) روح المعاني٤/١٤٤.

ثانياً:ما حدث لقوم لوط، ونجاة لوط -عليه السلام- وأهل بيته:

فَعَلَ قوم لوط-عليه السلام-فِعْلَة تشمئز منها الفطر السليمة، فاحشة قد استكملت معاني الفُحش، فالله تعالى نكَّر اسم الفاحشة في الزنى، وصرّح به في قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ الإسراء: ٣٢ وعرفها في اللواط، ولم يصرح باسم اللواط في قوله: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ الأعراف: ٨٠ ، مما يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة، فهي خصلة استقر فحشها عند كل أحد، فهي لظهور فحشها وكماله؛ غنية عن ذكرها ، بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها"[١].

إن "اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر الله عليها الرجال ، وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور ، وهي شهوة النساء دون الذكور ، فقلبوا الأمر ، وعكسوا الفطرة والطبيعة فأتوا الرجال شهوة من دون النساء"[٢].

ومع إتيان قوم لوط الرجال، كانوا يفعلون أفعالاً منكرة أخرى، فكانوا قطاع طرق، ولم يقتصروا في فعل الفاحشة على فعلها بل كانوا يجتمعون عليها، وهو ما يَدُلُّ عليه قول الله تعالى ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ العنكبوت: ٢٩، ، والاجتماع على المنكر، جريمة تزيد في قبحها عن مجرد فعل المنكر ، ولوطٌ -عليه السلام- قد كشف لهم كل ذلك فقال مخاطباً لهم: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ العنكبوت: ٢٩، ومع انتكاس فطرهم انتكست عندهم المفاهيم أيضاً، فكانوا يعدّون عيباً ما يعده أهل

---

(١) انظر: الجواب الكافي ص١٧٠.

(٢) المرجع السابق.

الفطر السليمة ميزة، ويظهر ذلك من عيبهم التطهر، كما بيّن الله ذلك بقوله عنهم: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ النمل: ٥٦، التطهر وهو التطهر، اعتبروه عيباً يستحق أهله الإخراج من البلدة.

لقد كانوا بشهوتهم أشبه ما يكونون بالسكارى، يتخبطون في سكرتهم، كما قال الله في وصفهم: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ الحجر: ٧٢، قال ابن القيم رحمه الله:"معلوم أن شارب الخمر لا يدوم سكره، بل لابد أن يفيق، ولعل أوقات إفاقته أكثر من أوقات سكره، وأما سكرة العشق فَقَلَّ أن يستفيق صاحبها، إلا إذا جاءت الرسل تطلبه للقدوم على الله تعالى، ولهذا استمرت سكرة اللوطية حتى فجأهم عذاب الله وعقوبته"[1]

وهذا ظاهر من فعلتهم التي سبقت إهلاكهم مباشرة، حيث إن لوطاً-عليه السلام-جاءه أضياف من أحسن الناس وجوهاً فظنهم بشراً، فأخبرت امرأة لوط الخائنة لزوجها[2] قومها بضيوفه[3]، فأقبل القوم كالمجانين متجهين إلى بيت لوط-عليه السلام- يريدون أن يظفروا بهؤلاء الضيوف؛ ليفعلوا بهم الفاحشة، ولم يعلم سكارى شهوتهم أن هؤلاء الضيوف ملائكة رب العالمين، جاءوا ليبشروا لوطاً بأن الله سيهلك هؤلاء صباحاً- كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ هود: ٧٧ – ٧٨،

---

(١) إغاثة اللهفان٢/ ١٥٣.

(٢) وصفها الله سبحانه بالخيانة في قوله سبحانه: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا} (التحريم: ١٠)، أفاد ابن عباس أن خيانتها لم تكن بالزنا، ولكن"كانت تدل على الأضياف"[انظر: تفسير الطبري١٥/٣٤٣]

(٣) أخرج الطبري في تفسيره١٥/ ٤٢٦، روايات إخبار امرأة لوط قومه عن ضيوفه.

"جاء لوطًا قومه يستحثون إليه، يُرْعَدون مع سرعة المشي، مما بهم من طلب الفاحشة"[١]، جاءوا"يسرعون إليه في خفّة وطيش، وانظر كيف تبلغ السفاهة بالقوم ... إنهم ليأتون الفاحشة في غير مبالاة، ولا ستر من حياء! يأتونها جهرة وفى صورة جماعية"[٢].

لوطٌ -عليه السلام- ضاق ذرعاً؛ لأنه "أحسّ بالعجز عن حماية ضيوفه، فهو وحده كيف سيتصدّى لقومه جميعا"[٣]، واعتبر هذا اليوم عصيباً، لأنه لم يجد مخلصاً لضيوفه من هؤلاء، حتى عرض بناته ليتزوجوهن مع أنهم ليسوا بأكفاء لهن، ولكن "الإحساس بالمسؤولية الملقاة عليه لحماية ضيوفه، هو الذي آلمه وأوجعه، وضيّق مسالك النجاة بهم في وجهه"[٤].

وما علِم لوطٌ -عليه السلام- أن الله أراد أن يشهد هو نفسه أمام الملائكة على قومه بالفساد، فلما شهد بذلك أتي موعد إهلاكهم، وبدأ مسلسل مجموعة أنواعٍ من العذاب تحل بهم.

نزول العذاب المتنوع بهم ونجاة لوط -عليه السلام- ومن معه

ذكر الله تعالى أنواعاً من العذاب أحلها بقوم لوط-عليه السلام-، وهي كما يلي:

أعمى أبصارهم حين أرادوا فعل الفاحشة بضيوفه من الملائكة-عليهم السلام-، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾ القمر:٣٧، قال السدي:"بسط حينئذ جبريل -عليه السلام- جناحيه، ففقأ أعينهم، وخرجوا يدوس بعضُهم في أدبار بعض عميانًا يقولون:"النَّجَاءَ النجاء! فإن في بيت لوط أسحرَ قوم في الأرض"[٥].

---

(١) تفسير الطبري١٥/٤١١.

(٢) التفسير القرآني للقرآن٦/١١٧٧.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره١٥/ ٤٢٧.

الصيحة، قال الله تعالى فيهم: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ الحجر: ٧٣، قال ابن كثير عن المراد بالصيحة:" هي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس، وهو طلوعها"[١].

مطر السوء، قال الله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الأعراف: ٨٤، وقال سبحانه: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ الشعراء: ١٧٣، وقال سبحانه -ذماً الذين اتخذوا القرآن مهجوراً-: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ الفرقان: ٤٠، وهذا المطر قد ذكر الله تفصيله في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ هود: ٨٢ ــ ٨٣. ، فياله من مطرٍ وصفه الله بأدق وصف(مطر السوء)، مطرٌ، ولكنه ليس مطر غيث بماء، بل هو مطرٌ بمواصفات خاصة، إنه من حجارة من سجيل[٢]، منضودٍ[٣]، مسومة عند ربك[٤]. "إنه مطر ولكنه من حجارة، وهى حجارة ولكنها من سجّيل، وهى سجّيل

---

(١) تفسير ابن كثير٤/٥٤٣.

(٢) رأى ابن جرير أصوب الأقوال في تفسير السجيل: أنه الطين، واستدل لذلك بقول الله سبحانه: (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ)سورة الذاريات: ٣٣، ٣٤.[انظر: تفسير الطبري١٥/٤٣٥].

(٣) " من النضد: وهو وضع الشيء بعضه فوق بعض".[معالم التنزيل للبغوي٤/١٩٤].

(٤) معلمة، أي أنها مسومة؛ عليها وَسْمٌ، وهو العلامة. [انظر: المحيط في اللغة؛ مادة(سوم)، وتفسير أبي السعود٨/١٤١] واختلفوا في هذا الوسم ما هو؟ فقيل: عليها سيما لا تشاكل حجارة الأرض. وقيل:عليها خطوط حمر على هيئة الجزع. وقيل:كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم. وقيل: مكتوب على كل حجر اسم من رُمي به.[انظر: بحر العلوم٢/١٦٥، ومعالم التنزيل٤/١٩٤].

ولكنها منضودة-أي مهيّأة ومعدّة لهم ، في أحجام منتظمة- وهى منضودة، ولكنها مسوّمة - أي معلّمة، يعرف كل حجر منها المكان الذي يقع عليه والأثر الذي يحدثه-"[١].

قلب ديارهم، هذا القلب ذكره الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ هود: ٨٢، وفي قوله سبحانه: ﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ الحجر: ٧٤، وفي قوله سبحانه: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ النجم: ٥٣، وهذا القَلْب يتناسب مع إنقلاب فطرهم ومفاهيمهم، قال ابن زيد -في قوله تعالى-: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾:" قال: أهواها من السماء: رمى بها من السماء؛ أوحى الله إلى جبريل عليه السلام، فاقتلعها من الأرض، ربضها ومدينتها، ثم هوى بها إلى السماء؛ ثم قلبهم إلى الأرض، ثم أتبعهم الصخر حجارة"[٢] ، وفي تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ ﴾ الحاقة: ٩، قال قتادة:"المؤتفكات:قوم لوط؛ ائتفكت بهم أرضهم فجعل عاليها سافلها"[٣]، وقد ورد أن "جبريل -عليه السلام- أخذ قوم لوط من سَرْحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وامتعتهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفأهم"[٤]، قاله مجاهد[٥].

---

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن٤/٤٢٦.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره٢٣/ ٥٧٦.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٦/ ١٨٣٧، وانظر تفسير الطبري٢٣/ ٥٧٦.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره١٥/ ٤٤٠.وانظر: تفسير ابن أبي حاتم٥/١٥١٧.

(٥) مجاهد (٢١-١٠٣هـ) هو: مجاهد بن جبر، وقيل بن جبير، (أبو الحجاج) مولى عبد الله بن السائب -رحمه الله-، مقرئ مفسر، أحد الأعلام الأثبات، أجمعت الأمة على إمامته والاحتجاج به، وقد عرض التفسير على ابن عباس -رضي الله عنهما-، ثلاث مرات، وقيل: ثلاثين مرة، والظاهر أنه عرضه عليه ثلاث مرات يوقفه عند كل آية، وثلاثين مرة عرضه عليه قراءة فقط، لذا فهو إمام في التفسير بلا منازعة؛ حتى قال سفيان الثوري:"إذا جاءك التفسير عن مجاهدٍ فحسبُكَ به" ومع ذلك فله أقوال وغرائب في العلم والتفسير

فهذه أنواعٌ من العذاب أنزلها الله بقرى قوم لوط-عليه السلام-، قال مجاهد: "فلم يصب قومًا ما أصابهم، إن الله طمس على أعينهم، ثم قلب قريتهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل"[(١)]، وقال ابن القيم رحمه الله:" لم يبتل الله تعالى بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحدا من العالمين، وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أحدا غيرهم، وجمع عليهم من أنواع العقوبات بين الإهلاك، وقلب ديارهم عليهم، والخسف بهم، ورجمهم بالحجارة من السماء، فنكل بهم نكالا لم ينكله أمة سواهم، وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عملت عليها، وتهرب الملائكة إلى أقطار السماوات والأرض إذا شاهدوها، خشية نزول العذاب على أهلها، فيصيبهم معهم، وتعج الأرض إلى ربها تبارك وتعالى، وتكاد الجبال تزول عن أماكنها"[(٢)]، فيا لها من عبرة للمعتبرين[(٣)].

تستنكر-كما قال الذهبي- وقال ابن تيمية:"مجاهدٌ إمام المفسرين"، وقال الأعمش:"إذا رأيت مجاهد فكأنه حمّال، فإذا نطق خرج اللؤلؤ من فيه"، وقال له ابن عمر-رضي الله عنهما-:"وددت أن نافعاً يحفظ حفظك"، وكان عابداً، زاهداً، فقيهاً، ورعاً. وكان يقول:" ما أدري أي النعمتين أعظم، أن هداني للإسلام، أو عافاني من هذه الأهواء" يعني الرفض والإرجاء والتجهم. مات بمكة وهو ساجد. [انظر:تفسير الطبري١/٩١، ومشاهير علماء الأمصار لابن حبان١/١٣٣، مجموع فتاوى ابن تيمية٣/٥٥، وميزان الاعتدال٣/٤٣٩، وسير أعلام النبلاء٤/٤٤٩].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره١٥/٤٤١.

(٢) الجواب الكافي ص١٦٩.

(٣) قال ابن القيم رحمه الله:" أَخَذَهُمْ (يعني الله تعالى) على غرة وهم نائمون، وجاءهم بأسه وهم في سكرتهم يعمهون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، فقلبت تلك اللذة آلاما، فأصبحوا بها يعذبون. ذهبت اللذات وأعقبت الحسرات، وانقضت الشهوات، وأورثت الشقوات، وتمتعوا قليلا، وعذبوا طويلا، رتعوا مرتعا وخيما؛ فأعقبهم عذابا أليما، أسكرتهم خمرة تلك الشهوات، فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين، وأرقدتهم تلك الغفلة، فما استيقظوا منها إلا وهم في منازل الهالكين، فندموا والله أشد الندامة، حين لا ينفع الندم، وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم، فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم. وقد

نجاة لوط-عليه السلام- ومن معه من أهل بيته

نجى لوط-عليه السلام-ولم ينج معه إلا أهل بيته عدا امرأته فإنها كانت من الهالكين، وقد بيّن الله ذلك في آياتٍ من كتابه، قال الله تعالى: ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ الشعراء: ١٧٠ - ٧٢ ، وقال الله تعالى: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ الحجر:٥٩ ــ ٦٠، وقال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ النمل: ٥٧ وقال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ العنكبوت: ٣٣. وآيات أخر تدل على ما ذُكر.

لقد نجا لوطٌ-عليه السلام-وأهل بيته كلهم إلا امرأته، ولكن لم ينج أحدٌ من قومه من غير أهل بيته، وذلك لأنه لم يؤمن به أحدٌ من قومه الذين بُعث إليهم، لقد بذل لوط-عليه السلام-جُهداً عظيماً ولكن لم يتبعه أحد، فلم يوجد من قومه مؤمنين إلا أهل بيته، كما قال الله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الذاريات: ٣٥ ــ ٣٦، قال ابن جرير في معنى الآية: "يقول الله: فما وجدنا في تلك القرية التي أخرجنا منها من كان فيها من المؤمنين غير بيت من المسلمين، وهو بيت لوط"[1]، وقال مجاهد:-في قوله: {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا

قرَّب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل، فقال مخوفا لهم أن يقع الوعيد: {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [هُودٍ :٨٣]. [انظر:الجواب الكافي ص١٧٢].

(١) تفسير الطبري٢٢/٤٣٠.

غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ }- قال: لوطاً وابنتيه"[١] ، وقال قتادة:"لو كان فيها أكثر من ذلك لأنجاهم الله، ليعلموا أن الإيمان عند الله محفوظ لا ضيعة على أهله"[٢].

لقد نجا لوطٌ -عليه السلام- وأهل بيته إلا امرأته هلكت مع الهالكين، لقد نجوا من عذاب شديدٍ متنوع- فالحمد لله رب العالمين-

كيفية نجاة لوط -عليه السلام- وأهل بيته

بيّن الله تعالى في كتابه كيفية إنجائهم، وقد كان ذلك بإخراجهم من تلك القرى التي أراد الله أن يبطش بأهلها، بيّن الله تعالى ذلك في قوله:﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦.

أخرجهم الله من تلك البلدة قبل أن تحل بها المثلات، وبيّن الله تعالى الوقت الذي أمرهم أن يخرجوا فيه، وبيّن للوط -عليه السلام- من الذين يجب أن يخرج بهم معه، إنهم أهل بيته ما عدا امرأته، فقال سبحانه:﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ الحجر: ٦٥، وقال تعالى:﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ هود: ٨١.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه١٦/٥٢٧حديث٣٢٤٩٤،كتاب الفضائل، باب ما ذكر في لوط -عليه السلام- ، وابن أبي حاتم في تفسيره١٠/٣٣١٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره٢٢/٤٣٠

قال ابن مجاهد[١]:"اختلفوا فى نصب التاء ورفعها من قوله (إلا امرأتك) فقرأ ابن كثير وأبو عمرو:(إلا امرأتُك) برفع التاء، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائى:(إلا امرأتَك) نصبا"[٢].

ويختلف المعنى عند البعض بناء على القراءتين، فعلى قراءة النصب فإن لوطاً نهي أن يسري بها، وأمر بتخليفها مع قومها"[٣]، وعلى قراءة الرفع فإن لوطًا قد أخرجها معه، ولكنه نهي هو ومن معه أن يلتفتوا سوى زوجته، وأنها التفتت فهلكت لذلك"[٤] والمهم أن امرأته هلكت سواء كان خرج بها معه فالتفتت، أو أنه لم يخرج بها معه فكانت مع الهالكين، وهذا الذي رجحه ابن كثير' حيث قال:"والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط"[٥]، أما ابن القيم، فيرى أن المرأة لم تخرج معهم على القراءتين: قراءة الرفع، وقراءة النصب، من غير فرق[٦]. وعلى هذا يكون المقصود بالالتفات: التخلف، وهذا مروي عن ابن عباس[٧]، وعلى الأول يكون المقصود

---

(١) ابن مجاهد (٢٤٥ - ٣٢٤ هـ) : أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي، (أبو بكر بن مجاهد)، شيخ المقرئين، وكبير العلماء بالقراءات في عصره، الإمام المحدث النحوي،أخذ حروف القرآن عرضا عن طائفة، وانتهى إليه علم هذا الشأن. وقرأ عليه القرآن خلائق، فاق سائر نظرائه مع اتساع علمه، وبراعة فهمه، وصدق لهجته، وظهور نسكه. وكان حسن الأدب، رقيق الخلق، فطنا جوادا. له كتاب (السبعة) وكتاب (قراءة النبي-ﷺ-) وكتاب (قراءة ابن كثير) و(قراءة أبي عمرو) و(قراءة عاصم) و(قراءة نافع) و(قراءة حمزة) و(قراءة الكسائي) و(قراءة ابن عامر) وكتاب (اليآت) وكتاب (الهاءات). [انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي٣/٥٧، وسير أعلام النبلاء١٥/٢٧٢، والأعلام١/٢٦١].

(٢) السبعة ص ٣٣٨.

(٣) تفسير الطبري١٥/ ٤٢٤

(٤) المرجع السابق.

(٥) تفسير ابن كثير٣/ ٤٤٦.

(٦) انظر: بدائع الفوائد٣/ ٥٧٢.

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره٦/ ٢٠٦٥.

بالالتفات: النظر إلى الوراء، وهذا مروي عن مجاهد[١]، وهذا الأخير هو الذي يدل عليه حديث ابن عباس، وأناس من أصحاب النبي -ﷺ- من حديث طويل؛ مرفوعاً: "فلما أن كان السحر خرج لوط و أهله معه امرأته، فذلك قول الله عز و جل ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ القمر: ٣٤"[٢]. وفي آية القمر هذه بيانٌ للوقت المُجْمَلِ في آية هودٍ في قوله سبحانه: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ هود: ٨١. قال الشنقيطي: لم يبين هنا هل هو من آخر الليل؟ أو وسطه؟ أو أوله؟ ولكنه بين في «القمر» أن ذلك من آخر الليل وقت السحر، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤﴾ القمر: ٣٤"[٣]، خرجوا بالسَحَر فنجوا، وبذلك يتبين "أن الإيمان عند الله محفوظ لا ضيعة على أهله"[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره٦/ ٢٠٦٦.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك٢/ ٦١٣حديث ٤٠٥٩، وقال:" هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه".

(٣) أضواء البيان٢/ ١٩٠.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره٢٢/ ٤٣٠ عن قتادة.

النجاة من عذاب الله الأخروي (وفيه):

- **النجاة من أهوال يوم القيامة (وفيه ما يلي)**
  - النجاة من شر يوم القيامة عموماً.
  - النجاة من سوء الحساب.
  - النجاة من خزي يوم القيامة.
  - النجاة من الفزع الأكبر
- **النجاة من النار(وفيه ما يلي)**
  - ضرورة السعي للنجاة منها.
  - النجاة منها كلية.
  - النجاة منها بعد دخولها.

النجاة من شر يوم القيامة

معنى شر يوم القيامة: "بأسه، وشدته، وعذابه"(١). "وكل ما يشق على النفس وتكرهه فهو شر بالإضافة إليها، وإن كان خيراً في نفس الأمر، مشتملاً على الحكم والفوائد"(٢).

صعوبة شر يوم القيامة، ونعمة النجاة منه:

إنه يوم القيامة! فما شقاء مثل شقائه، وما سعادة مثل سعادته، فسعادته كلها سعادة أبدية لا شقاء بعدها أبداً، وشقاؤه قد يكون أبدياً لا سعادة بعده أبداً.

فيا له من يوم ما أشدّه،"يوم فيه تنقطع الأنساب، وتخضع فيه الرقاب، وتنسكب فيه العبرات، وتتصاعد فيه الزفرات، موقف تنشر فيه الدواوين، وتنصب فيه الموازين، ويمد فيه الصراط، وحينئذ يقع الامتياز فناج مسلم ومكردس(٣) في النار"(٤)

ولبيان شدته فقد وصفه الله، وأكثر من أسمائه، ولَيْسَ الْمَقْصُودُ بِكَثْرَةِ الْأَسَامِي تَكْرِيرَ الْأَسَامِي وَالْأَلْقَابِ، بَلِ الْغَرَضُ تَنْبِيهُ أُولِي الْأَلْبَابِ، فتأمل أسمائه تجد تحتها الدواهي، فمن أسمائه: يوم القيامة، ويوم الحسرة، ويوم الندامة، ويوم الزلزلة، ويوم الصاعقة، ويوم الواقعة، ويوم القارعة، ويوم الغاشية، ويوم الراجفة، ويوم الطامة، ويوم الصاخة(٥).

ولكن الظالمين اليوم غافلون عن ذلك اليوم وما فيه من الأهوال، فهم في ضلالٍ مبينٍ، بخلاف أولي الألباب فإن صورة ذلك اليوم حاضرة في أذهانهم.

---

(١) تفسير القرطبي١٩/١٣٦، وانظر: اللباب٢٠/٢٧.

(٢) غرائب القرآن٦/٤١٤.

(٣) المكردس: من شدت يداه ورجلاه وصرع. مكردس في نار جهنم، أي الموثق الملقى فيها، وهو الذي جمعت يداه ورجلاه وألقي إلى موضع.[انظر:تاج العروس؛ مادة(كردس)].

(٤) انظر: مفتاح الأفكار للشيخ عبد العزيز السلمان ص٣٥٣.

(٥) انظر: إحياء علوم الدين٤/٥١٦.

وقد بيّن الله تعالى أن الكفار اليوم مع أن لهم الويل في ذلك اليوم، فهم سادرون عن مشهده، فقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ مريم: ٣٧ – ٣٨، ما أشدّ إبصارهم حين وقوعه! وما أشدّ سمعهم! لكن بعد أن وقع ذلك اليوم فعلاً. أما المؤمنون فإن صورة ذلك اليوم حاضرة في أذهانهم اليوم، كما بيّن الله ذلك عنهم بقوله: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ ﴾ النور: ٣٧، إنهم هم الرجال فعلاً.

ولوجود صورة ذلك اليوم في أذهانهم فإنهم يسعون للنجاة من شروره، فشَرُّه لا يشبهه شر، استحضروا ما فيه من الأهوال فتهيأوا له بأعمال صالحة خالصة، كما قال الله تعالى في وصفهم: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ الإنسان: ٧ – ١٠.

وفعلاً حصل لهم مقصودهم، كما بيّن ذلك الله بقوله: ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ الإنسان: ١١. لقد وقاهم الله مما كانوا يخافون، فنجوا نجاة لا تشبهها نجاة.

لقد نجوا من شر يوم القيامة؛ فكان عليهم ذلك اليوم المهول يسيراً، بخلاف السادرون في غيّهم فقد أخبر الله تعالى أنه عليهم عسيرٌ، فقال سبحانه: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ الفرقان: ٢٦، وقال سبحانه: ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ المدثر: ٩ – ١٠، ففي الآيتين نصٌ على أنه عسير على الكافرين، ويفهم منهما أنه يسيرٌ على المؤمنين.

النجاة من سوء الحساب:

عندما يعرف الإنسان أنه سيحاسب على شيء من أموره في هذه الحياة، فإنه سيحمل هماً، لأن الإنسان لا يخلو من قصور وتقصير، فكيف إذا أريد محاسبته بدقة ومناقشة، وكان هذا الحساب على كل أجزاء حياته من حين بلوغه- وهو حساب يوم القيامة-

معنى سوء الحساب:"الاستقصاء فيه والمناقشة"[١] فيناقش"على النقير والقطمير، والجليل والحقير"[٢]" ثم لا يصفح لهم عن ذنب"[٣].

صعوبة سوء الحساب يوم القيامة:

لقد أخبر النبي ﷺ عن سوء حال من نوقش الحساب، فقال في حديث عائشة -رضي الله عنها-:"لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ إِلاَّ هَلَكَ". فقالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ حِسَابًا يَسِيرًا؟ قَالَ:"ذَاكِ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ »[٤].

لقد صوّر الله تعالى دقة حساب الآخرة، وأنه يؤتى فيه بمثاقيل الذر، فقال سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الأنبياء: ٤٧، وفي قوله سبحانه: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ الزلزلة: ٧ ــ ٨. فاستحضر المؤمنون هذه الصورة، فخافوا من سوء الحساب، كما وصفهم ربهم، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ الرعد: ٢١، وهؤلاء ينجيهم الله من سوء الحساب، وإنما يكون حسابهم عرضاً يقرَّرون فيه بذنوبهم، ثم

---

(١) تفسير القرطبي٩/٣١٠،

(٢) تفسير ابن كثير٤/٤٤٩.

(٣) انظر: تفسير الطبري١٦/٤٢٠.

(٤) أخرجه البخاري٦/٢٠٨حديث ٤٩٣٩، كتاب بدء الوحي، باب(فسوف يحاسب حساباً يسيراً)، ومسلم٨/١٦٤حديث ٧٤٠٨، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب.

يعفو الله عنهم، كما قال الله تعالى:"﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ ﴾ الانشقاق: ٧ – ٨، قال ابن زيد:"الحساب اليسير: الذي يغفر ذنوبه، ويتقبَّل حسناته، ويسير الحساب: الذي يعفى عنه"(١)، وهذا هو الذي سماه النبي-ﷺ- العرض، وبيّن أن صاحبه ناجٍ، فقال-ﷺ-:"إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ(٢) وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الأَشْهَادُ: هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ"(٣).

فهؤلاء نجو من سوء الحساب، لأنهم كانوا يخافونه في الدنيا، فلم يجمع الله لهم بين خوفين.

بينما نجد أن الذين أمِنوا سوء الحساب في الدنيا، قد بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، من دقة الإحصاء عليهم في صحائف أعمالهم، ومجازاتهم على كل شيء فعلوه، كما قال الله تعالى:﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩ ﴾ الكهف: ٤٩. فصار لهم سوء الحساب، كما قال الله تعالى:﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٤/٣١٤.

(٢) الكنف: الحفظ والستر واللطف؛ يقال:"في حِفظ الله وكَنَفه: أي في حِرزه وظلِّه، وقوله في الحديث:"يضع عليه كنفه"، قيل:"ستره"، وقيل:"بره، ولطفه، ورحمته"[انظر:تهذيب اللغة، مادة(كنف)١٠/١٥٢]

(٣) أخرجه **البخاري**٣/١٦٨ حديث ٢٤٤١، كتاب:المظالم، بَابٌ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:{أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}، من حديث ابن عمر. **ومسلم**٨/١٠٥حديث ٧١٩١، كتاب: التوبة، باب: قَبُولِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ وَإِنْ كَثُرَ قَتْلُهُ، عن ابن عمر بنحوه.

لَافْتَدَوْا بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ الرعد: ١٨، فشقي هؤلاء في هلاكهم، وسعِدَ أولئك بنجاتهم.

النجاة من خزي يوم القيامة

مرّ في الحديث السابق كيف أن الله يستر على المؤمن ذنوبه، ويضع عليه كنفه، فمع تيسير حسابه، لا يُفضَح بعيوبه، بخلاف الكافر والمنافق، فمع تعسير الحساب عليه، يُفْضَح على رؤوس الخلائق كلهم، فالمؤمن سُتِر من أهل الموقف صيانة له من الخزي والتفضيح[(١)].

إن الله تعالى قد بيّن أن الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم خافوا من خزي يوم القيامة، فهو سبحانه ذكر عن خليله-عليه السلام- قوله:﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩، وذكر سبحانه عن أولي الألباب قولهم: ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ آل عمران: ١٩٤، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:"لا تفضحنا يوم القيامة"[(٢)]، وقال الطبري:"(وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ) فتفضحنا بذنوبنا التي سلفت منا، ولكن كفِّرها عنا واغفرها لنا"[(٣)].

فالمؤمنون خافوا من هذا الخزي، وأرادوا النجاة منه، فسعوا إلى تلك النجاة، وسألوها ربهم، فأعطاهم إياها، كما بيّن ذلك الله سبحانه بقوله:﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ

(١) انظر: فيض القدير للمناوي٢/٣٨١.

(٢) أخرجه ابن المنذر في تفسيره٢/٥٣٧حديث١٢٧٣.

(٣) تفسير الطبري٧/٤٨٥.

عَمِلٍ مِّنكُم ﴾ آل عمران:١٩٥، قال ابن عباس-رضي الله عنهما، في معناها-: "أهل لا إله إلا الله، أهل التوحيد، والإخلاص، لا أخزيهم يوم القيامة"(١).

لقد نجوا من خزي ذلك اليوم العظيم، وستر الله عليهم عيوبهم، وغفرها لهم، بخلاف أهل الفجور فقد فضحهم شرّ فضيحة، فهو يوم يعرف فيه المؤمنون فضل الله عليهم بستره عليهم، وذلك حينما يشاهدون الخزي الذي حصل للكافرين، كما قال الله سبحانه: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ النحل: ٢٧، قال ابن كثير: "أي:الفضيحة والعذاب اليوم محيط بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضره ولا ينفعه"(٢).

(١) أخرجه ابن المنذر في تفسيره٢/٥٣٧-حديث١٢٧٣.

(٢) تفسير ابن كثير٤/٥٦٧.

النجاة من الفزع الأكبر

الفزع: هو الذعر[١] والرعب[٢] والخوف الشديد[٣].

الفزع في الدنيا قد يؤدي بالإنسان إلى الموت من انخلاع القلب من الذعر. فإذا كان هذا ما يصنعه فزع الدنيا، والنجاة منه مطلبٌ لكل إنسان، فكيف بفزع الآخرة؟!

إن في الآخرة فزعاً هو الفزع فعلاً، ولا فزع مثله، قال الله تعالى في وصف من سبقت لهم منه الحسنى: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ الأنبياء: ١٠٣، وقد اختلف المفسرون في الحدث الذي يسبب هذا الفزع، فقيل: حين الموت[٤]. وقيل: النفخة الثانية في الصور[٥]. وقيل: حين يؤمر بالعبد إلى النار[٦]. وقيل: حين تطبق النار على أهلها[٧]. وقيل:فزع أهل النار حين يذبح الموت بين الجنة والنار[٨]. واختار بعض محققي المفسرين أن الفزع الأكبر: عام في كل هول يكون في يوم القيامة، فيوم القيامة بجملته هو الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ[٩].

وأياً كان الحدث الذي يكون منه فزع يوم القيامة، فإن المقصود النجاة من الفزع نفسه، فإنه فزعٌ شديد عظيم، يتصوّر عظمه من تدبر قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ

---

(١) انظر: الصحاح، مادة(فزع)، والقاموس المحيط،مادة(فزع).

(٢) انظر: لسان العرب، مادة (رعب)، وتاج العروس، مادة(رعب).

(٣) انظر: تاج العروس، مادة (رعب).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير٥/٣٨١.

(٥) انظر: تفسير الطبري١٨/٥٤٢، ومعالم التنزيل٥/٣٥٧، وتفسير البيضاوي٤/١١٠، وتفسير ابن كثير٥/٣٨١.

(٦) انظر: تفسير الطبري١٨/٥٤٢، ومعالم التنزيل٥/٣٥٧،

(٧) انظر: تفسير الطبري١٨/٥٤١، وتفسير عبد الرزاق٢/٣٩٥.

(٨) انظر: تفسير الطبري١٨/٥٤٢، ومعالم التنزيل٥/٣٥٧.

(٩) المحرر الوجيز٤/١٢٤، وانظر: البحر المحيط٧/٤٧١، والجواهر الحسان٣/٦٧.

مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ [١] وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ الحج: ٢، ويتأمل في السبب الذي لأجله يحدث ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ عبس: ٣٤ – ٣٧.

إنه فزعٌ ما أشده وأكبره، ويكفي للدلالة على شدة فزع يومئذ تصورك له، وتتصور حالة الناس فيه، كما قال الغزالي:"تفكر فيما يحل من الفزع بفؤادك، إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك، واضطراب قلبك، وتزلزل قدمك، وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض، فضلا عن حدة الصراط، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدته، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانية، والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف يتنكسون فتتسفل إلى جهة النار رؤوسهم، وتعلوا أرجلهم؛ فياله من منظر ما أفظعه، ومرتقى ما أصعبه، ومجاز ما أضيقه"[٢].

إن النجاة من ذلك الفزع، مطْلَبٌ من أعظم المطالب، وهي حاصلة بإذن الله لمن سبقت لهم من الله الحسنى، كما مر في الآية السابقة، إن هؤلاء هم الذين جاءوا بـ(لا إله إلا الله)، فهي الحسنة التي ينجو بها العبد من ذلك الفزع، كما في قال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم

---

(١) اختلف المفسرون في تحديد الوقت المراد في قوله تعالى: {يوم ترونها تذهل..}؛ فبعضهم يرى أنها كائنة في الدنيا قبل يوم القيامة؛ فهي من أشراط الساعة، وبعضهم يرى أن ذلك يكون يوم القيامة؛ وهو الذي صوّبه الطبري، وأيده بأحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ.[انظر: تفسير الطبري١٨/٥٥٧، وتفسير القرطبي١٢/٤].

(٢) إحياء علوم الدين٤/٥٢٤.

مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ النمل: ٨٩، والمراد بالحسنة هنا: لا إله إلا الله، والمراد بالسيئة: الشرك. وهذا تفسير كبار الصحابة[١] -ﷺ-، وكبار التابعين[٢]. وليس المعنى أن هناك شيئاً خيرٌ من لا إله إلا الله، وإنما المعنى أن له خيراً بسبب لا إله إلا الله، فيأتيه خيرٌ كثيرٌ منها وبسببها، كما بيّن ذلك عكرمة[٣]، وعلى هذا فقوله(خيرٌ منها) ليس للتفضيل. قال ابن عطية:"ويحتمل أن يكون للتفضيل، ويكون في قوله"منها"حذف مضاف، تقديره: خير من قدرها واستحقاقها، بمعنى أن الله تعالى تفضل عليه فوق ما تستحق حسنته"[٤].

ولقد كان خوف الفزع الأكبر يعمل عمله في قلوب أولي الألباب، فيكون دافعاً لهم إلى ما ينجيهم منه، وكانوا يحثون غيرهم إلى الانتباه له، كان يزيد الرقاشي[٥] يَقُولُ:"يَا مَعْشَرَ النَّاسِ! أَلَا تَبْكُونَ وَتَنُوحُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ بَاقِي حَيَاتِكُمْ ؟ ! مَنِ الْمَوْتُ مَوْعِدُهُ، وَالْقَبْرُ بَيْتُهُ، وَالثَّرَى فِرَاشُهُ، وَالدُّودُ أَنِيسُهُ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يَنْتَظِرُ **الْفَزَعَ الْأَكْبَرَ**!! ثُمَّ يَبْكِي حَتَّى يَسْقُطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ"[٦].

---

(١) انظر: تفسير الطبري١٢/٢٧٦. وتفسير ابن أبي حاتم٥/١٤٣١.

(٢) انظر: المرجعين السابقين.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره١٩/٥٠٩.

(٤) المحرر الوجيز٤/٣٢٤، وانظر: تفسير القرطبي١٣/٢٤٤، والبحر المحيط٨/٢٧٥، وأضواء البيان٦/١٤٦.

(٥) يزيد بن أبان الرقاشي(...-٢١٧هـ). البصري. كان من خيار الله البكائين بالليل، زاهدٌ، له أخبار في المواعظ، والخوف، والبكاء. اشتغل بالعبادة عن صناعة الحديث، فهو رجلٌ صالحٌ، وحديثه ليس بشيء.[انظر:تاريخ دمشق٦٥/٧٢، وصفة الصفوة٣/٢٨٩ والأنساب للسمعاني٣/٨٢، ولسان الميزان٩/٤٩٥].

(٦) أخرجه عنه أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم٣/١٠٧ أثر ٧٣٠.

النجاة من النار(وفيه ما يلي):

- ضرورة السعي للنجاة منها.
- النجاة منها كلية.
- النجاة منها بعد دخولها.

ودونك تفصيل ما ذُكر:

ضرورة السعي للنجاة من النار.

لقد أمر الله عباده المؤمنين بالسعي للنجاة من النار، وأمرهم أن يسعوا لوقاية أهلهم منها، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ ﴾ التحريم:٦، قال ابن عباس في تفسيرها:"اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، ومروا أهليكم بالذكر ينْجيكم الله من النار"(١).

ولم يقتصر الأمر على الأمر بوقاية النفس والأهل منها، بل قد بيّن الله في كتابه من أوصاف النار ما يهيج النفوس لطلب الفرار منها، والعمل على النجاة منها. ومما بيّنه الله في كتابه عنها ما فيها، من السلاسل، والأغلال، ومطارق الحديد، وما بينه من شراب أهلها الحميم، والصديد. ومن أكلهم الزقوم، والغسلين، وغير ذلك من الأوصاف التي ذكرها الله في آياتٍ من كتابه مهيجاً للنفوس لتسعى للفرار منها، وإليك بعضها:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ﴾ الإنسان: ٤.

وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢ ﴾ غافر: ٧٠ – ٧٢.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره٢٣/٤٩١.

وقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ سبأ: ٣٣

ثيابهم مفصله من نار، كما قال الله سبحانه﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾ الحج: ١٩ ـ ٢١.: وقال سبحانه: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ إبراهيم: ٤٩ ـ ٥٠.

طعامهم الزقوم، والغسلين، وشرابهم الصديد، والحميم، كما قال سبحانه: ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾ إبراهيم: ١٥ ـ ١٧، وقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ الواقعة: ٥١ ـ ٥٥، وقال سبحانه: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ الحاقة: ٣٥ ـ ٣٦، وقال سبحانه:﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ الدخان: ٤٣ ـ ٤٦.

لهم فيها الزفير والشهيق، كما قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ هود: ١٠٦.

يزداد عذابها باستمرار، كما قال سبحانه: ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ الإسراء: ٩٧، وقال سبحانه: ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾ النبأ: ٣٠. وغير ذلك من الأوصاف التي تشيب لها الرؤوس، وقد أفاد صديق حسن القنوجي أن ما ورد في ذكر صفة النار وعذابها إنما هو بيان إجمالي، أما تفصيل غمومها، وأحزانها، ومحنها، وحسراتها، فلا نهاية له[1]، ويدل على صحة قوله قول الله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ الزمر: ٤٧، فلم يخطر على بالهم ما أُعد لهم من العذاب والنكال.

إن النجاة من النار مطلبٌ لا يغفل عنه الذين أوتوا العلم والإيمان، إن مجرد صبغة واحدة في النار أو غمسة تنسي الإنسان كل نعيم مرّ به مهما بلغ، كما ثبت ذلك عن النبي-ﷺ- في قوله: « يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ»[2]، وفي لفظ:"فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً، فَيُغْمَسُ فِيهَا، ثُمَّ يُخْرَجُ"[3].

لقد أمر الله الإنسان بأن يسعى للنجاة من عذاب النار كله، **والنجاة من النار المذكورة في القرآن نوعان:**

نجاة منها بالكلية، ونجاة منها بعد دخولها، ويحسن تناول كلّ منهما على حدة:

---

(١) يقضة أولي الاعتبار ص٢١٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٢١٦٢/٤ حديث رقم:٢٨٠٧.

(٣) أخرجه ابن ماجة في سننه١٤٤٥/٢ حديث٤٣٢١، كتاب الزهد، باب صفة النار.

النجاة منها كلية:

ومعنى هذا أن يكون حظه منها مجرد المرور على الصراط من فوقها، فلا يمسه شيء من عذابها.

وقد جاء التعبير القرآني عن هذا المطلب بألفاظ متنوعة؛ فجاء بلفظ الوقاية، في قول الله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ الطور: ٢٦ – ٢٨، وفي قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ آل عمران: ١٩١، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ ﴾ الطور: ١٧ – ١٨.

وجاء بلفظ الصرف، في قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ الفرقان: ٦٥.

وجاء بلفظ التقوى، في قول الله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ البقرة: ٢٤

إن لحظة واحدة في جهنم تحرق الإنسان بلا موت، وتنسيه كل نعيم مرّ به، فكيف بمن النار مهاده، وفراشه، ومنها ثيابه،"إذا أحرقت النار أكبادهم وأجسادهم فزعوا إلى الحميم، كالذي يفزع من النار إلى الماء ليطفئ به الحر فيجده حميماً حاراً في نهاية الحرارة والغليان، ويفزعون من السموم إلى الظل كما يفزع أهل الدنيا فيجدونه ظلا من يحموم، أي من دخان

جهنم أسود شديد السواد، وهو المأخوذ من الحمم وهو الفحم، فهو شديد السواد، والنار سوداء، وأهلها سود، وكل ما فيها أسود[١].

فالنجاة منها كلية مطلبٌ ضروري، ولا يستطيع أحدٌ الصبر على شيء من عذابها، وقد أفاد ابن حزم أن النفس لا تساعد على أن تعد شيئاً من عذاب الله خفيفاً ولو نظرة إلى النار، أعاذنا الله منها، فتأملوا في فعل الصواعق في صم الهضاب وشم الجبال، فإنها تبلغ في التأثير فيها في ساعة ما لا تبلغه نارنا لو أوقدناها هنالك عاماً كاملاً، فكيف بجلود ضعيفة ونفوس ألِمَةٍ[٢]؟ فكيف بنار أشد من نارنا بسبعين ضعفاً؟ عافانا الله وإياكم منها[٣].

(١) انظر: تفسير القرطبي١٧/٢١٣.

(٢) يعني: تُحِسُّ بالألم، وليست كالجبال ليس عندها إحساس بما يؤلم.

(٣) انظر: رسائل ابن حزم٣/١٥٨.

النجاة منها بعد دخولها فترة:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ مريم: ٧١ – ٧٢، يعني جهنم.

اختلف المفسرون في تفسير الورود في حق المؤمنين[١]، واختار كثيرون تفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو أن"ورود المسلمين: المرور على الجسر بين ظهريها، وورود المشركين: أن يدخلوها"[٢]، فقد رجح هذا المعنى الطبري[٣] وابن تيمية[٤] وابن أبي العز[٥].

المراد بالنجاة في الآية:

النجاة في قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ مريم: ٧٢، شاملة لنوعين من النجاة، -والنوع الثاني هو المراد بالدراسة هنا- **وهما:**

- نجاة من لم يدخلها أصلاً، فوروده إياها مجرد مروره على الصراط. وهؤلاء الناجين قد مرّ ذكرهم في ما سبق.
- ونجاة مَنْ وردها من عصاة الموحدين بدخوله إياها، فنجاة هؤلاء تكون نجاتهم بخروجهم منها بعد فترة من الدخول، فنجاتهم إنما هي من العذاب الأبدي.

---

(١) اختلفوا في تفسير الورود في حق المؤمنين على القول بأن الآية تشملهم، على أربعة أقوال: أحدها: أنه الدخول، فيدخلونها، ولكن لا تضرهم، الثاني: المرور على الصراط من فوقها، الثالث: الحضور حولها جاثين على الركب، الرابع: أن ورود المؤمنين ما يصيبهم من الحمى في الدنيا. [انظر: تفسير الطبري١٨/٢٣٠، وزاد المسير٥/٢٥٥].

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره١٨/٢٣٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري١٨/٢٣٤.

(٤) انظر: درء التعارض٣/٣١١.

(٥) انظر: شرح الطحاوية ص ٤١٥.

والنوع الثاني من النجاة داخل في عموم النجاة المذكورة في قول الله سبحانه: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾، كما أفاده الخازن[١]، وقال الآلوسي:"التنجية المذكورة ليست دفعية، بل تحصل أولا فأولا على حسب قوة التقوى وضعفها، حتى يخرج من النار من في قلبه وزن ذرة من خير، وذلك بعد العذاب حسب معصيته"[٢]، وقال القرطبي:"صاحب الكبيرة وإن دخلها فإنه يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو"[٣].

ولا شك أن النجاة من الخلود في النار مطلبٌ يطمع في الحصول عليه من تصوَّر معنى الخلود فيها، فالمهم عليه حين يأتي في ذهنه هذا التصور أن ينجو من البقاء إن لم ينج من دخولها، فإنه لا مقارنة بين الحالين.

إن المتأمل لحال السلف يدرك صحة مقولة: من كان بالله أعرف، كان منه أخوف؛ كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ فاطر: ٢٨، وما ذلك إلا لأنهم عرفوا عظيم حق الله فشعروا بتقصيرهم، وعلِموا استحقاقهم العذاب إن لم يغفر لهم ربهم، كما أرشدهم لذلك النبي -ﷺ- في قوله:"لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ"[٤].

ذكر أهل السير أنه ذُكر عند الحسن البصري -رحمه الله- قصة رجل بقي يحبو على الصراط بعد مرور خمسة وعشرين ألف عام فقال:"يا ليتني أنا ذلك الرجل"[٥]، قال ابن حزم:"تمنى الحسن هذا خوفاً من خاتمة شقاء، وأن يموت على غير الإسلام فيستحق الخلود في

---

(١) انظر: تفسير الخازن٣/١٩٥.

(٢) روح المعاني٨/٤٣٩. وانظر: تفسير ابن كثير٥/٢٥٦.

(٣) تفسير القرطبي١١/١٤١.

(٤) أخرجه البخاري٨/١٢٢حديث٦٤٦٣، كتاب بدء الوحي،باب كَيْفَ كَانَ عَيْشُ النَّبِيِّ -ﷺ- وَأَصْحَابِهِ وَتَخَلِّيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا، من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-.

(٥) انظر: رسائل ابن حزم٣/١٥٨، وتاريخ دمشق٤٨/٣٩٥.

النار في الأبد"[١]. وقد ثبت عن النبي -ﷺ- قوله:"آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً، وَيَكْبُو مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ:تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ، لَقَدْ أَعْطَانِيَ اللَّهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ"[٢].

هذه النجاة التي تحصل للعصاة من أهل لا إله إلا الله في الآخرة، يتمناها المنافقون والكفار، فيضجون ويتضرعون للحصول عليها، كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله عنهم: ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ المؤمنون: ١٠٧، فيجيبهم الله تعالى بما يقطع آمالهم، فيقول: ﴿ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ المؤمنون: ١٠٨، وليت الأمر اقتصر على انقطاع آمالهم بالخروج، بل انقطع أملهم حتى بتخفيف العذاب يوماً واحداً فقط، فقد بيّن الله أن أهل النار يتوسلون بالملائكة ليدعوا لهم بذلك، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ غافر: ٤٩، ولكن الإجابة لا تأتيهم بما يشتهون، بل إن الجواب يزيدهم أسى وحزناً، فقد ذكر الله الجواب الذي يأتيهم من الملائكة في قوله سبحانه: ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٥٠﴾ ﴾ غافر: ٥٠.

الخلود في النار لا يطاق، فهم يتمنون الموت، ولكن هيهات! ما أبعد ذلك عنهم، يتوسلون بمالك-خازن النار- ويأتيهم الجواب بما لا يسرهم، كما ذكر الله ذلك في قوله: ﴿ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ الزخرف: ٧٧.

---

(١) انظر: رسائل ابن حزم٣/١٥٨.

(٢) أخرجه مسلم١/١٧٥ حديث١٨٧، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجاً، من حديث ابن مسعود.

وقد جاء بيان بعض ما في هذه الآيات من الفوائد في حديث أبي الدرداء-ﷺ-، حيث قال:"يُلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الجُوعُ؛ فَيَعْدِلُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ العَذَابِ؛ فَيَسْتَغِيثُونَ؛ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ مِنْ ضَرِيعٍ، لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ، فَيَسْتَغِيثُونَ بِالطَّعَامِ؛ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ ذِي غُصَّةٍ، فَيَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُجِيزُونَ الغَصَصَ فِي الدُّنْيَا بِالشَّرَابِ فَيَسْتَغِيثُونَ بِالشَّرَابِ؛ فَيُرْفَعُ إِلَيْهِمُ الحَمِيمُ بِكَلاَلِيبِ الحَدِيدِ، فَإِذَا دَنَتْ مِنْ وُجُوهِهِمْ شَوَتْ وُجُوهَهُمْ، فَإِذَا دَخَلَتْ بُطُونَهُمْ قَطَّعَتْ مَا فِي بُطُونِهِمْ، فَيَقُولُونَ: ادْعُوا خَزَنَةَ جَهَنَّمَ، فَيَقُولُونَ: أَلَمْ {تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ} قَالَ: فَيَقُولُونَ: ادْعُوا مَالِكًا، فَيَقُولُونَ: {يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} قَالَ: فَيُجِيبُهُمْ {إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ}، قَالَ الأَعْمَشُ: نُبِّئْتُ أَنَّ بَيْنَ دُعَائِهِمْ وَبَيْنَ إِجَابَةِ مَالِكٍ إِيَّاهُمْ أَلْفَ عَامٍ قَالَ، فَيَقُولُونَ: ادْعُوا رَبَّكُمْ فَلاَ أَحَدَ خَيْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ، فَيَقُولُونَ: {رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ} قَالَ: فَيُجِيبُهُمْ {اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ} قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ يَئِسُوا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَأْخُذُونَ فِي الزَّفِيرِ وَالحَسْرَةِ وَالوَيْلِ"[(١)]، وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-:"ثم ينادون ربهم:{رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ}؛ فيدعهم أو يخلي عنهم مثل الدنيا، وفي رواية:"مثلي الدنيا"[(٢)]، ثم يردّ عليهم: (اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ)؛ قال: فما نبس القوم[(٣)] بعد ذلك بكلمة، إن كان إلا الزفير والشهيق في نار جهنم"[(٤)]، فنعوذ بالله من النار.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٧٠٨/٤ حديث٢٥٨٦ مرفوعاً، وضعفه الألباني في تحقيق سنن الترمذي مرفوعاً، وأخرجه الترمذي موقوفاً على أبي الدرداء. وأفاد الترمذي:أن هذا هو المعروف.

(٢) أخرجها الطبري في تفسيره٦٤٥/٢١.

(٣) النبس: التحرك، والمراد به هنا: أقلّ تحرك للشفاه بالكلام، أي: لم تتحرك شفاههم بكلمة واحدة.[انظر: الفائق في غريب الحديث٤٠٣/٣، وتاج العروس؛ مادة(نبس)].

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره٦٤٥/٢١.

المبحث الثاني: النجاة من المخالفات الشرعية

(وأتناول فيه ما يلي):

- **بيان المخالفات الشرعية التي سيتم تناولها.**
- **النجاة من السيئات عموماً.**
- **النجاة من الشرك والردة والملل الفاسدة.**
- **النجاة من الزنا ومقاربته؛** (وفيه ما يلي):
  - النجاة من فعل الزنا.
  - النجاة من كيد النساء في دعوتهن للفاحشة.
  - نجاة المرأة من انتهاك عرضها.
- **النجاة من فعل اللواط.**

بيان المخالفات الشرعية التي سيتم تناولها

من المعلوم أن الأحكام الشرعية أوامر ونواهي، وأن مخالفة الأوامر تكون بتركها، ومخالفة النواهي تكون بفعلها. وأنّ الأوامر قسمان: أوامر إيجاب، فمخالفتها معصية، وأوامر استحباب فمخالفتها لا تسمى معصية. وكذلك النهي قسمان: نهي تحريم، ونهي كراهة، فارتكاب نهي التحريم هو الذي يسمى معصية[1].

والبحث هنا خاص بالمعاصي، ولن يتم تناول كل معصية، بل المعاصي التي جاء في القرآن طلب النجاة منها، سواء كان معصية كفرٍ: كالشرك، أو معصية فسق: كالزنا.

وسيتم-بمشيئة الله- تناول المعاصي الاعتقادية كالشرك، والعملية كالزنا، دون المخالفات الخاصة بالقلب كالزيغ، لأن هذه الأخيرة تدخل في المبحث الثالث من هذه الرسالة.

---

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي٢/٥٠.

النجاة من السيئات عموماً

وردت النجاة من السيئات عموماً في القرآن بلفظ الوقاية، وذلك فيما ذكره الله تعالى من دعاء حملة العرش ومن حولهم للمؤمنين التائبين بأن يقيهم الله السيئات، وذلك في قول الله سبحانه: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ غافر: ٩.

السيئات هي سبب كل مصائب الإنسان، كما بيّن الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ الشورى: ٣٠، قال قتادة:"ذُكر لنا أن نبيّ الله -ﷺ- كان يقول:"لا يُصِيبُ ابْنُ آدَمَ خَدْش عُودٍ، ولا عَثْرَةُ قَدَم، ولا اخْتِلاجُ عِرْقٍ[1] إلا بذَنْب، ومَا يَعْفُو عَنْهُ أَكْثَرُ"[2]. ودخل على عمران بن حصين-ﷺ- بعض أصحابه، وقد كان ابتلى في جسده، فقال له بعضهم: إنا لنبتئس لك لما نرى فيك! قال: فلا تبتئس بما ترى، فإن ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾[3].

وإذا كان الأمر كذلك، فإن النجاة من السيئات أساس للنجاة من كل مصيبة، فمن نجا من فعل السيئات نجا من المصائب قطعاً، لأنه نجا من أسبابها وموجباتها.

ولذا نجد أن حملة العرش ومن حولهم من الملائكة يدعون للمؤمنين بالنجاة من السيئات، ونلاحظ في دعوتهم أنها جاءت بلفظ الوقاية الدال على النجاة من الشيء قبل حصوله- وقد سبق بيان ذلك عند دراسة هذا اللفظ- وذلك في دعائهم للمؤمنين التائبين الذي ذكره الله في قوله: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ

---

(١) الخلج: الجذب والنزع[انظر: النهاية في غريب الأثر؛مادة(خلج)، ولسان العرب؛مادة(خلج)].

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره٢١/٥٣٩.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره١٠/٣٢٧٩. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان١٢/٢٥٣، حديث ٩٣٥٨.

﴿ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾ غافر: ٩، قال ابن كثير:"{ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ } أي: فعلها، أو وبالها ممن وقعت منه"(١)، وقال ابن القيم:"وقاية السيئات نوعان:أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق؛ فلا تصدر منه، والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة؛ فلا يعاقب عليها، فتضمنت الآية سؤال الأمرين"(٢).

والمقصود هنا النوع الأول، وهو وقاية الإنسان من فعل السيئات، الذي هو سبب كل مصيبة. أما الثاني، وهو الوقاية من جزائها؛ فمن أسباب ذلك التوبة والاستغفار؛ وسيتم التعرض لهما في هذه الرسالة؛ بمشيئة الله(٣).

إن الوقاية من السيئات تعني العصمة من فعلها، وهو مطلبٌ عظيم يجب أن يسعى المؤمن لتحقيقه قدر الإمكان. والوقاية من السيئات ممكنة على العموم، دون المفردات، لأن العصمة من الذنوب بالنسبة للإنسان منتفية(٤)، لكن العام إذا خُص بفردٍ أو فردين فإن ذلك لا يخرجه عن عُمُومِه(٥).

إن سعي المؤمن لأن ينجيه الله من الذنوب فلا يفعلها، فيه دلالة على أن المؤمنين هم أولي الألباب فعلاً، وأنه كلما زاد إيمان الإنسان فذلك دالٌ على رجاحة عقله، ذلك أن في الذنوب والمعاصي من البلاء والشر والمصائب ما لا يخطر على بالٍ(٦).

إن مما ينبغي أن يعلم، أن وقاية المؤمن من السيئات عموماً، أو من سيئات بعينها، إنما هو فضل من الله ونعمة، كما بيّن الله ذلك بقوله:﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ

---

(١) تفسير ابن كثير٧/١٣٢.

(٢) الجواب الكافي ص١١٥.

(٣) انظر: التوبة؛ ص٤٢٤، والاستغفار؛ ص٤١٩.

(٤) قال ابن تيمية:"الذي عليه سلف الأمة وأئمتها أن الأنبياء إنما هم معصومون من الإقرار على الذنوب، وأن الله يستدركهم بالتوبة التي يحبها. وأما غيرهم فلا تجب له العصمة، وإنما يدعي العصمة المطلقة لغير الأنبياء: الجهال من الرافضة وغالية النساك"[انظر: مجموع الفتاوى١١/٤١٥].

(٥) انظر: الإحكام في أصول الأحكام للآمدي٢/٢٤٧، وشرح مختصر الروضة للطوفي٢/٥٣١.

(٦) انظر: الجواب الكافي؛ ففيه فصولٌ بيان أكثر من مائة ضرر من أضرار الذنوب.

﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ الحجرات: ٧ ـ ٨، فيجب أن يشكر الله على هذا الفضل، وقد وعد الله الشاكرين بالمزيد.

أما من نسب تركه السيئات إلى حوله وقوته، فذلك مغرور، ولو تأمل كتاب الله لعَرَفَ غروره، فلينظر أولاً إلى دعاء الملائكة للمؤمنين الذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ﴾ غافر: ٩، فإنه سيتبين له أن الله هو الواقي منها، ولينظر ثانياً إلى قول الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ الحجرات: ٧، فيتبيّن له أن الله هو الذي كرّه إليهم المعاصي، وليتأمل ثالثاً: دعاء يوسف-عليه السلام- الذي ذكره الله بقوله: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ يوسف: ٣٣، قال ابن القيم: "علم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن؛ صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه"(١)، وليتأمل ما قاله الله تعالى أيضاً في قصة يوسف: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ يوسف: ٢٤، فالله تعالى هو الصارف.

وهذا الذي دل عليه القرآن هو الذي عليه السلف من الصحابة-رضي الله عنهم-ومن بعدهم، قال مطرِّف بن عبد الله بن الشخير(٢): "نظرت فإذا ابن آدم ملقى بين يدي الله تعالى، وبين يدي إبليس، فإن شاء الله أن يعصمه عصمه، وإن تركه ذهب به إبليس"(٣).

فنعوذ بالله من السيئات، ونسأله سبحانه أن يقينا شرها، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

---

(١) الجواب الكافي ص٢١٠.

(٢) مطرِّف بن عبد الله بن الشخير العامري (...-٨٧) أبو عبد الله. من كبار التابعين، ولد في حياة النبي -ﷺ- ولم يره. من العقلاء، الأدباء، ثقة، فقيه، عابد، زاهد، متقشف، مجاب الدعوة، ملازم للورع الخفي، له كرامات. [انظر: مشاهير علماء الأمصار ص١٤٣، وشذرات الذهب ١/١١٠، والأعلام ٧/٢٥٠].

(٣) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/٦٨٢.

النجاة من الشرك والردة والملل الفاسدة:

دعا إبراهيم -عليه السلام- ربه، فقال -فيما ذكر الله عنه-: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ إبراهيم: ٣٥.

وذكر الله جواب شعيب -عليه السلام- لقومه-حين هددوه ومن معه بالنفي عن البلد، في قوله سبحانه عنه: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ ﴾ الأعراف: ٨٩.

وبهذا يتبين أن هداية الإنسان إلى الإسلام، نعمة عظيمة، بل هي أعظم نعمة على الإطلاق، ولا تعادلها نعمة أصلاً، وهي منّة من الله يمن بها على من يشاء من عباده، كما قال الله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ الحجرات: ١٧، ومن ذاق طعم هذه النعمة حقاً، فإنه يستسهل بذل كل شيء في سبيل بقائها، كما ذكر الله تعالى جواب السحرة لفرعون حينما هددهم فرعون بالقتل والتعذيب، فقال: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾ طه: ٧٢.

ولكن هداية الإنسان إلى الإسلام، ثم ثباته عليه، ليس بيده، بل هو بيد الله. والقرآن ينبه المسلم إلى هذه الحقيقة، ليكون كل اعتماده في ثباته على الحق على الله، ويتضرع إلى الله دائماً أن لا يكله إلى نفسه، فإنه إن وكله إلى نفسه ضل حتماً. وليأخذ الدرس من دعوات أبي الأنبياء إبراهيم -عليه السلام- التي ذكرها الله في قوله: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ إبراهيم: ٣٥، فإذا كان إبراهيم -عليه السلام- وهو خليل الرحمن؛ قد خاف على نفسه الشرك، وسأل الله أن يجنبه إياه، فغيره أولى بهذا الخوف. كان إبراهيم التيميّ[1]، يقول:"من يأمن من البلاء بعد خليل

(١) إبراهيم بن يزيد التيمي(...-٩٢) أبو أسماء. إمام، قدوة، فقيه، محدث، عابد. حكيم؛ يتعجب الناس من قلة أكله. له أقوال مأثورة، ومنها: إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يديك منه، وقوله:

الله إبراهيم، حين يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[١]، وقد أفاد الشيخ عبد الرحمن بن حسن[٢]: أنه إذا كان الخليل، إمام الحنفاء، الذي جعله الله أمة واحدة، وابتلاه بكلمات فأتمهن، وأمر بذبح ولده فامتثل أمر ربه، وكسر الأصنام، واشتد نكيره على أهل الشرك، ومع ذلك يخاف أن يقع في الشرك؛ الذي هو عبادة الأصنام؛ لعلمه أنه لا يصرفه عنه إلا الله بهدايته وتوفيقه، لا بحوله هو وقوته، فغيره من باب أولى[٣]. وقد عقد الشيخ محمد بن عبد الوهاب لهذه الآية باباً في كتاب التوحيد، سماه: باب الخوف من الشرك[٤].

أما الآية الثانية، التي ذكر الله فيها جواب شعيب -عليه السلام- لقومه في قوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ الأعراف:٨٩، أفاد الطبري أن في الآية بيان من شعيب -عليه السلام- لقومه أن الله هو الذي نجاه ومن معه من ملة قومهم، وأنهم مصرين على الثبات، ولن يعودوا إلى ملة قومهم الباطلة إلا إذا شاء الله أن يزيغهم[٥]. وأفاد البيضاوي أن معنى الآية: ما يصح لنا أن نعود فيها، إلا أن يشاء الله خذلاننا وارتدادنا، وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله...

إن الرجل يظلمني فأرحمه.مات شاباً لم يبلغ الأربعين. [أنظر:صفة الصفوة٣/٨٨، وسير أعلام النبلاء٥/٦٠].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره١٧/١٧.

(٢) عبد الرحمن بن حسن(١١٩٣-١٢٨٥هـ) ابن محمد بن عبد الوهاب؛ العالم، المجاهد، المجدد الثاني للدعوة السلفية في نجد بعد أن قضت عليها العساكر العثمانية. حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين، تعلم العقيدة، والتفسير، والحديث، وعلومه؛ على أئمة الدعوة أولاً، ثم على علماء الأزهر في مصر، ثم بذل نفسه للجهاد وتعليم الناس.[انظر: الأعلام، ومشاهير علماء نجد١/٥٦]

(٣) انظر: قرة عيون الموحدين ص٦٣.

(٤) أنظر: كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد ص١٨.

(٥) انظر: تفسير الطبري١٢/٥٦٢، ومعالم التنزيل٣/٢٥٧.

(عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا) في أن يثبتنا على الإيمان، ويخلصنا من الأشرار[١]. فالآية واضحة في بيان أن النجاة من الشرك، والثبات على الحق، إنما يكون بحول الله وقوته، لا بحولهم وقوتهم.

وقد سار النبي -ﷺ- في ذلك على سيرة الأنبياء قبله، فكان يبيّن لأمته أن النجاة من الشرك، والثبات على الدين، لا يكون إلا بحول الله، وأنه لا ينبغي لأحدٍ أن يضمن النجاة لنفسه، فعن أنس بن مالك-رضي الله عنه-، قال:كان-ﷺ- كثيراً ما يقول:"يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك. قلنا: يا رسول الله، قد آمنا بك، وصدّقنا بما جئت به، فيُخاف علينا؟! قال: نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله، يقلبها تبارك وتعالى"[٢]وفي لفظ:"قال نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله، يقلبهما كما يشاء"[٣].

واستفاد أصحاب النبي-ﷺ- من توجيهات القرآن والسنة، قال ابن أَبِي مُلَيْكَةَ[٤]: أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ-ﷺ- كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ"[٥].

ويتلخص مما سبق أن النجاة من الشرك والعقائد الفاسدة، تكون باستشعار احتمال حصول ذلك، فلا أحد قد أُمِّنَ من ذلك الخطر. وهذا إذا تمكّن من القلب دفع الإنسان إلى الاعتماد على الله في ذلك، ودفعه أيضاً إلى الدعاء بأن ينجيه الله من ذلك البلاء.

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي٣/٤١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره٦/٢١٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه٤/٤٤٨حديث ٢١٤٠، قال الألباني: صحيح[مشكاة المصابيح١/٢٢].

(٤) ابن أبي مليكة(...-١١٧هـ) عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة بن عبد الله بن جدعان التيمي-رهط أبي بكر رضي الله عنه-؛ شيخ الحرم، ومؤذنه،.ولد في خلافة علي-رضي الله عنه-، أو قبلها. تابعي. إمام، ثقة، حجة، حافظ، ولي قضاء الطائف لابن الزبير. ولا عقب له. [أنظر: الطبقات الكبرى٥/٤٧٢، وسير أعلام النبلاء٥/٨٨].

(٥) أخرجه أبو بكر الخلال في كتاب السنة٣/٦٠٨.

النجاة من الزنا ومقاربته (وفيه ما يلي)

- النجاة من فعل الزنا.
- النجاة من كيد النساء في دعوتهن للفاحشة.
- نجاة المرأة من انتهاك عرضها.

أولاً: النجاة من فعل الزنا:

ورد طلب النجاة من فعل الزنا في القرآن الكريم، في قصة يوسف -عليه السلام-، حيث ذكر الله تعالى أن نبيه الكريم -صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم-، استعاذ بربه لينجه من تلك الفاحشة؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ يوسف: ٢٣.

وهذه الآية تفيد أن شهوة الفرج من أقوى الشهوات عند الإنسان، أو هي أقواها، ولذا فإن الله -اللطيف بعباده- قد شرع شرائع تساعد الإنسان في الوقاية من شر هذه الشهوة، كأمر المرأة بالحجاب، وتحريم خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية، والأمر بغض البصر، ونحو هذه التشريعات.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل ذكر الرسول-ﷺ- ما فيه حثٌّ للإنسان للمحافظة على عفة فرجه، فقال:"مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ"(١).

وزيادة على ذلك شرع الله حداً في الزنا، بجلد البكر مائة جلدة، سواء كان رجلاً أو امرأة، وبرجم المحصن منهما.

إن النجاة من فعل الزنا مطلبٌ عزيزٌ من مطالب أولي الألباب، وقد ذكر الله تعالى في كتابه قصة يوسف-عليه السلام-، وكيف أن النجاة من فعل الزنا كانت عظيمة عنده، وكيف أنه-عليه السلام- فضَّل السجن على أن يقع في هذا البلاء!.

---

(١) أخرجه الترمذي٤/١٨٥حديث٢٤٠٩، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

لقد بيّن الله تعالى أن امرأة العزيز دعت يوسف-عليه السلام- أن يزني بها، فقال سبحانه: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ يوسف: ٢٣، فقولها:(هَيْتَ لَكَ)؛ "يعني هلم لك نفسي، تريد الجماع"(١) لقد هيأت المرأة له كل الظروف، فقد دعته هي بنفسها، وبالتالي فإن سريّة الموضوع مضمونة، وأحكمت إغلاق الأبواب، وعملت كل وسائل الإغراء، ولكن يوسف-عليه السلام- برغم أنه كان يعيش حالة غربة، والغربة كربة، يتضاعف فيها حاجة الإنسان إلى ما يؤنسه، ورغم تعرضه قبل ذلك لأزمات متعددة، وأي إنسان يمر ببعض ما مرّ به يوسف -عليه السلام- يبحث عن محطة يرتاح بها من ذلك العناء، إلا أن يوسف -عليه السلام- لم يصبه الضعف، بل التجأ إلى الله، مستعيذاً به، فقال:(مَعَاذَ ٱللَّهِ)، راجياً ربه أن ينجيه من هذه الفتنة التي تسعى إليه هي، ولم يسع هو إليها. فالأمر فيه زنا، والزنا ظلمٌ، ولذا علَّل يوسف -عليه السلام- امتناعه عن الزنا بأمرين، بإحسان زوج المرأة إليه، ولا يليق بالرجال مجازاة الإحسان بالإساءة، فقال: ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾، وبقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، وهم الزناة، فقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ يعني:"لا ينجو الزناة من عذاب الله تعالى"(٢).

ولم تنته محنة يوسف-عليه السلام-عند هذا الحد، بل سعت إليه الفتنة بيديها ورجليها، فواصلت امرأة العزيز سعيها الحثيث، لتوقع يوسف في الزنا، ولكنه -عليه السلام-كان يستعصم في كل مرة، ويرفض بكل قوة وعزيمة.

وكان مما كان أن جمعت امرأة العزيز النساء اللاتي كنّ يَلُمْنها على شغفها بيوسف -عليه السلام- ثم أكدت لهن تهديدها له بالسجن، كما ذكر الله ذلك بقوله عنها: ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ يوسف: ٣٢، إنها متاعب متتالية، فالمرأة أكدت تهديدها له بالسجن،

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان٢/١٤٥.

(٢) بحر العلوم٢/١٨٧.

والسجن بلاء، بالإضافة إلى ما كان يعيشه من غربة، وما مرّ به من ظُلمٍ، وبيعه عبداً مع أنه حرٌ في الحقيقة.

ولكن يوسف-عليه السلام- واصل الاستعصام بربه، ودعا ربه دعاء مضطرٍ يطلب النجاة من فعلة لا تليق بأهل الشهامة والكرم، فقال ما ذكر الله عنه بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ يوسف:٣٣، قال السدي:"يقول: الحبس أحب إلي مما يدعونني إليه من الزنا"(١).

والرب سبحانه، كريم رحمن رحيم، استجاب دعاء يوسف -عليه السلام- فنجاه مما خافه، كما ذكر سبحانه ذلك بقوله: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ يوسف: ٣٤، قال ابن إسحاق: أي:"نجاه من أن يركب المعصية فيهن"(٢)، وقال ابن كثير:"عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع"(٣).

وبهذا يتبيّن أن النجاة من فعل الزنا، نجاة يسعى إليها الكرماء، وذلك لأن الزنا لا يليق بمن فيه نخوة وشهامة. إن الزنا يقضي على طموح الإنسان، فيكون غاية المبتلى به أن يشبع شهوته، وبسبب ذلك فهو لا يهتم بمعالي الأمور، قال ابن القيم:"نجاسة الزنا واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات، من جهة أنها تفسد القلب، وتضعف توحيده جداً، ولهذا كان أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركاً، فكلما كان الشرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر، وكلما كان أعظم إخلاصا كان منها أبعد، كما قال تعالى عن يوسف الصديق -عليه السلام-: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ يوسف: ٢٤(٤)، وقال رحمه الله:"ليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين(٥)،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٧/٢١٣٨.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره١٦/٩٠، وابن أبي حاتم في تفسيره٧/٢١٣٩.

(٣) تفسير ابن كثير٤/٣٨٦.

(٤) إغاثة اللهفان١/٦٤.

(٥) يعني الزنا واللواط.

ولهما خاصية في تبعيد القلب من الله، فإنهما من أعظم الخبائث، فإذا انصبغ القلب بهما، بَعُدَ ممن هو طيب لا يصعد إليه إلا طيب، وكلما ازداد خبثاً ازداد من الله بعدا"[1].

ثانياً: النجاة من كيد النساء في دعوتهن للفاحشة:

قال الله تعالى في قصة يوسف-عليه السلام-: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ يوسف: ٣٣؛ فدعا يوسف -عليه السلام- ربه أن يصرِف عنه كيدهن الذي كن يكدنه له ليوقعنه في الفاحشة. وهذا أمرٌ آخر غير الفاحشة نفسها، إنه دعا ربه أن ينجيه من الكيد والتخطيط الذي عمله أولئك النسوة لذلك الغرض.

صعوبة النجاة من كيد النساء في ذلك:

إذا كانت نجاة الرجل من الزنا صعبة بسبب ما عنده من غريزة شهوة الفرج التي خلقها الله فيه، فإن الأمر يزداد صعوبة إذا كانت المرأة هي التي تدعوه ليفجر بها.

وإذا ابتلي أحدٌ بهذا فإن جهده في طلب النجاة يجب أن يتضاعف، وقد ذكر رسول الله- ﷺ- ما يرغب كل من ابتلي بشيء من ذلك في مضاعفة الجهد في طلب النجاة، حيث بيّن رسول الله -ﷺ- أنه في بعض الحالات يكون من السبعة الذين يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله، ففي حديث أبي هريرة[2] -رضي الله عنه-، عن النبي-ﷺ- قال: « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ ربه، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ

---

(١) إغاثة اللهفان ١/٦٥.

(٢) أبو هريرة (٢١ قبل الهجرة- ٥٩ هـ): عبد الرحمن(على أرجح ما قيل) بن صخر الدوسي، لقبه النبي-ﷺ-بأبي هريرة؛ لهرة كان يحملها: صحابي، كان كثير العبادة، والذكر، حسن الأخلاق. وهو أكثر الصحابة حفظا للحديث، ورواية له. وكان يفتي. قدم المدينة ورسول الله-ﷺ-بخيبر، فأسلم سنة ٧ هـ، ولزم صحبة النبي-ﷺ-. وولي إمرة المدينة مدة. ولاه عمر-رضي الله عنه- على البحرين فرآه لين العريكة، مشغولاً بالعبادة، فعزله. وأراده بعد زمن على العمل فأبى. وكان أكثر مقامه في المدينة، وتوفي فيها، وكان قد دعا:"اللهم لا تدركني سنة ستين"، فمات قبلها. [انظر:مشاهير علماء الأمصار ١/٣٥،وشذرات الذهب ١/٦٣، والأعلام ٣/٣٠٨].

تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[1].

ولما كانت النجاة من الزنا حين تكون النساء هي التي تكيد للرجل ليقع فيه أعظم، كانت النجاة من كيد النساء أصلاً، بحيث لا يكدن للرجل في ذلك، مطلبٌ لأولي الألباب، وهذا واضح من قصة يوسف-عليه السلام- حيث دعا ربه عز وجل أن يصرف عنه كيد النساء اللائي كن يكدن ليوقعنه بالزنا فيهن، فقد ذكر الله تعالى ذلك في قوله سبحانه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ يوسف:٣٣"هذا فزع منه إلى ألطاف الله، جرياً على سنن الأنبياء والصالحين في قصر نيل الخيرات والنجاة من الشرور على جناب الله، وسلب القوى والقدر عن أنفسهم، ومبالغة في استدعاء لطفه في صرف كيدهن، بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة"[2] فيوسف-عليه السلام- دعا ربه بهذه الدعوة النابعة من أعماق قلبه، لأنه يدرك ضعف الإنسان، فعلى المسلم أن يأخذ من هذا درساً فلا يثق بنفسه أبداً، فأي إنسان عرضة للسقوط. وهل يأمن عاقلٌ البلاء بعد معرفته بخوف يوسف -عليه السلام-، قال الخازن:"في الآية دليل على أن يوسف -عليه الصلاة والسلام- لما أظلته البلية بكيد النساء ومطالبتهن إياه بما لا يليق بحاله، لجأ إلى الله، وفزع إلى الدعاء، رغبة إلى الله ليكشف عنه ما نزل به من ذلك الأمر، مع الاعتراف بأنه إن لم يعصمه من المعصية وقع فيها، فدل ذلك على أنه لا يقدر أحد عن الانصراف عن المعصية إلا بعصمة الله ولطفه به"[3].

وفعلاً فعل الرب سبحانه وبحمده، استجاب دعوة عبده يوسف-عليه السلام-، فصرف عنه كيد تلك النسوة، كما ذكر الله ذلك بقوله: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ يوسف: ٣٤، قال ابن القيم: وصرف كيدهن هو صرف دواعي قلوبهن، ومكرهن

(١) أخرجه البخاري ١/١٦٨ حديث ٦٦٠.

(٢). روح البيان ٤/٢٥٠

(٣) تفسير الخازن ٢/٥٢٧.

بألسنتهن، وأعمالهن، وهو سبحانه الصارف لها، فالصرف فعله، والانصراف فعل النسوة[١]، وقال سيد قطب:"هذا الصرف قد يكون بإدخال اليأس في نفوسهن من استجابته لهن، بعد هذه التجربة أو بزيادة انصرافه عن الإغراء حتى لا يحس في نفسه أثرا منه. أو بهما جميعا"[٢].

وهذا الصرف من الله لكيدهن هو"ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة والمحنة الشديدة"[٣]، وقال سيد قطب: وهكذا اجتاز يوسف محنته الثانية، بلطف الله ورعايته. وانتهت بهذه النجاة حلقة من قصته المثيرة[٤].

وبهذا يعلم المؤمن أن النجاة من فتنة النساء، مطلبٌ عظيم، فليكثر من سؤال الله إياه، وخصوصاً عندما يتعرض لنوعٍ من الإغراء والفتنة، ولا يعرِّض نفسه لشيء من الفتن ثقة بنفسه وعفته، فمن يأمن البلاء بعد ما خافه يوسف-عليه السلام-.

---

(١) انظر: شفاء العليل ص٥٩.

(٢) في ظلال القرآن٤/١٩٨٥.

(٣) تفسير السعدي ص٣٩٧.

(٤) انظر: في ظلال القرآن٤/١٩٨٥.

ثالثاً- نجاة المرأة من انتهاك عرضها

قال الله تعالى في قصة مريم:﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ مريم:١٨.

لجأت مريم إلى ربها مستعيذة به لينجيها ممن ظنته يريدها عن نفسها[١]، قال ابن كثير:"لما تبدى لها الملك في صورة بشر، وهو وهي في مكان منفرد، وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريدها على نفسه"[٢]، ولما كان في ظنها"أنه بشر اختبأ لها ليراودها عن نفسها، بادرته بالتعوذ منه قبل أن يكلمها، مبادرة بالإنكار على ما توهمته من قصده الذي هو المتبادر من أمثاله في مثل تلك الحالة"[٣].

نجد أن مريم هنا جمعت بين أمرين، الأمر الأول قولها:﴿ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ ﴾، والأمر الثاني قولها:﴿ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾، قال السعدي:"جمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخويفه وترهيبه وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء، أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبلغ ما يكون من العفة والبعد عن الشر وأسبابه"[٤]، وقال ابن عجيبة:"يمكن أن يكون ظهر على ذلك الحُسن الفائق، والجمال اللائق ؛ لابتلائها، واختبار عِفّتها، ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه"[٥].

قال سيد قطب:"هي ذي تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل في خلوتها، فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد وتستثير مشاعر التقوى في نفس الرجل، والخوف من الله والتحرج من رقابته في هذا المكان الخالي: «قالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا» فالتقي ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن، ويرجع عن دفعة الشهوة ونزغ الشيطان. وهنا يتمثل الخيال تلك العذراء الطيبة البريئة ذات التربية الصالحة، التي نشأت في وسط صالح... وليتمثل الخيال مقدار

---

(١) انظر: تفسير الطبري١٨/١٦٣.

(٢) تفسير ابن كثير٥/٢٢٠.

(٣) التحرير والتنوير١٦/٢١.

(٤) تفسير السعدي ص ٤٩١.

(٥) البحر المديد٤/٣١٠.

الفزع والخجل، وصارحها هذا الرجل - الذي لم تثق بعد بأنه رسول ربها- بما يخدش سمع الفتاة الخجول وهو أنه يريد أن يهب لها غلاما -والشك ما زال يراودها فقد تكون هذه حيلة فاتك يستغل طيبتها - وهما في خلوة - ثم تدركها شجاعة الأنثى المهددة في عرضها! فتسأل في صراحة: كيف؟ «قالت: أنى يكون لي غلام، ولم يمسسني بشر، ولم أك بغيا؟».. هكذا في صراحة، وبالألفاظ المكشوفة، فالحياء هنا لا يجدي، والصراحة أولى..كيف يهبها غلاماً،وهي عذراء لم يمسسها بشر، وما هي بغي، فتقبل الفعلة التي تجيء منها بغلام؟! كيف؟ ويبدو من سؤالها أنها لم تكن تتصور حتى اللحظة وسيلة أخرى لأن يهبها غلاما إلا الوسيلة المعهودة بين الذكر والأنثى، وهذا هو الطبيعي بحكم التصور البشري!"[(١)].

إنها شريفة عفيفة تخاف أن يُنْتَهك عرضها، إنه امرأة صالحة أعز شيء إليها طهرها وعفافها، فظنت برجل ظن سوء فلجأت إلى ربها، مستعيذة لائذة به لينجيها من هذا الذي فجأها في خلوتها.

إن شرف المرأة في عفتها، وفيه كرمها وطهرها، وحرصها عليه دليل على أنها حرة، كما قالت هند بنت عتبة:"**أَوَ تَزني الْحرَّة**"[(٢)]، حرص المرأة على عفتها دليل على كمال أنوثتها، فالمرأة التي تقبل أن تكون سلعة يُسْتَمْتَع بها، قد خرقت أنوثتها بفعلها هذا خرقاً يصعب رقعه. ولذا فإن سعي الحرائر من النساء لنجاة وسلامة أعراضهن، يفوق سعيهن لسلامة حياتهن. وهذا ما بدا واضحاً فيما ذكره الله تعالى في كتابه من قصة العذراء مريم.

النجاة من فعل اللواط

قال الله تعالى عن نبيه لوطٍ-عليه السلام-:﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ الشعراء: ١٦٩ – ١٧١.

---

(١) في ظلال القرآن٤/٢٣٠٦.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٨/١٩٤حديث٤٧٥٤، من حديث عائشة -رضي الله عنها-. وأفاد ابن الملقن أن الحديث مشهور، لكنه قال:"في إسْنَاده نسْوَة لَا يعرفن".[انظر:خلاصة البدر المنير٢/٣٠٠].

اختلف المفسرون في النجاة التي أرادها لوط -عليه السلام- بهذه الدعوة، فبعض المفسرين يرى أن لوطاً -عليه السلام- أراد بدعوته هذه، النجاة من عقوبة فعلة قومة، لا النجاة من فعلتهم نفسها[١]، لأنه معصوم منها[٢].

وبعض المفسرين يرى أن النجاة من نفس الفعلة مرادة له في دعوته هذه[٣]، أو أنها شاملة له، أو محتملة له على الأقل [٤].

لكن قد يُعتَرض على تفسيره بالمعنى الثاني، بأننا نجد أن لوطاً -عليه السلام- طلب نجاة أهله، وهم بناته وامرأته، والمرأة لا يتأتى منها اللواط، فكيف يدعو بعصمتهن منه؟

وقد أجاب الزمخشري عن هذا الاعتراض بقوله:"الراضي بالمعصية في حكم العاصي"[٥]، وبهذا الجواب يظهر وجه طلب لوطٍ -عليه السلام- لأهله أن ينجيهم الله من تلك المعصية، فإنهن لو حَصَلَ منهن الرضا أو الاستحسان لتلك المعصية، لَصِرْن بحكم مَنْ فعلها.

إن خوف لوطٍ -عليه السلام- من أن يتلبس هو أو أحدٍ من أهله بتلك المعصية القبيحة، ليس بأعجب من خوف إبراهيم-عليه السلام-من أن يقع في الشرك هو أو أحدٍ من أبنائه-وهم أنبياء- فالظاهر أن طلب لوطٍ -عليه السلام- من ربه، أن ينجيه من عمل قومه، مراداً به العمل، أو أنه شامل للعمل. والذين رجحوا إرادته النجاة من عقوبة عملهم، لا النجاة من عملهم، سَلَموا للمعترضين بهذا الاعتراض، ومن هؤلاء الآلوسي، حيث نقل هذا الاعتراض، ثم سلَّم بوجاهته،

---

(١) انظر: تفسير الطبري١٩/٣٨٩، وتفسير القرطبي١٣/١٣٢، وتفسير البيضاوي٤/٢٥١، والتحرير والتنوير١٩/١٨٧.

(٢) انظر: روح المعاني١٠/١١٥.

(٣) انظر: بحر العلوم٢/٥٦٥،وتفسير السمعاني٤/٦٣، ومعالم التنزيل٦/١٢٦، وتفسير الخازن٣/٣٣١.

(٤) انظر: الكشاف٣/٣٣١، والبحر المحيط٨/١٨٤، روح المعاني١٠/١١٥،وفتح القدير٤/١٦٤، وتفسير السعدي،ص٥٩٦

(٥) الكشاف٣/٣٣١.

فقال:"قيل: قد يدعو المعصوم بالحفظ عن الوقوع فيما عصم عنه؛ كما يدل عليه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم-عليه السلام-: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ إبراهيم: ٣٥، وهو مُسَلَّم"[١].

وليس دعاء لوطٍ -عليه السلام- بالنجاة من هذه الفعلة بأعجب من دعاء النبي -ﷺ-، -وهو أفضل الأنبياء- ربه، أن ينجيه من الزيغ، فعَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- أَنَّ النَّبِيَّ-ﷺ- كَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُكْثِرُ أَنْ تَدْعُو بِهَذَا، فَهَلْ تَخْشَى؟ قَالَ: وَمَا يُؤْمِنُنِي، وَقُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلَّبَهُ"[٢].

ومن اهتدى بهدي الأنبياء في هذا خاف أن يبتلى بأي ذنب، مهما كان بغضه ومقته له، فإن لوطاً -عليه السلام- كان قد نصّ على شدة بغضه لذلك العمل بقوله ما ذكره الله عنه: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ﴾ الشعراء: ١٦٨، أي المبغضين[٣]، ثم قال بعدها مباشرة: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ الشعراء: ١٦٩، والله تعالى لا يخيب من رجاه ودعاه، فقد حصل للوطٍ -عليه السلام- ما أراد، قال الله تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾ الشعراء: ١٧٠.

إن النجاة من هذا العمل الخبيث نعمة عظيمة، خصوصاً لمن يعيش في بيئة ينتشر فيها ذلك، فإنه سيوجد من يروِّج له، ويحسِّنه، ويدافع عنه، بالإضافة إلى دعوة الشيطان إليه، لما فيه من انتكاس الفطرة. كما سبق بيان ذلك في المبحث قبله[٤].

---

(١) روح المعاني ١٠/١١٥.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أبو يعلى في مسنده ٨/١٢٨ حديث٤٦٦٩.

(٣) انظر: غريب القرآن لابن قتيبة ص٣٢٠، ومعاني القرآن للنحاس٥/٩٩، وبحر العلوم٢/٥٦٥، ومعالم التنزيل٦/١٢٦.

(٤) انظر: هذه الرسالة ص١٩٩.

المبحث الثالث: النجاة من الأعراض القلبية

(وأتناول فيه ما يلي)

- تحديد المقصود بالأعراض القلبية.
- النجاة من الجهل العلمي والعملي.
- النجاة من زيغ القلب بعد هداه.
- النجاة من الكبر المانع من قبول الحق.
- النجاة من الغم.
- النجاة من الغل على المؤمنين.

تحديد المقصود بالأعراض القلبية:

قد يظن ظانٌ أن قولنا: الأعراض القلبية، مرادفة لقولنا: الأمراض القلبية، وهذا الظن خاطئ، لأن الأعراض أشمل من الأمراض، فالأعراض تتناول ما ليس بمرض، كالحزن، والهم، والغم، فإن هذه الأشياء وأمثالها، من الأعراض التي تحدث للقلب، ولكنها ليست أمراضاً.

ثم إن المراد بالقلب هنا، ليس القلب الحسي الذي يقوم بضخ الدم إلى سائر الجسم، وإنما المقصود القلب المعنوي الذي فيه الحب، والبغض، وفيه تصور الأشياء، والحُكم عليها بالصحة والخطأ، أو القبول والرفض. هذا القلب الذي هو محطُ نظر رب العالمين، كما ثبت ذلك عن النبي-ﷺ- في قوله:"إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ، وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ"(١)

وبهذا التقديم يتبين ما سيتم تناوله-بمشيئة الله- في هذا المبحث.

(١) أخرجه مسلم٤/١٩٨٦ حديث:٢٥٦٤، من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-. كتاب البر والصلة والآداب،باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

النجاة من الجهل العلمي والعملي.

وردت آياتٌ في القرآن الكريم تتحدث عن النجاة من الجهل العلمي، والعملي، ومن ذلك ما يلي:

قال الله سبحانه:﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ الأنعام: ٣٥.

وقال الله لنوح-عليه السلام-:﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ هود: ٤٦

وقال الله تعالى عن موسى-عليه السلام-:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ البقرة: ٦٧.

وقال سبحانه عن يوسف-عليه السلام-:﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ يوسف: ٣٣.

معنى الجهل:

الجهل نوعان: جهل علمي، وجهل عملي. ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الجهل عدم العلم، أو عدم اتباع العلم. فمن لم يعلم الحق، فهو جاهل، ومن قال خلاف الحق عالما بالحق، أو غير عالم، فهو جاهل أيضا[1]. وهذا واضح لمن تأمل الآيات السابقة.

فالجهل العلمي: هو الذي **يكون بعدم العلم**، وهو مذكور في قول الله تعالى لنبيه محمد -ﷺ-:﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ الأنعام: ٣٥، قال ابن جرير:"فلا تكونن **ممن لا يعلم** أن الله لو شاء لجمع على الهدى جميع خلقه بلطفه"[2].

---

(١) انظر:اقتضاء الصراط المستقيم١/٢٥٦.

(٢) تفسير الطبري١١/٣٤٠.

والجهل العملي: هو الذي **يكون بالعمل بخلاف مقتضى العلم**، وهو مذكور في دعاء موسى-عليه السلام- الذي ذكره الله تعالى في قوله عنه: ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ البقرة: ٦٧، فإنه هنا جعل فعل الهزو جهلا، وذلك لأن فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، جهلٌ، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحا أو فاسدا[١]، فهذا الجهل هو المراد هنا[٢]، وهو المراد أيضاً بدعاء يوسف-عليه السلام- الذي ذكره الله عنه بقوله: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ يوسف: ٣٣، أوضح الرازي أن الجهل هنا، هو الجهل الذي يُقْدِمُ فيه الإنسان على ما لا ينبغي، مع علمه بأنه مما لا ينبغي، فصح إطلاق اسم الجهل عليه، لأنه جاهل بفعله[٣].

النجاة من الجهل:

الجهلُ آفةٌ يبتلي الله بها من شاء من خلقه، وقد عَرَفَ أصفياءُ خلق الله- وهم الأنبياء عليهم السلام- قبح هذه الصفة، فكان يكفي للزجر عن تصرف معين؛ أن يعلمهم الله أن هذا فعل الجاهلين، أو صفتهم؛ فيبادرون إلى ما عساه ينجيهم منه، ويسارعون إلى ما يخلصهم منه، من دعاء أو غيره. فاستعمال هذا الوصف يدل على التغليظ في الزجر، وهذا ما ذكره بعض المفسرين عند تفسيرهم قول الله تعالى لرسوله-ﷺ-: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الأنعام: ٣٥، قال القمي:"هذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثل هذه الحالة، ولكنه يفيد التغليظ، وتأكيد الامتناع"[٤].

---

(١) انظر: المفردات ص ٢٠٩.

(٢) انظر: روح المعاني ١/٢٨٦.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب ١٠/٥.

(٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣/٧٢. وانظر: الوجيز للواحدي ص ٣٥١.

إن مبادرة الأنبياء -عليهم السلام- ومسارعتهم إلى النجاة من مقتضى هذا الوصف، ظاهرة جداً في ما قصَّه الله عن نوح-عليه السلام-، فإنه حين ظنّ أن ابنه من أهله الذين وُعد بنجاتهم، عاتبه الله بما بيّنه في قوله: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ هود: ٤٦،"أي أحذِّرك أن تكون من الجاهلين"[1]، وبمجرد سماع نوحٍ-عليه السلام- هذا الوصف بادر إلى التخلي عنه، والالتجاء والاعتصام بالله من موجب ذلك، فقال ما ذكره الله بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ هود:٤٧، أي:"ألتجئ إليك، وأحتمي بك،من أن أسألك بعد الآن شيئا لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة"[2] لأن ذلك يدنيه إلى صفة الجاهلين.

وقد ذكر القرآن الكريم أيضاً أن موسى-عليه السلام-، قد بلغ من شدة نفوره من هذا الوصف، أن التجاء إلى الله، واحتمى به، واعتصم به، من ذلك، وذلك حينما وصفه قومه بما يقتضي الجهل، في القصة التي ذكرها الله بقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ ﴾ البقرة:٦٧، قال الطبري:"ظنوا بموسى-عليه السلام- أنه في أمره إياهم -عن أمر الله -تعالى ذكره- بذبح البقرة عند تدارئهم في القتيل إليه - أنه هازئ لاعب، ولم يكن لهم أن يظنوا ذلك بنبي الله، وهو يخبرهم أن الله هو الذي أمرهم بذبح البقرة"[3]، وإخبار أحدٍ عن الله ما لم يُخبر به إنما يصدر عن الجهال، لا عن الأنبياء الكرام. ولما سمع موسى-عليه السلام- ما يقتضي وصفه بالجهل بادر إلى الالتجاء بالله، والاعتصام به من ذلك؛ فقال ما ذكره الله عنه

---

(١) فتح القدير٢/٧٢٦

(٢) تفسير المراغي١٢/٤١.

(٣) تفسير الطبري٢/١٨٢.

بقوله: ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ البقرة: ٦٧، أي: "أعتصم وأمتنع بالله (أن أكون من الجاهلين)[١].

فالنجاة من الجهل العلمي، والعملي؛ كانت مطلباً عزيزاً يطلبون حصوله من ربهم، وقد حصل لهم ما أرادوا بفضل الله ونعمته عليهم، وكلما كان الإنسان أقرب إلى هدي الأنبياء -عليهم السلام- كان أبعد عن صفة الجهل، فالأمر كما قال النبي-ﷺ-: "إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِرْهَمًا وَلَا دِيْنَارًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ"[٢].

(١) تفسير السمعاني ١/٩١

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٣/٣٥٤ حديث ٣٦٤٣ من حديث أبي الدرداء-رضي الله عنه- قال ابن حجر: حسنه حمزة الكتاني، وضَعْفُه باضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها. [انظر: فتح الباري ١/١٦٠].

النجاة من زيغ القلب بعد هداه:

ذكر الله تعالى دعوات الراسخين في العلم، فكان منها قولهم: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ آل عمران: ٨.

معنى الزيغ:

الزيغ لغة: المَيل، ومنه: زاغت الشمس: إذا مالت، وزاغَتِ الأبْصَارُ: إذا مالَتْ عن مَكانِهَا من الخوف[١]، إلا أن الفرق بين الزيغ والميل، أن الزيغ:اسم لميل مكروه- لا يكون إلا الميل عن الحق- أما الميل فعام في المحبوب والمكروه[٢]."فالزيغ: الميل عن الاستقامة، والانحراف عن جهة الصواب"[٣]،"وإزاغة القلب: إمالته عن الهدى، وزيغه: ميله عن الهدى إلى الضلال"[٤].

أهمية النجاة من الزيغ:

"كم من عالم يزل، ومهتد يضل"[٥]،"كم من عالم وقعت له شبهة ضعيفة في خاطره، فزاغ وذل وانحرف عن الدين القويم والمنهج المستقيم"[٦]، وهذا الذي قطع ظهور العارفين، فخشعت قلوبهم، ودعوا ربهم خاضعين، بالدعوة التي ذكرها الله عنهم بقوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ آل عمران: ٨،

"مدح الله جل ثناؤه هؤلاء القوم بما مدحهم به، من رغبتهم إليه في أن لا يزيغ قلوبهم، وأن يعطيهم رحمةً منه معونة لهم للثبات على ما هُم عليه من حسن البصيرة بالحق الذي هم عليه

---

(١) لسان العرب، مادة(زيغ).

(٢) انظر: الفروق اللغوية لأبي هلالٍ العسكري ص ٢٦٩.

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف١/٣٩١.

(٤) شفاء العليل ص١٠٠.

(٥) غرائب القرآن١/١١٠.

(٦) مفاتيح الغيب١/٢٠٧.

مقيمون"[١]، فهم قد اهتدوا، وأضافوا نعمة الهداية إلى مسديها، وهو الله تعالى، ولكنهم لما ذاقوا طعم الهداية خافوا من فقدانها، فهم"لرسوخهم في العلم يعرفون ضعف البشر، وكونهم عرضة للتقلب والنسيان والذهول، ويعرفون أن قدرة الله فوق كل شيء، وعلمه لا يحاط به، وهو المحيط بكل شيء، فيخافون أن يُسْتَزَلُّوا فيقعوا في الخطأ، والخطأ في هذا المقام قرين الخطر، وليس للإنسان بعد بذل جهده في إحكام العلم في مسائل الاعتقاد، وإحكام العمل بحسن الاهتداء؛ إلا اللجوء إلى الله -تعالى- بأن يحفظه من الزيغ العارض، ويهبه الثبات على معرفة الحقيقة، والاستقامة على الطريقة، فالرحمة في هذا المقام هي الثبات والاستقامة"[٢].

فالخطر قائمٌ، وهو جسيم، إن التقلبات محتملة، والدائمُ شديدٌ؛ فالراسخون يمثُلُ دائماً أمام أعينهم: عسر الثبات، وخطر الزيغ قبل الختام، فتشتعل في قلوبهم نيران الخوف اشتعالا، فتَغَيُّر الحال لا يُؤمَن! وكيف يؤمَن والقلوب يقلِّبها من هي بين أصابعه، فإذا أراد الرحمن أن يقلب قلب عبدٍ قلبه[٣]؟ وكيف يأمَنون وقد عرفوا أن القلب أشد تقلبا من القدر في غليانها؟ وقد قال مقلب القلوب -ﷻ-: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ المعارج:٢٨، فأجهل الناس من أمنه، وهو ينادي بالتحذير من الأمن[٤].

ولو كان الإنسان إذا زاغ لا يفقد إلا مالاً، أو ولداً، لخفّ الخَطبُ! إنه إذا زاغ سيفقد دينه، وإيمانه، وصلته بربه، إنه يخسر كلَّ شيء! يخسر نفسه، يخسر أهله، وهذا هو الخسران،

---

(١) تفسير الطبري٦/٢١٢.

(٢) تفسير المنار٣/١٨٩.

(٣) هذا المعنى مأخوذ من حديث مرفوع؛ أخرجه الترمذي في سننه٤/٤٤٨حديث ٢١٤٠، وقال عنه الألباني: صحيح.[انظر:مشكاة المصابيح١/٢٢].

(٤) انظر: إحياء علوم الدين٤/١٧١.

كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ الزمر: ١٥.

إذا هدى الله الإنسان إلى الحق، فإنها أعظم منّة، وأكبر عطيّة، ولكن يُقْلِق قلب العالِم احتمال فقدانها، فقد خاف من ذلك أعلم الناس- وهم الأنبياء عليهم السلام-، فسوء الخاتمة من مكر الله، وقد قال الله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ الأعراف: ٩٩، قال أبو طالبٍ المكي[1]:"الخاتمة من مكر الله تعالى الذي لا يوصف، ولا يفطن له، ولا عليه يوقف، والله تعالى لا نهاية لمكره، لأن مشيئته وأحكامه لا غاية لها"[2]،"وقد قال إبراهيم-عليه السلام-:﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ الأنعام: ٨٠ - على أحد الوجهين في التفسير-، ومثله قول شعيب-عليه السلام-:﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ ﴾ الأعراف: ٨٩، ثم علّلا جميعاً بسعة العلم، وسبق المشيئة به، فلم يأمنا؛ وهذا هو

---

(١)أبو طالب المكي (... - ٣٨٦ هـ) محمد بن علي بن عطية الحارثي: واعظ، زاهد، فقيه. من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) نشأ واشتهر بمكة. ورحل إلى البصرة فاتهم بالاعتزال. وسكن بغداد فوعظ فيها، فحفظ عنه الناس أقوالا هجروه من أجلها. وتوفي ببغداد. له (قوت القلوب) وأفاد ابن تيمية أن لأبي طالب وأتباعه من المعرفة والعبادة والزهد واتباع السنة والجماعة ما هم معروفون به، وأنه ينتسب إلى إمامين عظيمين في السنة: الإمام أحمد بن حنبل، وسهل بن عبد الله التستري، وفي كلامه في الصفات كثير مما يُفهم منه الحلول، ولكنه برئ من الحلول. وأفاد ابن تيمية أن عامة كلام الغزالي الذي برع به في التصوف ونحوه، أخذ مادته من كلام أبي طالب. [أنظر: مجموع فتاوى ابن تيمية٥/٤٨٣،وبغية المرتاد ص٤٤٩، والأعلام٦/٢٧٤].

(٢) قوت القلوب١/٣٨٢.

خوف المكر، فالأنبياء مع فضلهم ومكانهم يستثنون في الكفر خيفة المكر[١] وأيضاً خاف هذا المكر النبي-ﷺ-، خافه على نفسه، وخافه على أصحابه-ﷺ-، فعن أنس بن مالك-ﷺ-، قال: كان-ﷺ-كثيراً ما يقول:"يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك. قلنا: يا رسول الله، قد آمنا بك، وصدّقنا بما جئت به، فيُخاف علينا؟! قال: نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله، يقلبها تبارك وتعالى"[٢]، وفي لفظ:"قال نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله، يقلبهما كما يشاء"[٣].

قال سفيان الثوري[٤]:"من أمن الله على دينه طرفة عين، سلبه إياه"[٥].

احتمال الزيغ قبل الختام، قطع ظهور العارفين، فيُلِحّون على الله طالبين النجاة منه. أفاد ابن الخراط[٦] أن تصوُّر الإنسان لسوء الخاتمة، ومعرفته بأن أكثر الخلق قد قُدِّر عليهم ذلك،

---

(١) انظر: المرجع السابق٢/٢٢٧.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره٦/٢١٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه٤/٤٤٨حديث ٢١٤٠، قال الألباني: صحيح[مشكاة المصابيح١/٢٢].

(٤) سفيان الثوري(٩٧ - ١٦١ هـ) سفيان بن سعيد بن مسروق؛ أبو عبد الله: أمير المؤمنين في الحديث. كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى، وهو أحد الأئمة المجتهدين، أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته. ولد ونشأ في الكوفة، وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم، فأبى. وخرج من الكوفة (سنة ١٤٤ هـ فسكن مكة والمدينة. ثم طلبه المهدي، فتوارى. وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفيا. أكل سفيان ليلة فشبع فقال: الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله، فقام حتى أصبح. له من الكتب (الجامع الكبير) و (الجامع الصغير)[انظر: وفيات الأعيان٢/٣٨٦، والأعلام٣/١٠٤]

(٥) أخرجه ابن وضاح في كتاب البدع١/١٢٥،أثر ١١٤.

(٦) ابن الخراط (٥١٠ - ٥٨١ هـ): عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الأشبيلي، أبو محمد. من علماء الأندلس. كان حافظا، عالما بالحديث وعلومه، فقيها مالكياً، مشاركاً في الأدب، وقول الشعر. وكان مع جلالته في العلم؛ قانعا، متعففا، موصوفا بالصلاح، والورع، ولزوم السنة.له: (الجمع بين الصحيحين) و(الجمع بين الكتب الستة) و(المعتل من الحديث) و(الأحكام الصغرى) و(العاقبة في ذكر

أمرٌ انفطرت له القلوب وتشققت، وانصدعت له الأكباد وتقطعت، ولولا أن الآجال محدودة لزهقت الأنفس عند أول ذكره، وما يمنع القلوب من الانشقاق والانصداع والانفطار والانقطاع، والذي يلقاه من خُتم له بالسوء عذاب لا تقوم السموات والأرض لشدته، ولا آخر لمدته، وما الذي يؤَمِّن العبد منه؟ والخاتمة مغيبة، والعاقبة مستورة، والأقدار غالبة"[١]

الزيغ قبل الختام يُبطل كل ما سبق للإنسان من الأعمال الصالحة، قال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ الزمر: ٦٥.

وإساءة الخاتمة مع كونها من مكر الله، إلا أنها لا تحدُث ظُلماً من الله تعالى لأحدٍ، ولكنه سبحانه قد يؤاخذ العبد بذنبٍ قد نسيه، فالذنوب المنسية هي أصل البلاء وأساسه، قال أبو طالبٍ المكي:"يقال:من الذنوب ذنوب تؤخر عقوبتها إلى سوء الخاتمة، وقيل: من الذنوب ذنوب لا عقوبة لها إلاّ سلب التوحيد في آخر نَفَسٍ -نعوذ باللّه تعالى من ذلك"[٢]، حضرت مدمن خمر الوفاة، فلقنوه:"لا إله إلا الله"، فأعلمهم كفره بها، ومات على ذلك، فكان عبد العزيز بن أبي رواد[٣] يقول:"اتقوا الذنوب؛ فإنها هي التي أوقعته"[٤].وقال الإمام عبد الحق

الموت) وغيرها كثير. وأصابته محنة من الولاة فتوفي على أثرها.[انظر: شذرات الذهب٤/٢٧١ والأعلام٣/٢٨١، ومعجم المؤلفين٥/٩٢].

(١) العاقبة في ذكر الموت ص١٧١.

(٢) قوت القلوب٢/٢٢٨.

(٣) عبد العزيز بن أبي رواد (...-١٥٩) اسم أبيه ميمون، وقيل: أيمن بن بدر، مولى الأمير المهلب بن أبي صفرة، الأزدي، المكي: شيخ الحرم، أحد الأئمة، كان من أعبد الناس، لكنه كان مرجئاً، شهد سفيان الثوري جنازته فلم يصل عليه لإرجائه، قال الذهبي:"العجب من عبد العزيز؛ كيف يرى الإرجاء وهو من الخائفين الوجلين، كثير الحج والتعبد.[انظر: ميزان الاعتدال٢/٦٢٨، وسير أعلام النبلاء٧/١٨٤]

(٤) العمدة من الفوائد والآثار، لشهدة بنت أحمد الدينوري ص ٣٠.

الأشبيلي[١]:"اعلم أن سوء الخاتمة-أعاذنا الله منها- لا يكون لمن استقام ظاهره، وصلح باطنه، وإنما يكون ذلك لمن كان له فساد في العقل، وإصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم؛ فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، ويثب عليه قبل الإنابة، ويأخذه قبل إصلاح الطوية، فيصطلمه[٢] الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله"[٣]، فالذنوب أصل البلاء"ربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الافتراء؛ فملك قلبه، وسبى عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه؛ فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجعت فيه موعظة... فيكون ذلك سببا لسوء الخاتمة وشؤم العاقبة، والعياذ بالله"[٤]، وهذا واضح لمن تدبر قول الله تعالى في اليهود: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ ﴾ الصف: ٥، قال ابن كثير:"أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ الأنعام: ١١٠"[٥].

واطمئنان الإنسان أنه ليس مذنباً، ليس دليلاً على أنه لم يذنب فعلاً، بل كل ابن آدم خطّاء، وقد تكون مؤاخذة الله له بذنبه بإزاغة قلبه؛ فليكن من ذنوبه على حذر.

ولكن رحمة الله واسعة، فقد يعفو عن إنسانٍ ذنباً عظيماً يستحق به أن يُعاقب عليه بالزيغ، ولكن يتوب الله عليه، رحمة من الله به؛ لسابقته، واجتهاده، وصبره، وتحمله في سبيل الله؛ كما قال الله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ

---

(١) هو ابن الخراط؛ سبقت ترجمته قريباً.

(٢) الاصطلام: القطع والاستئصال، واصطلمه: قطعه من أصله فلم يبق منه شيء. [انظر: النهاية في غريب الأثر؛ مادة(صلم)، والمحيط؛ مادة(صلم)، وطلبة الطلبة١/٣٣٥].

(٣) العاقبة في ذكر الموت ص١٨٠.

(٤) المرجع السابق ص١٨٠.

(٥) تفسير ابن كثير٨/١٠٩.

ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة: ١١٧، قال ابن جرير:"{مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ } يقول: من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق، ويشك في دينه ويرتاب؛ بالذي ناله من المشقة والشدّة في سفره وغزوه. {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ } يقول: ثم رزقهم جلّ ثناؤه الإنابة، والرجوع إلى الثبات على دينه، وإبصار الحق الذي كان قد كاد يلتبس عليهم. {إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ }يقول: إن ربكم بالذين خالط قلوبَهم ذلك لما نالهم في سفرهم من الشدة والمشقة، {رَءُوفٌ } بهم، {رَّحِيمٌ } أن يهلكهم فينزع منهم الإيمان؛ بعدما قد أبلَوْا في الله ما أبلوا مع رسوله، وصبروا عليه من البأساء والضراء"[1]. فهذا فيه بيانٌ لوسيلة نافعة من وسائل النجاة من الزيغ؛ فثبتهم، وهو القادر سبحانه على تثبيت قلوب أوليائه، فيثبتهم في الدنيا والآخرة، وأولوا الألباب دائماً يسألون الله الثبات حتى الممات، وقد وعد الله المؤمنين المستجيبين له، بذلك التثبيت في قوله:﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٧، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد؛"تثبيته إياهم في الحياة الدنيا؛ بالإيمان بالله، وبرسوله محمد-ﷺ- (وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ) بمثل الذي ثبَّتهم به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يُسْألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسوله-ﷺ-"[2].

أما من لا يستجيب لله، فهو عرضة للزيغ، وذلك بحيلولة الله بينه وبين قلبه، كما قال سبحانه:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ الأنفال: ٢٤، قال مجاهد:"يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل"[3]، وأفاد ابن جرير أن الله يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يقدر ذو قلب أن

---

(١) تفسير الطبري١٤/٥٣٩.

(٢) المرجع السابق١٦/٦٠٢.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٥/١٦٨١.

يُدرك به شيئًا؛ من إيمان، أو كفر، أو أن يَعِي به شيئًا، وإذا حجز -جل ثناؤه- بين عبد وقلبه، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبَه إدراكَه سبيلٌ[١]"،"فليكثر العبد من قول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب، اصرف قلبي إلى طاعتك"[٢]، وزيغ القلب بسبب عدم الاستجابة لأمر الله ورسوله-ﷺ- خافه أبو بكرٍ -ﷺ-، فقد كَانَتْ فَاطِمَةُ رضي الله عنها تَسْأَلُ أَبَا بَكْرٍ-ﷺ- نَصِيبَهَا مِمَّا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ-ﷺ- مِنْ خَيْبَرَ وَفَدَكٍ، وَصَدَقَتِهِ بِالْمَدِينَةِ، فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ، وبيّن لها أن النبي-ﷺ-قال:"لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ"وقال أبو بكر -ﷺ- لها:"إِنِّي أَخْشَى إِنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ"[٣].

ويتحصل مما سبق ست وسائل للنجاة من الزيغ، وهي باختصار:

- الاستجابة لأمر الله ورسوله -ﷺ-.
- الدعاء، ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ آل عمران: ٨.
- عدم الأمن من مكر الله، فإنَّ"مَنْ أمن الله على دينه طرفة عين، سلبه إياه"[٤].
- الخوف من السيئات، واستحضار خطرها، وعدم تزكية النفس عنها، فالسيئات هي أصل البليات.
- التوبة من الذنوب صغيرها، وكبيرها.

---

(١) انظر: تفسير الطبري١٣/٤٧٢.

(٢) تفسير السعدي ص ٣١٨.

(٣) أخرجه البخاري٤/٩٦حديث ٣٠٩٣ كتاب: فرض الخمس، باب: فرض الخمس. ومسلم٣/١٣٨٠حديث ١٧٥٩، كتاب: الجهاد والسير: باب قول النبي-ﷺ-: (لا نورث ما تركنا فهو صدقة).

(٤) أخرجه ابن وضاح في كتاب البدع١/١٢٥،أثر ١١٤.

- العمل الصالح، والصبر والتحمّل في سبيل الله، والنصر لدينه، وإرصاد سوابق خيرٍ عند الله، لينجيه بها من الزيغ عند حلول أسبابه.

وصلى الله على محمد، وعلى آله، وأصحابه، وسلم تسليما كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

النجاة من الكبر المانع من قبول الحق.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ غافر: ٥٦. (إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ) يقول: ما في صدورهم إلا كبر يتكبرون من أجله عن اتباعك، (فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ) من الكبر أن يعرض فى قلبك منه شيء' هذا ما أفاده ابن جرير[١]، وقال ابن كثير:"أي: ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخمال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع، {فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ } أي: من حال مثل هؤلاء[٢].

وأفاد ابن عاشور أن قوله: (مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ)، إما أن يراد نفي أهليتهم للكبر إذ هم أقل من أن يكون لهم الكبر؛ فهو كبر زيف، وإما أن يراد نفي نوالهم شيئا من آثار كبرهم مثل تحقيرهم الذين يتكبرون عليهم[٣].

أهمية النجاة من الكبر:

بيّنت الآية أن الكِبْرُ في الصدور يجعل الإنسان يبطر الحق ويرده، وإذا كان هذا التصرف منهم نتيجة لكِبْرهم،"فهكذا تجد كل مجادل في نصوص الوحي بالباطل، إنما يحمله على ذلك كبر في صدره"[٤].

---

(١) تفسير الطبري٢١/٤٠٤

(٢) تفسير ابن كثير٧/١٥٢.

(٣) انظر: التحرير والتنوير٢٤/٢٢١.

(٤) الصواعق المرسلة١/٣٧٢.

وقد فسّر النبي-ﷺ- الكِبْر بما يطابق الآية، وذلك في قوله-ﷺ-:"الكبر:بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ[١] وَبَطَرُ الْحَقِّ:جَحْدُهُ وَدَفْعُهُ، وَغَمْطُ النَّاسِ:احْتِقَارُهُمْ وَازْدِرَاؤُهُمْ[٢].

الكبر صفة ذميمة، يريد بها الإنسان العلو، ولكن يحصل منها على عكس ما يريد، فإن الإنسان يكون بسببها ذليلاً حقيراً. قال ابن القيم:"كما أن من تواضع لله رفعه، فكذلك من تكبر عن الانقياد للحق أذله الله، ووضعه، وصغّره، وحقره، ومن تكبر عن الانقياد للحق إذا جاءه على يد صغير، أو على يد من يبغضه، أو يعاديه؛ فإنما تكبره على الله، فإن الله هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفته، ومنه، وله؛ فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله، فإنما رد على الله وتكبر عليه، والله أعلم"[٣]. إن نجاة الإنسان من الكبر باعثٌ على اتباع الحق، وبهذا تتبيّن أهمية النجاة من الكبر، وأنه مطلبٌ ينبغي السعي لتحصيله.

وقد أمر الله نبيه في الآية أن يسعى للنجاة من الكبر بالاستعاذة بالله، وبهذا تكون الآية قد بيّنت أعظم ما يمكن أن ينجي الإنسان من الكبر المانع من قبول الحق؛ وهو الالتجاء إلى الله، واللوذ بجنابه.

وذكرت الآية ما يبعث على الحرص على النجاة من الكبر، وذلك حينما بيّنت أن الخسارة في الكِبْر ليست إلا على هذا المتكبر، وإلا فإن الحق سيعلو، ولن يعلو هذا المتكبر على الحق. فهذا باعث قوي للحرص على السعي للنجاة من الكبر.

إن سعي الإنسان للنجاة من الكبر بالاستعاذة بالله منه، يقرّبه من نيل النجاة منه، وذلك لأن الله سبحانه موصوفٌ بصفات عظيمة، فهو أهلٌ بأن يستعاذ بجنابه، وهذا واضح من تذييل

---

(١) أخرجه مسلم: ١/٩٣ حديث:٩١. كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية٧/٦٢٥، وانظر: فيض القدير٥/٧٩.

(٣) مدارج السالكين٢/٣٣٣.

الآية باسمين من أسماء الله، وقد دلَّا على صفتين من صفاته، وذلك في قوله سبحانه:

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ غافر: ٥٦.

النجاة من الغم:

من الآيات القرآنية التي تحدثت عن النجاة من الغم؛ قول الله تعالى مخاطباً نبيه موسى-عليه السلام-في قوله:﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾طه: ٤٠

وقال الله سبحانه في سياق قصة يونس-عليه السلام-:﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾الأنبياء:٨٨

معنى الغم:

الغم: الكرب، وجمعه: غموم[١]. وهو انقباض القلب؛ لضرر واقعٍ، أو متوقعٍ، أو متوهم"[٢]. **وأصل الغم**: تغطية الشيء وستره[٣]؛ ومنه:"سمي غماما؛ لأنه يغم السماء: أي يسترها"[٤]،، وغَمَمْتُ الدّابَّةَ: إذا أَلْقَمْت فَاها ما يمْنَعُها مِنَ الاعتِلافِ[٥]، وليلة غماء: -وهي آخر ليلة من الشهر- لأنه غم أمرها، أي ستر، فلم يدر أهي من الشهر المقبل، أم من الماضي[٦]، وغُمَّ عَلَيْنَا الهِلالُ: إذَا حَالَ دونَ الهِلالِ غَيْمٌ رَقيقٌ[٧]، **ومن هذا المعنى"سُمي الغم: غماً**: لاشتماله على القلب"[٨].

---

(١) انظر: لسان العرب، مادة(غ م م).

(٢) الفروق اللغوية لأبي هلالٍ العسكري ص٥٦٠.

(٣) انظر: تاج العروس، مادة(غ م م).

(٤) انظر: لسان العرب، مادة(غ م م).

(٥) انظر: تهذيب اللغة، مادة(غم).

(٦) انظر: لسان العرب، مادة(غ م م).

(٧) انظر: تهذيب اللغة، مادة(غم).

(٨) انظر: لسان العرب، مادة(غ م م).

ومما يزيد معنى الغم وضوحاً إيراد **الفرق بينه وبين الهمِّ**؛ فالغم: انقباض القلب؛ لمكروه وقعَ، أو يتوقع، أو يتوهم-كما سبق- أما الهم فهو:استغراق الفِكر في إزالة الغم. **وقيل:** الغم: ما لا خلاص منه؛ كموت المحبوب، والهم:ما يمكن إزالته؛ كالإفلاس[١].

وقال ابن القيم:"المكروه الوارد على القلب؛ إن كان من أمر ماض؛ أحدث الحزن، وإن كان من مستقبل؛ أحدث الهم، وإن كان من أمر حاضر؛ أحدث الغم"[٢].

حديث القرآن عن النجاة من الغم:

الغموم التي تغم القلب، درجاتٌ متفاوتة، وكلها عذابٌ يُعذَّبُ به الإنسان، ويُقْلِق حياته، ويجلب الهموم؛ بأن يكون هم القلب إزاحة الغم الذي غمَّه، ويكفي لمعرفة العذاب الذي يحدثه الغم، معرفة أن الله عاقب بالغم من خالفوا أمر رسوله-ﷺ-في غزوة أحد؛ كما ذكر الله ذلك بقوله: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ ﴾ آل عمران: ١٥٣، قال ابن جرير:"يعني: فجازاكم بفراركم عن نبيكم، وفشلكم عن عدوكم، ومعصيتكم ربكم"غمًّا بغم"، يقول: غما على غم"[٣]. وقال ابن القيم:"الْمَعْنَى:"أثابكم غما متصلا بغم، جزاء على ما وقع منهم من الهروب، وإسلامهم نبيهم -ﷺ- وأصحابه، وترك استجابتهم له وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزوم مركزهم، وتنازعهم في الأمر، وفشلهم، وكل واحد من هذه الأمور يوجب غما يخصه، فترادفت عليهم الغموم؛ كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها"[٤].

ومما يزيدك عِلماً بأثر التعذيب بالغم، معرفتك أنه من أشد ما يُعَذَّب به أهل النار-عياذا بالله- كما قال الله سبحانه: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟

---

(١) الفروق اللغوية لأبي هلالٍ العسكري ص٥٦٠.

(٢) الفوائد١/٢٦.

(٣) تفسير الطبري٧/٣٠٣.

(٤) زاد المعاد٣/١٩٦.

عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ الحج: ٢٢، قال الطبري:"كلما أراد هؤلاء الكفار الذين وصف الله صفتهم؛ الخروج من النار؛ مما نالهم من الغم والكرب، ردّوا إليها"(١).

فالغم؛ هو الذي يصير بسببه العذاب عذاباً؛ والأحداث التي لا يحدث منها على القلب شدة وكرباً، ليست بعذاب- كما هو ظاهر-.

ولشدة التعذيب بالغم؛ جعله الله عذاباً للبُعْد عنه؛ قال ابن القيم: الغموم، والهموم، والأحزان، والضيق؛ عقوبات عاجلة؛ ونار دنيوية؛ وجهنم حاضرة؛ للبعد عن الله. والإقبال على الله تعالى، والإنابة إليه؛ والرضاء به؛ وعنه؛ وامتلاء القلب من محبته؛ واللهج بذكره؛ والفرح والسرور بمعرفته، ثواب عاجل؛ وجنة؛ وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة(٢).

الغم إذا ملأ القلب فهو العذاب حقاً، والنجاة منه هي مطلب المبتلى الذي يُفكِّر فيه، وإذا أنجاه الله من الغم، وكشفه عنه؛ فقد تحقق له مراده، وهي أعظم منّة من الله عليه حينها؛ وقد امتن الله بهذا على موسى-عليه السلام-، فقال سبحانه له-مُذكِّراً إياه بتلك النعمة-: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ طه: ٤٠، قال ابن جرير في معناها:"فنجيناك من غمك بقتلك النفس التي قتلت؛ إذ أرادوا أن يقتلوك بها، فخلصناك منهم؛ حتى هربت إلى أهل مدين، فلم يصلوا إلى قتلك وقودك"(٣).

وقد ذكر الله قصة نبيه يونس-عليه السلام-، وابتلاع الحوت له، وكيف أنه سبحانه أنجاه من الغم الذي حصل بسبب ذلك؛ فقال سبحانه: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأنبياء: ٨٧ – ٨٨، قال الطبري:""نجيناه من الغمّ الذي كان فيه؛ بحبْسناه في بطن الحوت، وغمه بخطيئته وذنبه.

---

(١) تفسير الطبري١٨/٥٩٣.

(٢) انظر: الوابل الصيب ص٦٧.

(٣) تفسير الطبري١٨/٣٠٦.

(وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ) يقول جلّ ثناؤه: وكما أنجينا يونس من كرب الحبس في بطن الحوت في البحر إذ دعانا، كذلك ننجي المؤمنين من كربهم إذا استغاثوا بنا ودعونا"[١].

قال السعدي:"هذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم؛ أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه"[٢]؛ ففي هذه الآية بيانٌ لوسيلة عظيمة من وسائل النجاة من الغموم؛ وهي الدعاء؛ وخاصة إذا دعوا بنفس الدعاء الذي دعا به يونس -عليه السلام-[٣]؛ كما أوضح ذلك النبي-ﷺ-؛ فعن سعد بن أبي وقاص[٤]-رضي الله عنه-، قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-، فَقَالَ: "أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ، إِذَا نَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ كَرْبٌ، أَوْ بَلاَءٌ مِنَ بَلاَءِ الدُّنْيَا؛ دَعَا بِهِ فُرِّجَ عَنْهُ؟ فَقِيلَ لَهُ: بَلَى، قَالَ: دُعَاءُ ذِي النُّونِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ"[٥]. فالحمد لله على هذه النعمة العظيمة.

---

(١) المرجع السابق١٨/٥١٨

(٢) تفسير السعدي ص٥٢٩

(٣) انظر: تفسير ابن كثير٥/٣٦٨.

(٤) سعد بن أبي وقاص(...-٥٥هـ): سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب(أبو إسحاق)، أحد العشرة المبشرين بالجنة؛ وآخرهم موتاً، وأحد الستة أصحاب الشورى. أسلم وعمره تسع عشرة سنة، أول من رمى بسهم في سبيل الله، شهد بدراً، والمشاهد بعدها، وكان أرمى الناس، جمع النبي-ﷺ-له أبويه؛ فقال له:"ارم فداك أبي وأمي"، وقال النبي-ﷺ- مرة:"هذا خالي، فليأت كل رجل بخاله"، كان مستجاب الدعوة، ذهب بصره في آخر عمره، بلغ عمره يوم مات بضعاً وثمانين سنة، أو بضعاً وسبعين سنة [انظر: تاريخ دمشق٢٠/٢٩٣، الإصابة٣/٧٣].

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى٦/١٦٨، حديث١٠٤٩١،كتاب: عمل اليوم والليلة؛ باب: ذكر دعوة ذي النون. قال الألباني:صحيح؛ انظر:[صحيح الجامع، حديث:٢٦٠٥].

النجاة من الغل على المؤمنين.

تناول القرآن الحديث عن نجاة القلب من الغل على المؤمنين، في مرحلتين من مراحل حياة الإنسان؛ نجاته من الغل على المؤمنين في الدنيا، والنجاة من الغل عليهم في الآخرة، فالآية التي تحدثت عن النجاة في الدنيا؛ ما ذكره الله تعالى من دعاء المؤمنين اللاحقين للمؤمنين السابقين في قوله:﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ الحشر: ١٠، والآية التي تحدثت عن النجاة في الآخرة؛ قول الله تعالى:﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الحجر: ٤٧

معنى الغل:

الْغِلُّ-بِالْكَسْرِ-:الْحِقْدُ، وَالْغُلُّ-بِالضَّمِّ-:طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ يُجْعَلُ فِي الْعُنُقِ؛ جمعه:أَغْلَالٌ، وَالْغَلَّةُ:كُلُّ شَيْءٍ يَحْصُلُ مِنْ رَيْعِ الْأَرْضِ أَوْ أُجْرَتِهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ وَالْجَمْعُ غَلَّاتٌ وَغِلَالٌ(١)، والغلول: الخيانة في المغْنَم والسَّرقَة من الغَنِيمة قبل القِسْمة، وكلُّ مَن خان في شيء خُفْيَةً فقد غَلَّ(٢).

والمراد هنا هو المعنى الأول: فالغِل: وهو الحقد، والضغينة، والشحناء، وإضمار الشر(٣)؛ فسلامة الصدر والقلب من وجود هذا المعنى فيه على المؤمنين، مطلبٌ من مطالب المؤمنين؛ كما هو ظاهر في الآية التي فيها دعاؤهم: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ الحشر: ١٠، قال الطبري:"يعني غِمْراً(٤) وضغنا"(١)، قال الواحدي(٢):"فمن ترحم على أصحاب رسول الله-

---

(١) انظر: الصحاح؛ مادة(غلل)، والمصباح المنير، مادة(غلل).

(٢) المعجم الوسيط،مادة(غلّ).

(٣) انظر: غريب الحديث، لأبي عبيد١/٢٠٠، والصحاح؛ مادة(غلل)، ولسان العرب؛مادة(غلل).

(٤) الغمر: الحقد والضغن، ومنه حديث:"ولا ذي غَمْرٍ على أخيه".[انظر: النهاية في غريب الأثر؛ مادة(غمر)، ولسان العرب؛ مادة(غَمَرَ)].

ﷺ-، ولم يكن في قلبه غل لهم؛ فهو من أهل هذه الآية، ومن يشتم واحدا منهم، ولم يترحم عليه، لم يكن له حظ في الفيء، وكان خارجا من جملة أقسام المؤمنين؛ وهم ثلاثة: المهاجرون، والأنصار، والذين جاؤوا من بعدهم بهذه الصفة التي ذكرها الله تعالى"[٣]، فالآية فيها الدعاء بالمغفرة من الآخِرين للمهاجرين والأنصار، والدعاء بالنجاة من الغل على أي مؤمن.

إن الغِل على المؤمنين هلاكٌ محقق، وهو بذرة الشيطان التي يتلهف على زرعها في قلوب المصلين؛ وخصوصاً في جزيرة العرب، كما أخبر بذلك النبي-ﷺ- في قوله: « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ »[٤]، أي: أنه يسعَى فِي التَّحْرِيش بَيْنهمْ؛ بِالْخُصُومَاتِ، وَالشَّحْنَاء، وَالْحُرُوب، وَالْفِتَن[٥]. فسلامة قلب المؤمن من الغِل على المؤمنين، هو في الحقيقة نجاة من كيد الشيطان، فهو شديد السعي لأن لا يحصل للمؤمن ذلك.

إن سعي المؤمن للنجاة من هذه الصفة، نابعٌ من معرفته بأضرارها، فالغل على المؤمنين له نتائج وخيمة، ومنها:

الحرمان من المغفرة التي تحصل للمؤمنين كل نصف أسبوع، كما ثبت ذلك عن النبي-ﷺ- فعن أبي هريرة-ﷺ- مرفوعاً: « تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ؛ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ؛ فَيُغْفَرُ

---

(١) تفسير الطبري٢٣/٢٨٨.

(٢) الواحدي (٠٠٠ - ٤٦٨ هـ) علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متوية، (أبو الحسن): مفسر، أديب، كان طويل الباع في العربية، وهو من أولاد التجار، كان حقيقا بكل احترام وإعظام. مولده ووفاته بنيسابور. له: (البسيط) و(الوسيط) و(الوجيز)؛كلها في التفسير، وله (أسباب النزول).[أنظر:سير أعلام النبلاء١٨/٣٣٩ والأعلام٤/٢٥٥].

(٣) الوجيز ص١٠٨٣.

(٤) أخرجه مسلم ٤/٢١٦٧ حديث:٢٨١٢، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينا.

(٥) انظر: شرح النووي لصحيح مسلم١٧/١٥٦.

لِكُلِّ عَبْدٍ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ؛ فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا»(١).

الحرمان من الحصول على ولاية الله له، والحرمان من لذة الإيمان؛ كما ثبت ذلك عن ابن عباس -رضي الله عنهما-؛ حيث قال:"أَحِبَّ فِي اللهِ، وَأَبْغِض فِي اللهِ، وَوَالِ فِي اللهِ، وَعَادِ فِي اللهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلاَيَةُ اللهِ بِذَلِكَ، لاَ يَجِدُ رَجُلٌ طَعْمَ الإِيمَانِ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلاَتُهُ وَصِيَامُهُ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ."(٢)، ومن كان في قلبه غلٌ على أحدٍ من المؤمنين؛ فإن حبه وبغضه ليس في الله، فلا ينال ولاية الله، ولا يجد طعم الإيمان.

ومما يزيد المؤمن حرصاً على النجاة من هذه الصفة، معرفته بالثواب الجزيل لمن تخلَّص منها؛ وهو دخول الجنة؛ كما جاء ذلك في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ-ﷺ- حيث قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ-ﷺ-فَقَالَ: يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ، قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ- مِثْلَ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الأُولَى. فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ، قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ- مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الأُولَى، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ -ﷺ- تَبِعَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ؛ فَقَالَ: إِنِّي لاَحَيْتُ(٣) أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لاَ أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلاَثًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ أَنَسٌ: وَكَانَ عَبْدُ اللهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلاَثَ، فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَبَّرَ، حَتَّى يَقُومَ لِصَلاَةِ الْفَجْرِ. قَالَ عَبْدُ اللهِ: غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلاَّ خَيْرًا، فَلَمَّا مَضَتِ الثَّلاَثُ لَيَالٍ وَكِدْتُ أَنْ أَحْقِرَ عَمَلَهُ، قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللهِ إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلاَ هَجْرٌ ثَمَّ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- يَقُولُ لَكَ ثَلاَثَ مِرَارٍ: يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٨٧/٤ حديث:٢٥٦٥، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه٣٦٨/١٣.

(٣) الملاَحاة في الأصل: الملاومة والمبَاغَضَةُ، ثم كثُر ذلك حتى جُعِلتْ كُلُّ مُمانعة ومدافَعة ملاحاةً.[انظر: لسان العرب؛ مادة(لحا).

أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلاَثَ مِرَارٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ؛ لأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ فَأَقْتَدِيَ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-؟ فَقَالَ: مَا هُوَ إِلاَّ مَا رَأَيْتَ. قَالَ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلاَّ مَا رَأَيْتَ، **غَيْرَ أَنِّي لاَ أَجِدُ فِي نَفْسِي لأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا**[1]، **وَلاَ أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ**. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لاَ نُطِيقُ[2].

وإن مما يزيد المؤمن نفوراً من هذه الصفة، معرفته ببغض الله لها، ولذا فإنه سبحانه لا يدخل جنته أحداً حتى يَنزع هذه الصفة من قلبه، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ **وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ** مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الحجر: ٤٥ – ٤٧، وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ **وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ** ﴾ الأعراف: ٤٢ – ٤٣، قال الطبري: يقول تعالى ذكره: وأذهبنا من صدور هؤلاء، ما فيها من حقد وغِمْرٍ وعَداوة كان من بعضهم في الدنيا على بعض[3].

وقد دلت بعض الآثار أن إذهاب الغل من القلوب يكون قبل دخولهم الجنة. فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ[4] -رضي الله عنه-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-:"يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى

---

(١) في رواية النسائي:"لا أجد في نفسي غِلاً لأحدٍ من المسلمين".

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسند أنس بن مالك -رضي الله عنه- من مسنده٣/١٦٦حديث١٢٧٢٠، وأخرج نحوه النسائي في السنن الكبرى٦/٢١٦ حديث: ١٠٦٩٩. أفاد المنذري أن إسناد أحمد على شرط البخاري ومسلم، ورواة النسائي احتجا بهم أيضاً، إلا شيخه سويد بن نصر وهو ثقة.[انظر: الترغيب والترهيب٣/٣٤٨]، وقال الهيثمي:"رجال أحمد رجال الصحيح".[انظر: مجمع الزوائد٧/٣٩٥]، وضعفه الألباني. [انظر: ضعيف الترغيب والترهيب٢/١٣٢حديث١٧٢٨].

(٣) انظر: تفسير الطبري١٢/٤٣٨.

(٤) أبو سعيد الخدري (١٠ قبل الهجرة- ٧٤ هـ) سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي: الإمام المجاهد، مفتي المدينة، صحابي، مشهور بكنيته، استصغر بأحد، واستشهد أبوه بها، وغزا هو ما

قَنْطَرَةِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ"(١).

وقال السدي: "إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا سِيقُوا إِلَى الْجَنَّةِ، وَجَدُوا عِنْدَ بَابِهَا شَجَرَةً، فِي أَصْلِ سَاقِهَا عَيْنَانِ، فَيَشْرَبُونَ مِنْ إِحْدَاهُمَا؛ فَيَنْزِعُ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ؛ فَهُوَ الشَّرَابُ الطَّهُورُ، وَيغْتَسِلُوا مِنَ الْأُخْرَى، فَتجري عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النَّعِيمِ"(٢).

فمن اهتدى بهدي القرآن؛ حرِص كل الحرص على نجاة قلبه من أن يكون فيه غِلاً على أحدٍ من المسلمين.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ الحشر: ١٠.

بعدها، كان من ملازمي النبي-ﷺ- وروى عنه ١١٧٠ حديثا، وروى عن كبار الصحابة -رضي الله عنهم-. غزا اثنتي عشرة غزوة. توفي في المدينة؛ وَدُفِنَ بِالْبَقِيعِ.[انظر: معرفة الصحابة لأبي نعيم٣/١٢٦٠، وسير أعلام النبلاء٣/١٦٨، والإصابة٣/٧٨، والأعلام٣/٨٧].

(١) أخرجه البخاري٨/١٣٩حديث٦٥٣٥،كتاب الرقاق. باب القصاص يوم القيامة.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره١٢/٤٣٩، وابن أبي حاتم في تفسيره٥/١٤٧٩.

المبحث الرابع: النجاة من الأشرار

(وأتناول فيه ما يلي)

- النجاة من الماكرين وكيدهم.
- النجاة من الشياطين. (شرهم، وحضورهم، وهمزاتهم)
- النجاة من السحرة.
- النجاة من الحاسدين.
- النجاة من الظالمين.
- النجاة من معاشرة أهل السوء.
- النجاة من شر المخلوقات عموماً.(من شر ما خلق)

النجاة من الماكرين وكيدهم

قال الله تعالى في مؤمن آل فرعون: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ غافر:٤٥.

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ آل عمران: ١٢٠.

معنى المكر والكيد:

الكيد: اسمٌ لايقاع المكروه والمشقة بالآخرين قصداً[١]؛ والمكر:"إخفاءُ الكَيْدِ وإيصالُ المضَرَّة"[٢]. وهما يختلفان عن الغدر، الذي لا يكون إلا بنقض عهدٍ يجب الوفاء به[٣].

إمكانية النجاة من كيد الماكرين:

قد يكون الإنسان الذي يكيد الكائدون لإيقاع الضرر به واحداً؛ وهم جماعة، وقد يكون ضعيفاً؛ وهم أقوياء، وقد يمكرون به وهو عن مكرهم في غفلة. قد يظهرون له المودة والصفاء؛ وفي قلوبهم كل حقدٍ وعداء. وقد يظهرون له المكر والكيد؛ ولكنه ضعيفٌ ليس بيده حيلة لدفعهم.

عندما لا يشعر الإنسان بمن يمكرون به ويكيدون له؛ فمصيبته مصيبة، وقد تكون مصيبته في بعض الأحوال أشد إذا علِم وليس بيده حيلة لدفعهم؛ فهو هنا يعيش العذاب قبل حصوله.

إذا كان الكائدون يكيدون له لأجل دنياه التي يحتاجها؛ فالأمر شديدٌ، وإن كانوا إنما يمكرون به لاتباعه الحق فالأمر أشد؛ لأنه قد يقدِر على التنازل عن شيء من دنياه، فيعيش بدونه؛ ولكنه لا يستطيع التنازل عن شيء من عرضه أو دينه.

---

(١) انظر: الفروق اللغوية ص٥٠٨.

(٢) تاج العروس؛ مادة(كيد).

(٣) انظر: الفروق اللغوية ص٥٠٨.

إن الشعور بكيد الكائدين باعثٌ على القلق والاضطراب، وقد تتحول به حياة الإنسان إلى جحيم لا يطاق؛ فلا يهنأ بعيش، ولا يتلذذ بطعامٍ ولا شراب.

إن الشعور بالقدرة على النجاة من كيد الكائدين؛ باعثٌ على الاطمئنان والراحة، والنجاة من كيدهم فعلاً باعثٌ على الهناء والسعادة؛ فاهتمامُ الإنسان بحصول هذا النوع من النجاة؛ مغروسٌ في أعماقه؛ ولا يختلف بَشَرٌ عن بَشَرٍ في ذلك.

إن الله تعالى قد أنزل القرآن تبياناً لكل شيء، وهدى، ورحمة؛ ومن البدهي أن يكون القرآن الكريم قد عرض لهذا الأمر الخطير بالبيان والتوضيح؛ فأي مسلم يقرأ القرآن بتدبر فسيجد فيه معالجة هذا الأمر.

من العجائب نجاة مؤمن آل فرعون:

من الأساليب التي جاءت في القرآن؛ أسلوب القصة-والقصة من أكثر الأساليب تأثيرا- وقد جاءت القصة في القرآن لمعالجة هذا الأمر، فقد جاءت في القرآن قصة مؤمن آل فرعون.

إنه رجلٌ واحدٌ! يُقابله جماعة!

إنه يقابل الشعب والحاكم!، وليس أي حاكم؛ بل إنه مستبدٌ ظالمٌ كافرٌ طاغ.

إنهم يمكرون به لا من أجل دنياه، وإنما من أجل دينه؛ والحق الذي هو عليه!

إن المكر الذي يحيكونه ليس مكراً معتاداً؛ إنه مكر دولة بجميع أجهزتها، وكانت من أقوى الدول!

وهنا لم يبذل مؤمن آل فرعون شيئاً مُكْلِفاً لاتقاء كل ذلك، لقد بذل شيئاً سهلاً قوياً، إنه الاعتماد على مَنْ هو أقوى من كل صاحبِ قوة، ومَنْ مكره أعظم من مكر كل الماكرين، ومَنْ كيده لا يشبهه كيد؛ اعتمد على الله، وأعلن لتلك القطعان الهائمة على وجوهها ذلك. بيّن القرآن ذلك في قوله سبحانه عنه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

غافر: ٤٤،"يقول: وأسلم أمري إلى الله، وأجعله إليه، وأتوكل عليه؛ فإنه الكافي من توكل عليه"(١).

بعد هذا التسليم العظيم، والتفويض الكبير؛ جاءت النتيجة عظيمة، ففي الآية التي بعدها مباشرة، يقول الله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ غافر: ٤٥،"فدفع الله عن هذا المؤمن من آل فرعون؛ بإيمانه وتصديق رسوله موسى -عليه السلام- مكروه ما كان فرعون ينال به أهل الخلاف عليه؛ من العذاب والبلاء، فنجاه منه"(٢)، لقد سَلِم مؤمن آل فرعون من كل أذى كانوا يمكرون لإيصاله إليه.

إن في ذكر هذا القصة تعليم لكل من يُكاد به، ولكل من يواجه مكر الناس؛ إن عليه أن يسلك نفس الطريق الذي سلكه هذا الرجل العظيم، للنجاة من مكرهم.

بيان طريق من طرق النجاة من الماكرين:

إذا كانت هذه القصة من تاريخ السابقين، قد أوضح الله بها المسلك الذي سلكه هذا الرجل للنجاة من ذلك المكر، فقد بيّن الله في حادثة أخرى مكر آخرين يمكرون بالمؤمنين؛ قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ آل عمران: ١١٨ – ١٢٠.

---

(١) تفسير الطبري٢١/٣٩٤.

(٢) المرجع السابق.

لقد بيّن الله في هذه الآية مكايدَ عظيمة يكيد بها الكفارُ المسلمينَ؛ فقال: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾"يعني لا يقصرون فيما يجدون السبيل إليه؛ من إفساد أموركم. لأن الخبال هو الفساد"[١].

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ إنهم يتمنون -من أعماق قلوبهم- كلَّ شيء فيه مشقة عليكم، وكلَّ ما يسوءكم ولا يسرُّكم[٢].

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ لشدة ما يجدونه في قلوبهم عليكم، يظهر هذا في فلتات ألسنتهم[٣]، فهم"لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها؛ أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين"[٤]. وقيل: ما بدا منهم بأفواههم هو استمرارهم على كفرهم، فذلك عداوة منهم لأهل الإيمان، فكان إبداءهم لكفرهم بمقامهم عليه؛ أبيّن دليل على شدة عداوتهم وبغضهم لأهل الإيمان، وعداوتهم هذه للمؤمنين لأجل الدين؛ والعداوة على الدين لا زوال لها؛ إلا بانتقال أحد المتعاديين إلى ملة الآخر[٥].

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾"يعني: الذي يظهر على لسان المنافق من علامات البغضاء؛ أقل مما في قلبه من النفرة، والذي يظهر من علامات الحقد على لسانه؛ أقل مما في قلبه من الحقد"[٦].

---

(١) أحكام القرآن للجصاص٢/٣٢٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري٧/١٤٠.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير٢/١٠٨.

(٤) الكشاف١/٤٠٦.

(٥) انظر: تفسير الطبري٧/١٤٥.

(٦) مفاتيح الغيب٨/١٧٤.

فهذه الأمور تبيِّن أنهم يسعون بكل طاقتهم وجهدهم لإيصال الضرر إليكم؛ بعضه في خفاء، وبعضه في علنٍ، فهم بكم يمكرون ويكيدون، ولكن كيدهم ومكرهم لا يضركم، إنكم ستنجون من كل ضررٍ يريدون إيصاله إليكم، بشرط أن تتصفوا بصفتين: الصبر، والتقوى. هذا ما أوضحه الله تعالى في نهاية الآية حيث يقول: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ آل عمران:١٢٠، ولكونه سبحانه بما يعملون محيط فإنه"إذا دل على طريق النجاة لعامل من كيد الكائدين، والوسيلة للخلاص من ضررهم؛ فإنما يدل على الطريق الموصل للنجاة حتما"[(١)]، قال ابن كثير:"يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه"[(٢)]، ولأن الله بما يعملون محيط، فإنه"يعد لكل كيد ما يبطله"[(٣)].وبالتالي فإن الرشد كله في الاعتماد على دفعك الكيد والمكر الذي يحاك عليك؛ بالاعتماد على ربك سبحانه.

ويستخلص مما سبق وسائل للنجاة من شر الأشرار:

- التوكل على الله، وتفويض الأمر إليه.
- الصبر مع التقوى.

وقد ذكر الله في كتابه **قصصاً قرآنية واقعية؛ فيها إنجاء أناسٍ من أوليائه من كيد أعدائهم؛** ومن ذلك ما يلي:

---

(١) تفسير المنار٤/٧٧.

(٢) تفسير ابن كثير٢/١٠٩.

(٣) نظم الدرر٢/١٤٢.

• **إنجاء الله نبيه عيسى -عليه السلام- ممن أرادوا المكر به؛** قال الله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ آل عمران:٥٤، فالآية تشير إلى الذين أحس عيسى-عليه السلام- منهم الكفر؛ مكروا بعيسى-عليه السلام-؛"وكان مكرهم الذي وصفهم الله به؛ مُواطأة بعضهم بعضًا على الفتك بعيسى-عليه السلام-وقَتْله"(١)، ولكن قابل مكرهم بعيسى-عليه السلام-؛ مكر الله بهم، فنجاه الله منهم؛ ولم يمكنهم من إيصال الأذى إلى رسوله-عليه السلام-؛ قال ابن كثير:"تمالؤوا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان - وكان كافراً - أن هنا رجلاً يضل الناس، ويصدهم عن طاعة الملك، ويفسد الرعايا، ويفرق بين الأب وابنه، إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ورموه به من الكذب، وأنه ولد زنية، حتى استثاروا غضب الملك؛ فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به، فلما أحاطوا بمنزله، وظنوا أنهم قد ظفروا به؛ نجاه الله تعالى من بينهم، ورفعه من روزنة ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى؛ فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك، وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجّى نبيه ورفعه من بين أظهرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم"(٢).

• **إنجاء الله صالحاً -عليه السلام-من مكر أعدائه؛** قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ النمل: ٤٨ – ٥١؛ قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وغدر هؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض بصالح

(١) تفسير الطبري٦/٤٥٣.

(٢) تفسير ابن كثير٢/٤٦.

بمصيرهم إليه ليلا ليقتلوه وأهله، وصالح لا يشعر بذلك(وَمَكَرْنَا مَكْرًا) يقول: فأخذناهم بعقوبتنا إياهم، وتعجيلنا العذاب لهم(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) بمكرنا"[1]، فهنا لم يكن مكر الله بإنجاء صالحٍ-عليه السلام- فحسب؛ بل بإهلاك أعدائه أيضاً.

قال سيد قطب:"« وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »..

وأين مكر من مكر؟ وأين تدبير من تدبير؟ وأين قوة من قوة؟

وكم ذا يخطئ الجبارون وينخدعون بما يملكون من قوة ومن حيلة، ويغفلون عن العين التي ترى ولا تغفل، والقوة التي تملك الأمر كله وتباغتهم من حيث لا يشعرون:

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ النمل: ٥١ - ٥٢.

ومن لمحة إلى لمحة؛ إذا التدمير والهلاك، وإذا الدور الخاوية، والبيوت الخالية. وقد كانوا منذ لحظة واحدة، في الآية السابقة من السورة، يدبرون ويمكرون، ويحسبون أنهم قادرون على تحقيق ما يمكرون! وهذه السرعة في عرض هذه الصفحة بعد هذه مقصودة في السياق. لتظهر المباغتة الحاسمة القاضية. مباغتة القدرة التي لا تغلب للمخدوعين بقوتهم ومباغتة التدبير الذي لا يخيب للماكرين المستعزين بمكرهم"[2].

- **إنجاء الله نبيه محمد -ﷺ- من مكر أعدائه،** قال الله تعالى:﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾

(١) تفسير الطبري١٤/٤٧٩.

(٢) في ظلال القرآن٥/٢٦٤٦.

الأنفال: ٣٠، قال عروة بن الزبير[١]:"أي: فمكرت بهم بكيدي المتين، حتى خلّصتك منهم"[٢]، وقال الطبري بعد ذكره الآثار الواردة في تفسير الآية:"تأويل الكلام إذًا: واذكر يا محمد؛ نعمتي عندك، بمكري بمن حاول المكرَ بك من مشركي قومك؛ بإثباتك، أو قتلك، أو إخراجك من وطنك؛ حتى استنقذتك منهم وأهلكتهم"[٣]، فالآية المدَنِيَّة فيها تذكير بما كان عليه الحال بمكة، ثم تغيّرت الحال فانتصر النبي-ﷺ- على أولئك الذين كانوا يمكرون به؛ فلم يقتصر الأمرُ على مجرد نجاته؛ بل آل إلى غلبته وانتصاره عليهم[٤].

فليطمئن من سلك الطريق الذي رسمه القرآن للنجاة من كيد الكائدين؛ ولينم قرير العين؛ فعين الله ترعاه، وما دام أن الحافظ الله؛ فإن تدبير الأعداء متبَّرٌ وباطل.

---

(١) عروة بن الزبير بن العوام(٢٢ - ٩٣ هـ)، أبو عبد الله. أحد الفقهاء السبعة. كان عالما، كثير الأحاديث-بحراً لا ينزف-، صالحا، كريما، لم يدخل في شيء من الفتن. أصابته الآكلة في رجله؛ فقطعت وهو ساجد؛ فلم يتحرك، ولم يترك ورده تلك الليلة. وكان يثلم جدار حائطه إذا كان وقت التمر؛ فيدخل الناس ويأكلون ويحملون. عاش في المدينة، وانتقل إلى البصرة، ثم إلى مصر؛ فتزوج، وأقام سبع سنين. ثم عاد إلى المدينة فتوفي فيها.[انظر: وفيات الأعيان٣/٢٥٥، والأعلام٤/٢٢٦].

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٥/١٦٨٨.

(٣) تفسير الطبري١٣/٥٠٢.

(٤) انظر: في ظلال القرآن٣/١٥٠١.

النجاة من الشياطين، (شرهم، وحضورهم، وهمزاتهم)

تحدث القرآن عن هذه النجاة، ووسائلها؛ في آياتٍ منها:

قول الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ المؤمنون: ٩٧ ــ ٩٨

وقوله سبحانه؛ ذاكراً دعاء امرأة عمران: ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ آل عمران: ٣٦

وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ﴾ الناس: ١ - ٤

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الأعراف: ٢٠٠.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء: ٨٣

صعوبة النجاة من كيد الشياطين:

إذا كان خفاء كيد الماكرين يزيد من صعوبة نجاة الإنسان منه، فإن من الواضح أن هذه الصعوبة ستزداد في نجاته من شياطين الجن؛ وذلك لأن الشياطين يخفى مكرهم، كما يخفون هم أيضاً، مما يزيد المؤونة على الإنسان في مجابهة هذا العدو. قال الله تعالى منبهاً إلى ذلك: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ الأعراف: ٢٧، فالشيطان يفسد في عقل الإنسان وفي تصوره من غير أن يحس الإنسان بتأثير

الشيطان فيهما؛ إلا من هداه الله للإيمان، فإنه بسبب ما عنده من العلم الشرعي؛ يعرِّف أن هذا العمل المعين، وهذا الوسواس المعين؛ إنما هو من أمر الشيطان؛ حينما يرى مخالفته للحق الذي جاء به القرآن أو السنة؛ فيبصر عندها، ويميز الحق من الباطل؛ كما بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠١، وأما غير المتقين فإن الشياطين إخوانهم؛ فهم يمدونهم في الغي من غير أن يشعروا، كما بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠٢؛ ففي الآيتين"خبرٌ من الله عن فريقي الإيمان والكفر، بأن فريق الإيمان وأهل تقوى الله إذا استزلهم الشيطان تذكروا عظمة الله وعقابه؛ فكفَّتهم رهبته عن معاصيه، وردّتهم إلى التوبة والإنابة إلى الله مما كان منهم زلَّةً. وأن فريق الكافرين يزيدهم الشيطان غيًّا إلى غيهم؛ إذا ركبوا معصية من معاصي الله؛ لا يحجزهم تقوى الله، ولا خوف المعاد إليه؛ عن التمادي فيها، والزيادة منها، فهو أبدًا في زيادة من ركوب الإثم، والشيطان يزيده أبدًا"[1].

وبالإضافة إلى خفاء الشيطان ومكره، فإنه شديد العداوة للإنسان، مما يزيد من أهمية السعي للنجاة منه. إن الشيطان هو أعدى أعداء الإنسان على الإطلاق، كما بيّن الله ذلك في قوله:﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ يوسف: ٥، وقد بدأت عداوته للإنسان من بداية خلق الله للإنسان، فأظهر حسده وحقده عليه، حين أبى الخضوع لأمر الله له بالسجود لآدم؛ استصغارا لآدم، وللمادة التي خلق منها، قال الله تعالى:﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾ الإسراء: ٦١.

---

(١) تفسير الطبري١٣/٣٣٨.

الشيطان هو أصل الشرور بالنسبة للإنسان، وكل من يعادي الإنسان فإن عداوته متولدة عن عداوة الشيطان، وما النفس الأمارة بالسوء إلا جندي من جنوده،"وتحذير الرب تعالى لعباده منه؛ جاء أكثر من تحذيره من النفس؛ وهذا هو الذي لا ينبغي غيره؛ فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته"(١).

أهمية النجاة من كيد الشياطين:

للشيطان دور كبير في مصائب الإنسان من فساد التصور"فهو يزين للنفس السيئات ويريها أنها في صور المنافع واللذات والطيبات ويغفلها عن مطالعتها"(٢) كما قال الله سبحانه:﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ النحل: ٦٣، وكذلك فهو مؤثر في فساد عقل الإنسان؛ كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ البقرة: ٢٧٥. قال الطبري:"يتخبله من مَسِّه إياه. يقال منه: قد مُسّ الرجل وأُلِق، فهو مَمسوس ومَألوق"، كل ذلك إذا ألمَّ به اللَّمَمُ؛ فجُنّ"(٣)؛ فهناك أنواعٌ كثيرة من الجنون الذي يصيب الإنسان؛ مصدرها الشيطان(٤).

والله تعالى بحكمته أعطى الشيطان القدرة على الوصول إلى ذهن الإنسان وعقله وقلبه – يوسوس، ويزين، ويؤثر– ليميز بين عباده فمنهم يستجيب لما يأمر به الشيطان ومنهم من يؤمن بالآخرة؛ قال الله تعالى في قصة سبأ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا

---

(١) إغاثة اللهفان ١/٩٠.

(٢) شفاء العليل ص١٧١.

(٣) تفسير الطبري٦/١١.

(٤) انظر: زاد المعاد٤/٦٠.

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾ سبا: ٢٠ – ٢١.

وهو يستغل ما أعطاه الله من الإمكانيات لإغواء الإنسان، ويعمل كل جهده ليضل الإنسان ويعميه عن طريق الحق؛ وقد عرف هذا أنبياء الله ورسله عليهم السلام، بما أعطاهم الله من العلم؛ فهذا موسى –عليه السلام– يقول حين قتل القبطي ما ذكره الله عنه في قوله: ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ القصص: ١٥.

طرق النجاة من الشيطان:

بيّن القرآن طرقاً عديدة للنجاة من هذا العدو وإخوانه الشياطين، وأوضحها أعظم إيضاح، ولا يمكن أن تجد مثل ذلك في غير القرآن الكريم.

فمن الطرق: **معرفة الحقائق السابقة**، وقد بينها القرآن الكريم، حيث إن معرفة الإنسان بها وتصوره لها باعث له للحذر من هذا العدو، وداعياً له للبحث عن طرق التحرز منه.

ومنها: **التنبيه إلى أن عداوته متأصلة** في نفسه؛ فلا يمكن أن ينفع معه اللين أو الملاطفة أو الاستجابة لبعض ما يأمر به، بل وجّه القرآن الإنسان إلى أن يحسم أمره معه حسماً، ويذكّر القرآن الأبناء بموقفه مع الآباء[1]؛ قال الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف: ٢٧.

ومنها: **التوكل والإيمان**، فهما كفيلان برد كيده، بل كفيلان بالوقاية منه أصلاً؛ فإن سلطانه منتفٍ عمن اتصف بهذين الوصفين، كما قال الله تعالى في وصفه: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١/١١٠، و٣/٥٣٣.

سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ النحل: ٩٩، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ الحجر: ٤٢، وقوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ الإسراء: ٦٥.

ومنها: **معرفة حقيقة ما يدعو إليه**، فهو إنما يدعو إلى الباطل والهلاك والفواحش، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ البقرة: ٢٦٨، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ فاطر: ٦، وقال الله سبحانه ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾ النساء: ٦٠، والشيطان يدعو إلى الضلالة ووعوده خداع وكذب، كما قال الله تعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾ النساء: ١١٧ – ١٢١، ويهدف من دعواته إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ المائدة: ٩١.

وقال سبحانه: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ الإسراء: ٥٣.

ومنها: **الطهارة من الحدثين: الأكبر، والأصغر**، وهذا ما بينه الله تعالى في قوله: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ الأنفال: ١١، "الرجز يطلق على: القذر، وعبادة الأوثان، والعذاب، والشرك"[1]، قال ابن كثير: "قوله: {ليطهركم به} أي: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر، {ويذهب عنكم رجز الشيطان} أي: من وسوسة أو خاطر سيئ، وهو تطهير الباطن"[2].

ومن أعظم الطرق للوقاية من الشيطان: **الاستعاذة بالله منه**: وقد أنزل الله سورة كاملة في كتابه؛ مخصصة للاستعاذة بالله منه؛ وهي سورة الناس، التي يقول الله تعالى فيها- معلماً عباده- الاستعاذة به منه: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾ الناس: ١ – ٦، وأمر بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ النحل: ٩٨، وأمر بالاستعاذة منه عند الشعور بنزغه، قال الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ فصلت: ٣٦. وهذا كما أنه يستعان على رد الكلاب برب الكلاب؛ قال القرطبي في تفسير قول الله تعالى: (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ): "أي اطلب

---

(١) نظم الدرر ٣/١٩٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٢٤.

النجاة من ذلك بالله. فأمر تعالى أن يدفع الوسوسة بالالتجاء إليه والاستعاذة به؛ ولله المثل الأعلى. فأمثل مَنْ يستعاذ به من الكلاب رب الكلاب. وقد حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: هذا يطول، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها، ومنع من العبور؛ ما تصنع؟ قال: أكابده، وأرده جهدي. قال: هذا يطول عليك، ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك"[(١)].

ومن ما بيّنه القرآن من طرق الوقاية من الشيطان: **بيان ضعف كيده، فهذا يقوي عزيمة المؤمن في مجابتهة:** كما في قول الله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾ النساء: ٧٦، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: "إِذَا رَأَيْتُمُ الشَّيْطَانَ فَلا تَخَافُوهُ وَاحْمِلُوا عَلَيْهِ، {**إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا** }[(٢)]، قال مجاهد:" كان الشيطان يتراءى لي في الصلاة؛ فكنت أذكر قول ابن عباس فأحمل عليه فيذهب عني"[(٣)].

---

(١) تفسير القرطبي٧/٣٤٨.

(٢) أخرجه ابن المنذر في تفسيره٢/٧٩٣، وابن أبي حاتم في تفسيره٣/١٠٠٣.

(٣) أخرجه ابن المنذر في تفسيره٢/٧٩٣، وانظر: الدر المنثور٢/٥٩٣.

ضعف كيد الشيطان جاء من عدة أوجه:

أولاً- أن الله لم يجعل له سلطاناً ابتداء البتة، ولكن أولياءه يسلّطونه على أنفسهم بطاعته ودخولهم في حزبه[1]، كما بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ إبراهيم: ٢٢.

ثانياً- أن الله لم يجعل له حجة لما يدعو إليه من الضلالة -كما بينته الآية السابقة- فهم أجابوه بلا حجة ولا دليل له عليهم، وسلطانه عليهم كان مجرد قدرته على الوسوسة والوصول إلى الأذهان.

ثالثاً: الطرق المتعددة التي بيّنها الله في كتابه لرد كيده ووسوسته- وهي التي سبق عرض شيء منها-.

فالشيطان كله شرٌ على الإنسان؛ ولعل هذا يُفسر ما مرّ في الآيات السابقة؛ من أن الله تعالى أمر بالاستعاذة منه جملة وتفصيلاً؛ فأمره بالاستعاذة منه جملة واضح؛ وأما التفصيل؛ فإنك تجد أن الله تعالى أمر بالاستعاذة من وسوسته في قوله سبحانه: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ﴾ الناس: ٤، وأمر بالاستعاذة من همزاته، في قوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ ﴾ المؤمنون: ٩٧ ومن حضوره، في قوله: ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ المؤمنون: ٩٨؛ وذكر نبيُه موسى -عليه السلام- أثر عمله على الإنسان؛ في قوله: ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ القصص: ١٥ وذكر ربنا -سبحانه- أن للشيطان رجز في قوله: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ الأنفال: ١١.

---

(١) انظر:عدة الصابرين ص١٧، وأضواء البيان٣/٤٤٥.

وبهذا يتبيّن أن النجاة من الشيطان أعظم نعمة على الإنسان، فبها تصلح أمور دينه ودنياه.

النجاة من السحرة وأفعالهم

قال الله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾ الفلق: ٤.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٠٢.

إن كان القرآن قد علّم الإنسان كيف ينجو من شياطين الجن-كما سبق- فإنه قد وجهه إلى طريق النجاة من السحر.

حقيقة السحر:

السحر ينتج عن تعاونٍ بين شياطين الإنس والجن من أجل الإضرار بالإنسان. فهو اندماج بين أشرار مختفين، وأشرار محسوسين، فالأشرار المختفون: شياطين الجن- والأشرار المحسوسون:هم السحرة.

ومن جانبٍ آخر فإن السحر يحصل من أعمال محسوسة؛ عبارة عن عُقَدٍ، وأدوية، وتدخينات، تؤثر بطريقة غير محسوسة؛ فينتج عنها أضرار معينة، وهذا واضح من تعريف السحر لغة؛ فـ"كل ما لطُف مأخذه ودق؛ فهو سحر"[(١)].

وقد تعددت تعريفات السحر اصطلاحاً[(٢)]، وسبب تعددها تركيز بعضهم على الجانب المحسوس منه، فيعرفه: بأنه عُقدٌ. وبعضهم يركز على الجانب الخفي منه، فيعرفه: بأنه أمر خارق. ويمكن أن يستخلص تعريف جامع مانع للسحر من جمع تلك التعاريف التي ذكروها؛ فيقال: السحر: **تأثيرات شياطين الجن على عقل إنسان، أو قلبه، أو بدنه، أو حواسه؛ بواسطة عُقَدٍ، ورقى، وأدوية، وتدخينات، ونحوها؛ يفعلها إنسي شرير متعاونٌ معهم**[(٣)].

---

(١) الصحاح؛ مادة(سحر).

(٢) انظر: المغني لابن قدامة ١٠/١٠٤، والنبوات لابن تيمية ص٨٢٦. وبدائع الفوائد٢/٤٤٧، وروح البيان٥/٣١٠.

(٣) أي: يتعاون الشرير الإنسي مع شياطين الجن؛ فيتقرّب إليهم بالذبح لهم أو إهانة المصحف أو غيرها.

فتأثيره على العقل: بالخبل، وفساد التصور.

وعلى القلب: بحب ما يكره، أو كُره ما يحب؛ عن طريق الصرف والعطف.

وعلى البدن: بالمرض، أو الموت.

وعلى الحواس: بالتخييل، أو الخَدْع[١].

ويعتقد كثيرون أن السحر خارق للعادة[٢]، لكن بيّن ابن تيمية عدم صحة هذا الظن[٣].

إن السحرة أشرار؛ يتعاونون مع الجن للإضرار بالإنسان، والسحر نفسه من أقوى الأسباب تأثيراً، حتى أن بعض الناس يكاد يجزم بأن تأثيره حتمي، وأنه لا خلاص منه إلا بسحرٍ يضاده- ولا شك بخطأ هذا الظن، لكنه يدلك على قوة هذا السبب في الإضرار.

طرق النجاة من السحر:

النجاة من السحرة وأعمالهم مطلبٌ عزيزٌ، وقد أرشد القرآن إلى الطرق المؤدية إليه، وبتأمل بعض الآيات يمكن استخلاص طرق النجاة تلك؛ فمنها:

- **الالتجاء إلى الله ليرفعه بعد حصوله، ويدفعه قبل وقوعه**؛ فالسحر واحدٌ من أربع شرور علَّم الله عباده في سورة الفلق أن يلتجئوا إليه لينجيهم منها، فالسحر هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾ الفلق:٤، فالنفاثات هن"السواحر اللّاتي ينفُثن في عُقَد الخيط، حين يَرْقِين عليها"[٤]، وقال مقاتل:(ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ) يعني: السحر

(١) انظر: المغني لابن قدامة١٠/١٠٤، والنبوات لابن تيميةص٨٢٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب٢١/٧٢، ونظم الدرر١/٢٠٧، وروح المعاني١/٣٣٨.

(٣) انظر:النبوات ص٨٢٦؛ حيث يقول:"وسحر السحرة؛ بحيث يموت الإنسان من السحر، أو يمرض، ويُمنع من النكاح، ونحو ذلك مما هو بإعانة الشياطين: فهذا أمرٌ موجودٌ في العالم، كثيرٌ، معتادٌ، يعرفه الناس، ليس هذا من خرق العادة، بل هو من العجائب الغريبة التي يختص بها بعض الناس".

(٤) تفسير الطبري٢٤/٧٠٤.

وآلاته"[١]، ففي السورة أمرٌ أو تعليم لجميع الخلائق المربوبين المقهورين الذين لا نجاة لهم في شيء من الضرر إلا بعصمته سبحانه وتعالى؛ أن يفزع كل واحدٍ منهم أول ما تصيبه المصيبة إلى مولاه القادر على كشفها[٢]، فعلَّم الله عباده الاستعاذة به سبحانه للنجاة من السحر، والسحرة.

• **معرفة أن السحرة لا يضر سحرهم أحداً إلا بإذن الله**، وهذا واضح من قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ البقرة: ١٠٢؛ أي لا يضرون بسحرهم"أحداً من الناس إلا من قد قضى الله عليه أن ذلك يضره؛ فأما من دفع الله عنه ضره، وحفظه من مكروه السحر والنفث والرُّقى، فإن ذلك غير ضاره، ولا نائله أذاه"[٣]، فمن أراد الله نجاته منهم ومن سحرهم أنجاه؛ وهذا يزرع في نفس المؤمن قوة الاعتماد على الله؛ وقلة المبالاة بقوة السحر وقدرة السحرة؛ فإنها ضعيفة بجانب قدرة الله، فهذا من كمال العقل، وكمال العقل يُضْعِف تأثير السحر؛ كما أفاده ابن تيمية[٤].

• **الرقية بالمعوذتين**؛ فإنهما من الأوراد القرآنية التي ترد السحر، وتنقضه، ففي حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي -ﷺ- سُحر[٥]، في وَتَرٍ فيه إحدى عشرة عقدة؛

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان٣/٥٣٧.

(٢) انظر:نظم الدرر٨/٦٠٣.

(٣) تفسير الطبري٢/٤٤٩.

(٤) انظر: الصفدية٢/٢٢٢.

(٥) **تنبيه**: أنكر ذلك بعض المبتدعة، ومن أحسن الظن بهم؛ لظنهم أن ذلك ينافي عصمته، وأنه يتوافق مع قول المشركين الذي ذكره الله تعالى بقوله: (إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا) الإسراء:٤٧. ولكن نفي هؤلاء المبتدعة لذلك؛ مردود؛ فإن سحره ثابت في الصحيحين وغيرهما، والسحر الذي قصده المشركون؛ هو السحر الذي يؤثر على العقل، أما السحر الذي يؤثر على قدرة البدن والحواس؛ فهو مرضٌ بدني مثل سائر الأمراض، ولا يقدح ذلك في عصمته. قال القاضي عياض: السحر مرض من الأمراض،وعارض من العلل؛ يجوز عليه[يعني النبي -ﷺ-] كأنواع الأمراض؛ مما لا ينكر ولا يقدح في

فأنزلت عليه هاتان السورتان؛ فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة؛ (قل أعوذ برب الفلق) و(قل أعوذ برب الناس)[١]. وعن زيد بن أرقم[٢] -ﷺ- قال:"سَحَرَ النَّبِيَّ -ﷺ- رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ[٣]، فَاشْتَكَى، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَقَالَ: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، وَالسِّحْرُ فِي بِئْرِ فُلَانٍ، فَأَرْسَلَ عَلِيًّا -ﷺ- ، فَجَاءَ بِهِ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَحِلَّ الْعُقَدَ، وَيَقْرَأَ آيَةً، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيَحِلُّ، حَتَّى قَامَ النَّبِيُّ -ﷺ- كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ"[٤].

• **التوكل على الله:** ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ الطلاق: ٣ ؛ فالتوكل له أثرٌ عجيب في دفع الشرور، ورفعها؛ وقد جاء الله تعالى بما يقوي التوكل في قلب المؤمن في شأن السحر خاصة؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٠٢؛ وقد سبق بيان تفسيرها.

نبوته... وقد جَاءَتْ رِوَايَات هَذَا الْحَدِيث مُبَيِّنَة أَنَّ السِّحْر إِنَّمَا تَسَلَّطَ عَلَى جَسَده، وَظَوَاهِر جَوَارِحه، لَا عَلَى عَقْله وَقَلْبه وَاعْتِقَاده". وقال النووي:"وَكُلّ مَا جَاءَ فِي الرِّوَايَات مِنْ أَنَّهُ يُخَيَّل إِلَيْهِ فِعْل شَيْء ثُمَّ لَا يَفْعَلهُ، وَنَحْوه؛ فَمَحْمُول عَلَى التَّخَيُّل بِالْبَصَرِ، لَا لِخَلَلٍ تَطَرَّقَ إِلَى الْعَقْل، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يَدْخُل لَبْسًا عَلَى الرِّسَالَة، وَلَا طَعْنًا لِأَهْلِ الضَّلَالَة. وَاللَّه أَعْلَم"[انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض٢/١٨١، وشرح صحيح مسلم للنووي١٤/١٧٥].

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة٦/٢٤٨؛ باب ما جاء في دعائه ربه عز وجل فيما سحر به، وإجابة الله سبحانه إياه فيما دعاه.

(٢) زيد بن أرقم(...-٦٨هـ) بن زيد بن قيس، الأنصاري، الخزرجي، من مشاهير الصحابة-ﷺ-، نشأ يتيماً، واستصغره النبي -ﷺ- يوم أحد، وشهد مؤتة وما بعدها. وشهد صفين مع علي -ﷺ-. عمي بعد موت النبي -ﷺ- ثم رد الله عليه بصره.[انظر: سير أعلام النبلاء٣/١٦٥، والأعلام٣/٥٦].

(٣) هو لبيد بن الأعصم. [انظر:صحيح البخاري٧/١٧٨حديث٥٧٦٦،كتاب الطب، باب السحر، وصحيح مسلم٤/١٧١٩حديث٢١٨٩؛ باب الطب والمرض والرقى، باب السحر].

(٤) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار١٥/١٨٠حديث٥٩٣٥؛ بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ الْوَاجِبِ فِيمَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ بَقَاءِ السِّحْرِ، هَلْ يَعْمَلُ شَيْئًا، وَمِنْ بُطْلَانِهِ حَتَّى لَا يَعْمَلَ، مِمَّا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- فِي ذَلِكَ.

وبهذا يتبين أن النجاة من السحر ليست مستحيلة، بل ممكنة، والله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

النجاة من الحاسدين

يلجأ المؤمن إلى ربه؛ مستعيذاً به؛ للنجاة من شر الحاسدين، فبهذا يكون ممتثلاً التوجيه الذي في سورة الفلق؛ ففي السورة أمرٌ أو تعليم لجميع الخلائق المربوبين المقهورين، الذين لا نجاة لهم في شيء من الضرر إلا بعصمته سبحانه وتعالى؛ أن يفزع كل واحدٍ منهم أول ما تصيبه المصيبة إلى مولاه القادر على كشفها في الشرور المذكورة فيها(١)؛ ومن بين تلك الشرور:الحسد.

والحسد: تمني زوال النعمة عن الغير فقط(٢)، أو مع انتقالها إلى الحاسد(٣)، وقيل: بغض نعمة الله على الغير(٤)، وقيل: بغض نعمة الله على الغير، وتمني زوالها عنه(٥).

الله تعالى ذكر حسد الحاسد في سورة الفلق؛ في قوله:﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ الفلق:٥. قال قتادة في تفسيرها:"مِنْ شَرِّ عَيْنِهِ، وَنَفْسِهِ"(٦)؛ وقيده بقوله:(إذا حسد) يعني:"إذا أظهر ما في نفسه من الحسد، وعمل بمقتضاه، وحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود"(٧)"لأن

---

(١) انظر:نظم الدرر٨/٦٠٣.

(٢) انظر: تاج العروس؛ مادة (حسد).

(٣) انظر: الصحاح؛ مادة(حسد)، والفروق لأبي هلال العسكري١/٣٨٢

(٤) انظر: تاج العروس؛ مادة(حسد).

فائدة: إذا كان مجرد بغض نعمة الله على الغير يسمى حسداً؛ فإنه لا يكاد أحد ينجو منه، قال ابن تيمية:وهو مَرَضٌ غَالِبٌ فَلَا يَخْلُصُ مِنْهُ إلَّا قَلِيلٌ مِنْ النَّاسِ، وَلِهَذَا يُقَالُ: مَا خَلَا جَسَدٌ مِنْ حَسَدٍ، لَكِنَّ اللَّئِيمَ يُبْدِيهِ وَالْكَرِيمَ يُخْفِيهِ؛ قال الحسن: عمه في صدرك فإنه لا يضرك ما لم تَعْدُ به يدا ولسانا. فمن وجد في نفسه حسدا لغيره؛ فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر؛ فيكره ذلك من نفسه"[انظر: مجموع الفتاوى١٠/١٢٤].

(٥) انظر:المصباح المنير؛ مادة(حسد).

(٦) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره٣/٤٧٧، والطبري في تفسيره٢٤/٧٠٥.

(٧) فتح القدير٥/٧٤٢.

الحاسد إذا أخفى الحسد، ولم يعامل أخاه إلا بما يحبه الله؛ لم يضره، ولم يضر المحسود"[١] قاله الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وقال الحسن:"عَمِه في صدرك فإنه لا يضرك"[٢]؛ وكأن هذا – والله أعلم- إذا لم يُتبع نفسه ما يضمره من الحسد؛ وإلا فإنه إذا لم يُدافع الحسد الذي يخفيه؛ فإنه يضر المحسود، وسيتضح هذا من كلام ابن القيم الآتي.

إن تعليم الله لنا؛ الالتجاء إليه للنجاة من شر الحاسد نعمة عظيمة، لأنه كان من الممكن-لولا تعليم الله لنا- أن نجهل ضرر الحاسد إذا حسد، وأن نظن أنه يحتاج إلى أشياء مادية محسوسة؛ ليوصل الضرر إلينا، ولكن الله علمنا حقيقة ينكرها الماديون، وهي ما ذكرها ابن القيم في قوله:"دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذي المحسود؛ فنفس حسده شر يتصل بالمحسود من نفسه وعينه؛ وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه"[٣].

والاستعاذة من الحاسد، تشمل الاستعاذة من العائن، وقد سبق نقل تفسير قتادة للآية؛ حيث قال:"مِنْ شَرِّ عَيْنِهِ، وَنَفْسِهِ"[٤]، قال ابن القيم:"كل عائن حاسد، وليس كل حاسد عائناً؛ فلما كان الحاسد أعم من العائن، كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن"[٥].

إن حسد الحاسد يضر بلا قوس ولا وتر، وهنا تأتي فائدة التحصن بالله، والاستعاذة به؛ لتحصل النجاة، فالأوراد، والأذكار، والتعوذات؛ تحصينات تمنع تأثيره. قال ابن القيم عن العين:"هي سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين؛ تصيبه تارة وتخطئه تارة، فإن صادفته مكشوفا لا وقاية عليه؛ أثرت فيه، ولا بد، وإن صادفته حذرا شاكى السلاح لا منفذ فيه للسهام؛ لم تؤثر فيه، وربما ردت السهام على صاحبها، وهذا بمثابة الرمي الحسي سواء، فهذا من النفوس والأرواح، وذاك من الأجسام والأشباح"[٦]، وقال:"قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود، لاه عنه، فإذا خطر على ذكره وقلبه؛ انبعث نار الحسد

---

(١) الدرر السنية١/٣٨٦.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى١٠/١٢٤.

(٣) بدائع الفوائد٢/٤٥٣.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره٣/٤٧٧، والطبري في تفسيره٢٤/٧٠٥.

(٥) زاد المعاد٤/١٤٩.

(٦) المرجع السابق.

من قلبه إليه، وتوجهت إليه سهام الحسد من قبله؛ فيتأذى المحسود بمجرد ذلك. فإن لم يستعذ باللّه ويتحصن به، ويكون له أوراد من الأذكار؛ والدعوات، والتوجه إلى اللّه، والإقبال عليه؛ بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على اللّه، وإلا ناله شر الحاسد ولا بد، فقوله تعالى: (إِذا حَسَدَ) بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل"[1]. وقال سيد قطب:"الحسد انفعال نفسي إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمني زوالها. وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال بسعي منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ، أو وقف عند حد الانفعال النفسي، فإن شراً يمكن أن يعقب هذا الانفعال. ونحن مضطرون أن نطامن من حدة النفي لما لا نعرف من أسرار هذا الوجود، وأسرار النفس البشرية، وأسرار هذا الجهاز الإنساني. فهنالك وقائع كثيرة تصدر عن هذه الأسرار، ولا نملك لها حتى اليوم تعليلا... فإذا حسد الحاسد، ووجه انفعالا نفسيا معينا إلى المحسود، فلا سبيل لنفي أثر هذا التوجيه لمجرد أن ما لدينا من العلم وأدوات الاختبار، لا تصل إلى سر هذا الأثر وكيفيته. فنحن لا ندري إلا القليل في هذا الميدان. وهذا القليل يكشف لنا عنه مصادفة في الغالب، ثم يستقر كحقيقة واقعة بعد ذلك! فهنا شر يستعاذ منه بالله، ويستجار منه بحماه..والله برحمته وفضله هو الذي يوجه رسوله – ﷺ– وأمته من ورائه إلى الاستعاذة به من هذه الشرور. ومن المقطوع به أنهم متى استعاذوا به – وفق توجيهه – أعاذهم. وحماهم من هذه الشرور إجمالا وتفصيلا"[2].

الحسد يكون على نعمة الدين، ويكون على نعمة الدنيا:

أوضح القرآن ذلك، فقد يُحسد الإنسان على صلاته، أو صيامه، أو خشوعه، أو زهده؛ فيتضرر بذلك إن لم يعذه الله ويحميه. ولقد كان حسد اليهود للنبي –ﷺ– على نعمة الرسالة، حسداً على نعمة الدين، وقد ذكر الله هذا الحسد بقوله: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ النساء: ٥٤، قال الضحاك:"هم اليهود؛ قالوا:"ما شأن محمد أُعطي النبوّة كما يزعم، وهو جائع عارٍ، وليس

(١) بدائع الفوائد٢/٤٥٤.

(٢) في ظلال القرآن٦/٤٠٠٨.

له هم إلا نكاحُ النساء"[١]، فاليهود حسدوا النبي-ﷺ- على نعمة الرسالة التي أنعم الله بها عليه، فحسدهم إياه إنما هو على هذه النعمة الدينية التي أنعم الله بها على محمد-ﷺ-.

ومن ذلك أيضاً حسد اليهود المسلمين على نعمة الإسلام التي ذكرها الله بقوله:﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ البقرة: ١٠٩، قال الطبري: يعني جل ثناؤه بقوله:(كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم)، أن كثيرا من أهل الكتاب يودون للمؤمنين الردة عن إيمانهم إلى الكفر، حسداً منهم وبغيا عليهم[٢]. فيكفي الحاسد ذماً أنه متشبه باليهود.

وذكر القرآن أيضاً النوع الثاني من الحسد؛ وهو الحسد على نعمة دنيوية، فيما ذكره الله تعالى من قول يعقوب -عليه السلام- لابنه يوسف -عليه السلام-:﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ يوسف: ٥، قال الطبري:"يقول: فاحذر الشيطان أن يغريَ إخوتك بك بالحسد منهم لك، إن أنت قصصت عليهم رؤياك"[٣]، وقال ابن كثير:"خشي يعقوب-عليه السلام- أن يحدِّث بهذا المنام أحداً من إخوته؛ فيحسدوه على ذلك، فيبغوا له الغوائل، حسداً منهم له"[٤]، يحسدوه على نعمة دنيوية، وهي ما تدل عليه"هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيما زائدا، بحيث يخرون له ساجدين إجلالا وإكراما واحتراما"[٥] وقال السعدي:"حسداً من عند أنفسهم، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم"[٦].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٨/٤٧٩.

(٢) انظر: تفسير الطبري٢/٥٠٠.

(٣) المرجع السابق١٥/٥٥٨.

(٤) تفسير ابن كثير٤/٣٧١.

(٥) انظر: المرجع السابق.

(٦) تفسير السعدي ص ٣٩٣.

وقد دل القرآن على أن الحسد يكون من الجن، ويكون من الإنس؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾ الفلق: ٥، فلم يخصه بالإنس؛ قال ابن القيم:"قوله: (وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) يعم الحاسد من الجن والإنس؛ فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ما آتاهم اللّه من فضله؛ كما حسد إبليس أبانا آدم، وهو عدو لذريته، ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن، والحسد أخص بشياطين الإنس"(١)، وما جاءت الاستعاذة من حسد الجن إلا لأن لها من الأثر مثل ما لحسد الإنس، وهذا ما دلت عليه السنة أيضاً؛ فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ(٢) -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ-، رَأَى فِي بَيْتِهَا جَارِيَةً فِي وَجْهِهَا سَفْعَةٌ(٣)؛ فَقَالَ:"اسْتَرْقُوا لَهَا فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ"(٤)، قال البغوي:"أراد بالنظرة: العين، يقول: بها عين أصابتها من نظر الجن، وقيل: عيون الجن أنفذ من أسنة الرماح"(٥).

إذا كان القرآن قد شخص الداء، فقد وصف الدواء للسلامة والنجاة من هذا الداء، إن الدواء هو الالتجاء إلى الله بالاستعاذة به سبحانه، للدفع قبل الوقوع، وللرفع بعده، فالاستعاذة

---

(١) انظر: بدائع الفوائد٢/٤٦٠.

(٢) أم سلمة (...-٦١ أو ٥٩هـ): هند بنت أبي أمية بن المغيرة، المخزومية، القرشية. أم المؤمنين، كان أبوها من أجواد العرب المشهورين. وكانت من أجمل النساء. تزوجها النبي-ﷺ- بعد موت زوجها أبي سلمة -ابن عمها ﷺ-. وكانت هي وزوجها من أول من هاجر إلى الحبشة، وهي أول مهاجرة إلى المدينة. ومن أخبارها أنها دخلت على سيد المرسلين-ﷺ- أول العشاء عروسًا، وقامت من آخر الليل تطحن. ماتت لما جاءها نعي الحسين -ﷺ-، ودفنت بالبقيع، وهي آخر أمهات المؤمنين موتاً.[انظر: الاستيعاب٤/١٩٢٠، والإصابة٨/١٥٠]

(٣) اختلف علماء اللغة في تفسير السفعة، فقيل: صفرة، وقيل:حمرة، وقيل: سواد؛ لكن قال ابن حجر: كلها متقاربة، وحاصلها **أن بوجهها موضعا على غير لونه الأصلي**؛ وكأن الاختلاف بحسب اللون الأصلي، فإن كان أحمر فالسفعة سواد صرف؛ وأن كان أبيض فالسفعة صفرة ؛وإن كان أسمر فالسفعة حمرة يعلوها سواد[انظر:فتح الباري١٠/٢٠٢].

(٤) أخرجه البخاري٧/١٧١حديث٥٧٣٩،كتاب المرضى، باب رقية العين.

(٥) شرح السنة١٢/١٦٣.

تكون قبل وقوع أثر الحسد، ولذلك يشرع قراءة المعوذتين كل ليلة عند النوم[١]. أما بعد وقوع العين؛ فواضح من أثرهما في الرقية.

وأيضاً- التوكل على الله، فالله يكفي من توكل عليه كل شيء- كما سبق-.

وستقرأ-بمشيئة الله- المزيد من وسائل النجاة في الفصل الخاص بها من هذه الرسالة.

مقارنة بين السحر والحسد

يحسن في ختام الكلام عن الحسد، نقل كلام نفيس لابن القيم في المقارنة بين السحر والحسد؛ حيث بيّن أن الشيطان يقارن الساحر والحاسد، ويحادثهما، ويصاحبهما. ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه لهم؛ لأن الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من أتباعه؛ لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس، وزوال نعم اللّه عنهم، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله، وأبى أن يسجد له حسدا، فالحاسد من جند إبليس. وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه، ويستعينه، وربما يعبده من دون اللّه؛ حتى يقضي له حاجته، وربما يسجد له. وفي كتب السحر والسر المكتوم من هذا عجائب، ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة للّه ولرسوله ولعباده المؤمنين؛ كان سحره أقوى وأنفذ، وكان سحر عُبَّاد الأصنام أقوى من أهل الكتاب، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام، وهم[٢] الذين سحروا رسول اللّه -ﷺ-، والساحر والحاسد كل منهما قصده الشر، لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود، والشيطان يقترن به ويعينه، ويزين له حسده، ويأمره بموجبه. والساحر بعلمه، وكسبه، واستعانته بالشياطين[٣].

---

(١) كان النبي -ﷺ- إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما (قل هو الله أحد) و (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده؛ يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات"[أخرجه البخاري٦/٢٣٣حديث ٥٠١٧؛ كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذتين].

(٢) يعني: اليهود.

(٣) انظر: بدائع الفوائد٢/٤٥٩.

النجاة من الظالمين.

تحدث القرآن الكريم عن النجاة من الظالمين في آياتٍ منها:

قول الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ القصص: ٢١

وقوله: ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ القصص: ٢٥

وقوله: ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ التحريم: ١١

وقوله: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المؤمنون: ٢٨.

معنى الظلم لغة:

أصل الظلم على قول بعض اللغويين: وضع الشيء في غير موضعه؛ ومنه قولهم: من شابه أباه فما ظلم: أي ما وضع الشبه في غير موضعه[١]؛ وقال بعضهم:"أصلُ الظُّلم: الجَوْرُ، ومُجاوزَةُ الحدِّ"[٢]، وأفاد الجرجاني[٣] أن الأول هو أصل معناه اللغوي، وأن الثاني هو معناه الشرعي[٤]؛ وقد توسع أهل اللغة في استعماله حتى سموا كل عسفٍ ظلما[٥]؛"ثم يتفرع من الظلم معان"[١]،

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن ص ٢٥٨، وجمهرة اللغة؛مادة(ظلم)، والمفردات للراغب الأصفهاني؛مادة(ظلم).

(٢) النهاية لابن الأثير؛مادة(ظلم)؛ وانظر: البحر المحيط١/٥٠١.

(٣) الجرجاني (٧٤٠ - ٨١٦ هـ):علي بن محمد بن علي الجرجاني، الحسيني، الحنفي، ويعرف بالسيد الشريف.أبو الحسن.عالم، فيلسوف، من كبار العلماء بالعربية، حكيم، مشارك في أنواع من العلوم. ولد بجرجان، وتوفي بشيراز. تصانيفه كثيرة بلغت خمسين مصنفاً؛ منها: (حاشية على تفسير البيضاوي) و(حاشية على شرح التنقيح للتفتازاني في الأصول) و(حاشية على شرح وقاية الرواية) في الفقه الحنفي.[انظر:الأعلام٥/٧، ومعجم المؤلفين٧/٢١٦].

(٤) التعريفات ص ١٨٦.

(٥) انظر:جمهرة اللغة؛مادة(ظلم).

وأشهر معاني الظلم في استعمال العرب:الاعتداء؛ فالظلم هو:الاعتداء على حق الغير[٢] أو الاعتداء على الحق[٣].

أهمية النجاة من الظالمين:

ممارسة الظلم على أحدٍ؛ فيها إذلال له وقهر، وفيها إدخال الأحزان والغموم والهموم إلى قلبه. ففي ظلم الظالمين شرٌ مستطير. وانتشار الظلم لا يقتصر ضرره على مجرد أخذ الحق من صاحبه، أو إيذائه لسلوكه طريق الحق؛ إن الأمر قد يصل إلى صده عن الحق، بل يؤدي إلى منع نشر الحق في ذلك المجتمع الذي ينتشر فيه الظلم.

لقد كشف القرآن شدة الحاجة إلى الإحساس بالأمان من ظلم الظالمين، نجد هذا في سرده قصة موسى وهارون -عليهما السلام- حينما أمرهما الله بدعوة فرعون إلى الحق، فقد خطر في ذهنيهما الظلم الذي سيمارسه فرعون عليها إن فعلا ذلك؛ فقالا ما ذكره الله عنهما بقوله:﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ طه: ٤٥، قال الطبري:"قال موسى وهارون:ربنا إننا نخاف فرعون-إن نحن دعوناه إلى ما أمرتنا أن ندعوه إليه-أن يعجل علينا بالعقوبة"[٤]، فخالج قلبيهما خوف ظلم هذا الظالم؛ مما يكشف شدة حاجة الإنسان الماسة إلى النجاة من الظلمة، وعندما يُحس بالأمان يستطيع -بمشيئة الله- تحقيق الحق. ولذلك نجد أن الله لما ضمن لموسى وهارون عليهما السلام عدم وقوع الظلم عليهما؛ بقوله سبحانه:﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ طه:٤٦، وثقا بحماية اللّه، فصال موسى -عليه السلام- على فرعون صولة المحمي، وقابله من الكلام بما لم يكن ليقابله به قبل ذلك[٥]. فموسى وهارون عليهما السلام قد ضُمِن لهما عدم قدرة فرعون وآله على إيذائهما، كما هو ظاهر ما سبق، وظاهر

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير١/٤١٨ و٨/٢٢٣.

(٣) المرجع السابق٨/٢٢٣.

(٤) تفسير الطبري١٨/٣١٤.

(٥) انظر: البحر المحيط٧/١٢٢.

قول الله تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ القصص: ٣٥، قال الطبري:"لا يصل إليكما فرعون وقومه بسوء"[١]، قال مجاهد:"كان موسى -عليه السلام- قد ملئ قلبه رعبا من فرعون، فكان إذا رآه؛ قال: اللهم أدرأ بك في نحره، وأعوذ بك من شره؛ ففرَّغ الله ما كان في قلب موسى، وجعله في قلب فرعون، فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار"[٢].

يدرك قارئ القرآن الكريم شدة حاجة الإنسان إلى النجاة من الظلمة؛ من خلال تلك الآية العظيمة التي يمتدح فيها ربنا سبحانه عباده الذين لم يرتضوا العيش في بيئة الظلمة؛ في قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ الشورى: ٣٩، قال إبراهيم النخعي[٣]:"كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يُسْتَذَلُّوا، فَإِذَا قَدَرُوا عَفَوْا"[٤]، ومعنى الآية: أنهم"إذا وصل إليهم الظلم والتعدي من ظالم متعد؛ ينتقمون ويقتصون ممن بغى عليهم على الوجه الذي جعله الله رخصة لهم؛ لا يتجاوزون ذلك الحد المعين"[٥] ولم يرضوا بالذل.

---

(١) تفسير الطبري١٩/٥٧٩.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٩/٢٩٧٨.

(٣)النخعي (٤٦ - ٩٦ هـ) إبراهيم بن يزيد بن قيس، النخعي، من مذحج؛ أبوعمران: أحد الأعلام، تابعي، رأى بعض الصحابة-رضي الله عنهم-؛ محدث، حافظ، فقيه، صالح، قليل التكلف، مهيباً، وكان إماما مجتهدا له مذهب. أشتهر عنه بغضه للمرجئة، وتحذيره منهم. لما مات دفنوه ليلاً، ولما بلغ الشعبي موته قال:والله ما ترك بعده مثله.[أنظر:سير أعلام النبلاء٤/٥٢٠، والأعلام١/٨٠]

(٤) أخرجه البخاري تعليقاً-٣/١٦٩، كتاب المظالم، باب الانتصار من الظالم؛ ووصله ابن حجر في تغليق التعليق٣/٣٣٢.

(٥) روح البيان٨/٢٥٥.

الأساليب التي بينها القرآن للنجاة من الظلمة:

بيّن القرآن بعض الأساليب التي سلكها أهل الحق للنجاة من الظلمة، ومن تلك الأساليب:

• **الهروب من البلاد التي يسيطر عليها الظلمة**، واعتزال تلك البلاد وأهلها، وقد ساق القرآن لهذا الغرض قصة أصحاب الكهف، وكان مما ذكره الله في قصتهم قولهم عن قومهم الظلمة:﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾الكهف: ٢٠، قال ابن كثير:"يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها"(١).

• **الدعاء:** فقد أوضح القرآن أن موسى –عليه السلام– أضاف هذا الأسلوب إلى الأسلوب السابق. فموسى–عليه السلام– حينما وقع منه قتلٌ غير مقصود لقبطي كان ينازع إسرائيليا، وقد قصّ الله هذه القصة بقوله:﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ القصص: ٢٠ – ٢١، لقد كان أولئك الظلمة يريدون أن يعاملوه على قتله للقبطي خطأ؛ معاملة من قتل عمداً، فهم ظالمون له بسبب طلبهم إياه ليقتلوه قصاصاً(٢)، وإنما وقع القتل خطأ. فحقق الله له ما أراد، وبشره بذلك والد المرأتين اللتين سقا لهما، كما ذكر الله ذلك بقوله:﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ القصص: ٢٥، وقد امتن الله عليه بهذه النجاة من أولئك الظلمة،

---

(١) تفسير ابن كثير٥/١٤٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب للرازي٢٤/٢٠٣.

فقال له وهو يعدد عليه شيئاً من نعمه عليه: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ طه: ٤٠.

ولقوة تأثير أسلوب الدعاء في النجاة من الظلمة، نجد أن القرآن يقص علينا قصة غير بعيدة من قصة موسى -عليه السلام-؛ وهي قصة امرأة فرعون نفسه، حيث خافت ظلمه؛ فدعت ربها أن ينجيها من فرعون، ومن أعوانه الظلمة، نجد هذا واضحاً فيما قصه الله من قصتها في قوله: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ التحريم: ١١، قال الطبري: "تقول: وخلصني وأنقذني من عمل القوم الكافرين بك، ومن عذابهم"(١).

إن النجاة من الظلمة نعمة عظيمة، وليس هناك ما يقابلها، فالواجب حمد الله على هذه النعمة العظيمة، وهو ما أرشد الله تعالى إليه نوحاً -عليه السلام-، فإن الله تعالى أنجى نوحاً -عليه السلام- من أولئك الفسقة، ولما أنجاه منهم أمره -سبحانه- بما ذكره في قوله: ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ المؤمنون: ٢٨، وكانوا قد هددوه بالرجم، كما ذكر الله ذلك بقوله عنهم: ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ الشعراء: ١١٦، فصارت العاقبة له -عليه السلام-، وأهلك الله أولئك الظلمة، فالحمد لله رب العالمين.

(١) تفسير الطبري٢٣/٥٠٠.

النجاة من معاشرة أهل السوء

قال الله تعالى عن إبراهيم:﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ ﴾ مريم: ٤٨ - ٤٩

وقال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ الأنبياء: ٧١،

وقال تعالى عن موسى -عليه السلام-:﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ المائدة: ٢٥.

جاء في المثل:"معاشرة الأضداد تفتت الأكباد"(١)، ومع ذلك فهي مؤثرة على النفوس، ولا يكاد عاقلٌ يشكك في ذلك، فحتى معاشرة الجمادات لها تأثير على شخصية الإنسان؛ تأمل طبائع وأخلاق من يعيش في الجبال؛ تجد فيه صفات مختلفة عن صفات من يعيش في السهول، والعكس صحيح؛ وعندما تنظر إلى تأملات المفكرين في تأثير أجواء الموقع الجغرافي للبلد على أخلاق ساكنيه تجد أمراً عجباً(٢)؛ بل إن الرسول -ﷺ- تحدث عن تأثير الحيوان على معاشره؛ فقال -ﷺ-:"الْفَخْرُ وَالْخُيَلاَءُ فِي أَهْلِ الْخَيْلِ وَالإِبِلِ-الْفَدَّادِينَ(٣) أَهْلِ الْوَبَرِ(٤) -، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ"(٥).

---

(١) مفيد العلوم لأبي بكر الخوارزمي ص٣٨٦.

(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون ١/٨٦.

(٣) الفدّادون: الذين يرفعون أصواتهم في إبلهم ومواشيهم، وقد فَدَّ الرجل يَفِدُّ فَديداً إذا صوّت. ورجلٌ فَدَّادٌ: شديدُ الصوتِ[انظر:الصحاح،مادة(فدد)].

(٤) أهل الوبر: أهل الإبل؛ لأنهم يتخذون بيوتهم من وبرها- يعني صوفها.[انظر:لسان العرب؛ مادة(وبر)].

(٥) أخرجه مسلم١/٧١حديث٥٢،كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه.

إذا كان لتلك الأشياء تأثير على طبع الإنسان وأخلاقه، فإن تأثير المُعاشَرَ من الناس على مُعاشِره أوضح وأشد. ولشدة تأثر الإنسان بمعاشِره جاءت الشريعة بإيجاب الهجرة من البلاد التي يظهر فيها الكفر والفسوق[1]. وقد نصّ القرآن على شدة تأثر الإنسان بمن يعاشِرَه، وبيّن القرآن ندامة أهل الشر على معاشرتهم أولئك أصحاب الشر، وأوضح تمني الواحد منهم أن لو كان نجا من تلك العِشْرَة التي لم تجلب له إلا العذاب والضلالة؛ فقال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ الفرقان: ٢٧ ــ ٢٩، قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ويوم يعضّ الظالم نفسه؛ المشرك بربه؛ على يديه ندما وأسفًا على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالكفر به في طاعة خليله؛ الذي صدّه عن سبيل ربه، يقول:{يا ليتني اتخذت في الدنيا مع الرسول سبيلا} ؛ يعني طريقا إلى النجاة من عذاب الله"[2]. فهذا هلك بسبب معاشرته لصاحب سوء. وذكر الله قصة آخر من أهل الجنة؛ تذكّر بعدما أدخله الله الجنة أنه كاد أن يهلك بسبب قرينه من أهل السوء، ذكر الله قصته في قوله: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ الصافات:٥١ ــ ٥٧، قال ابن عباس رضي الله عنهما:"هو الرجل المشرك يكون له الصاحب في الدنيا من أهل الإيمان، فيقول له المشرك: إنك لتُصدق بأنك مبعوث من بعد الموت أئذا كنا ترابا؟ فلما أن صاروا إلى الآخرة وأدخل المؤمنُ الجنة، وأدخل المشرك النار، فاطلع المؤمن، فرأى

(١) قال الله تعالى:"إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا"[النساء:٩٧]، وراجع ما ذكره ابن جرير في تفسيرها، في تفسيره٩/١٠٠.

(٢) تفسير الطبري١٩/٢٦٢.

صاحبه في سَواء الجحيم (قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ)"[١]، وقال برهان الدين البقاعي:"فيالله ما أعظم إحسان هذه الآية في التنفير من العشرة لقرناء السوء؛ لأنها شديدة الخطر، قبيحة الأثر"[٢].

وقد ذكر المفسرون هنا قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل، كتفسير للآية[٣]، والصحيح أنها تدخل ضمن عموم هذه الآية الكريمة لا أنها تقتصر عليها[٤].

إن النجاة من أهل الشر غنيمة؛ وتتأكد أهمية النجاة من أهل الشر إذا"قامت البدع مقام السنن، والنفس مقام العقل، والهوى مقام الرشد،والضلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، والرياء مقام الإخلاص، والباطل مقام الحق، والكذب مقام الصدق، والمداهنة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل، فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور، وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها، وكان أهلها هم المشار إليهم؛ فإذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت، ورايتها قد نصبت، وجيوشها قد ركبت، فبطن الأرض والله خير من ظهرها، وقلل الجبال خير من السهول، ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة الناس"[٥].

إن من الناس من معاشرتهم"بمنزلة أكل السم، إن اتفق لآكله ترياق؛ وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس؛ لا كثرهم الله، وهم أهل البدع والضلالة؛ الصادون عن سنة رسول الله-ﷺ-، الداعون إلى خلافها، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا، فيجعلون البدعة سنة؛ والسنة بدعة، والمعروف منكرا؛ والمنكر معروفا، إن جردت التوحيد بينهم قالوا تنقصت جناب الأولياء والصالحين، وإن جردت المتابعة لرسول الله-ﷺ- قالوا أهدرت

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره٢١/٤٥.

(٢) نظم الدرر٦/٣١٤.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم١٠/٣٢١٣، وتفسير مقاتل بن سليمان٣/٩٩، وبحر العلم٣/١٣٤.
حيث ذكروا أن شريكين من بني إسرائيل إقتسما ماليهما فأحدهما أنفق ماله في طاعة الله- عز وجل- حتى لم يبق له منه شيء، فكان الآخر الذي صرف همه إلى نماء ماله في الدنيا يلومه على ذلك.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير٧/١٦.

(٥) الفوائد ص٤٩.

الأئمة المتبوعين، وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله-ﷺ- من غير غلو ولا تقصير؛ قالوا أنت من المشبهين، وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله-ﷺ- من المعروف؛ ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله-ﷺ- من المنكر؛ قالوا أنت من المفتنين، وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها؛ قالوا أنت من أهل البدع المضلين، وإن انقطعت إلى الله تعالى وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا؛ قالوا أنت من المبلسين، وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم؛ فأنت عند الله تعالى من الخاسرين وعندهم من المنافقين، فالحزم كل الحزم التماس مرضاة الله تعالى ورسوله-ﷺ- بإغضابهم؛ وأن لا تشتغل بإعتابهم؛ ولا باستعتابهم، ولا تبالي بذمهم ولا بغضبهم"[1]، وما دامت معاشرتهم بمنزلة أكل السم؛ فإن العاقل سيعمل على النجاة من قليلها وكثيرها، فالسلامة لا يعدلها شيء؛ وهو إن لم ينجو من معاشرتهم في الدنيا؛ فإنه سيتمنى في الآخرة أن لو كان نجا من تلك المعاشرة، كما دلت على ذلك الآية الآنفة الذكر، والتي يقول الله فيها: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩.

إن من أضرار معاشرة أهل الشر – غير ما سبق- ما يشاهده معاشِرُهم؛ من المنكرات، والفسوق، والفجور، والكفر؛ مما يضعف في القلب استبشاع الموبقات.

ومن أضرارها ما تستجلبه تلك الموبقات من سخط الله، ولعنته، مما يزيد من احتمال نزول البلاء بأولئك الأقوام، فيشمل من كان بينهم، ولو كان صالحاً في نفسه، مادام أنه عجز عن إزالة المنكر؛ قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنفال:٢٥، قال ابن عباس-ﷺ-:"أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب"[2]، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي-ﷺ- قال:"إِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا، أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ، ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى

(١) بدائع الفوائد٢/٤٩٩.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره١٣/٤٧٤، وابن أبي حاتم في تفسيره٥/١٦٨٢.

أَعْمَالِهِمْ"[١]، قال ابن حجر: قوله:"أصاب العذاب من كان فيهم"المراد من كان فيهم ممن ليس هو على رأيهم. قوله:"ثم بعثوا على أعمالهم"أي: بعث كل واحد منهم على حسب عمله؛ إن كان صالحا فعقباه صالحة؛ وإلا فسيئة. فيكون ذلك العذاب طهرة للصالحين ونقمة على الفاسقين[٢].

ولأجل ما سبق وغيره نجد في كتاب الله أن موسى-عليه السلام- وهو مِنْ أعظم أولي الألباب عقلاً؛ قد سعى إلى النجاة من معاشرة أهل الشر، ولم يجعل رجاحة عقله مبررا لاستمرار معاشرتهم، ولا ضماناً لعدم تأثره بهم؛ تجد هذا ظاهراً جلياً فيما قصه الله تعالى عن موسى -عليه السلام- في قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ المائدة:٢٥،"يعني: افصل بيننا وبينهم؛ بقضاء منك تقضيه فينا وفيهم؛ فتبعِدُهم منّا"[٣] وتُخَلِّصنا من صحبتهم[٤]، فهذا دعاء بأن يفرق اللّه بينهما وبينهم؛ بفقدهم وجوههم وعدم مشاهدتهم صورهم، إذا كانوا عاصين له، مخالفين أمر اللّه تعالى، ولذلك نبه على العلة الموجبة للتفرقة بينهم؛ وهي الفسق. فالمطيع لا يريد صحبة الفاسق، ولا يؤثرها؛ لئلا يصيبه بالصحبة ما يصيبه[٥]. وقد جعل بعض العلماء هذا دليلاً على أن موسى وهارون -عليهما السلام- لم يكونا مع قومهما في التيه، لأنه -عليه السلام- دعا الله يفرق بينه وبين القوم الفاسقين؛ ودعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مجابة[٦]. وبهذا يتبيّن أن المراد بقوله:(فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا

---

(١) أخرجه البخاري٩/٧١حديث٧١٠٨؛ كتاب الفتن، باب إذا أنزل الله بقوم عذابا، ومسلم٤/٢٢٠٧ حديث٢٨٧٩؛ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت.

(٢) انظر: فتح الباري١٣/٦٠.

(٣) تفسير الطبري١٠/١٨٨.

(٤) انظر: الكشاف١/٦٢٢، والبحر المحيط٤/٢٢٢، وتفسير البيضاوي٢/٣١٣.

(٥) انظر: البحر المحيط٤/٢٢٢.

(٦) انظر: مفاتيح الغيب١١/١٦٠، وتفسير القرطبي٦/١٢٩، والبحر المحيط٤/٢٢٢.

وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ):"أن تَحْكُم لنا بما نستحقه، وتحكم عليهم بما يستحقونه؛ أو بالتبعيد بيننا وبينهم؛ وتخليصنا من صحبتهم"(١) أو الأمرين معاً(٢).

وإذا كان موسى-عليه السلام- قد دعا بذلك؛ فإن إبراهيم-عليه السلام- قد حققها بالفعل؛ فهاجر عن قومه واعتزلهم، لأنهم كانوا أشراراً فلا يريد مخالطتهم وهم كفار، وهذا ما كشفه القرآن في غير ما آية؛ ومن ذلك ما ذكره الله تعالى عنه من قوله-عليه السلام- لقومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾مريم: ٤٨، قال مقاتل:"كان اعتزاله إياهم أنه فارقهم من كوثا"(٣)،"فارقهم، وهاجر إلى الأرض المقدسة"(٤).

إن عيش الوحدة خير من جليس السوء؛"فمن أراد السلامة في الدنيا والآخرة؛ ظاهرا وباطنا؛ فليعتزل قرناء السوء، وإخوان السوء، ولا يمكنه ذلك إلا بالالتجاء والتضرع إلى ربه في ذلك ليوفقه لمفارقتهم"(٥) وليسأل الله أن يرزقه العزيمة الصادقة على ذلك، فإذا وجدت العزيمة الصادقة نتج عنها مثل فعل إبراهيم -عليه السلام-حين فارق عشيرته وأهله من غير اكتراث، ولا يستوحش المؤمن من الوحدة فالله مؤنسه، إذا كان لا يريد بمفارقته الأشرار إلا وجه الله، وقد يعوضه الله تعالى عن أولئك بخيرٍ منهم، وليس ذلك على الله بعزيز، وقد فعل هذا سبحانه مع خليله إبراهيم -عليه السلام-، قال الله تعالى مبيناً ذلك: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾مريم: ٤٩، قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فلما اعتزل إبراهيم قومه وعبادة ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان؛ آنسنا وحشته من فراقهم،

---

(١) تفسير البيضاوي٢/٣١٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري١٠/١٨٨.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان٢/٣١٥.

(٤) تفسير الخازن٣/١٨٩.

(٥) تفسير السلمي١/٤٢٧.

وأبدلناه منهم بمن هو خير منهم، وأكرم على الله منهم، فوهبنا له ابنه إسحاق، وابن ابنه يعقوب بن إسحاق"(١).

إن النجاة من معاشرة الأشرار نعمة امتن الله بها على بعض أنبيائه ورسله؛ قال الله تعالى ذاكراً أنه أنعم بهذه النعمة على إبراهيم ولوطٍ عليهما السلام: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ الأنبياء: ٧١، قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ونجينا إبراهيم ولوطا من أعدائهما؛ نمرود وقومه؛ من أرض العراق(إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ) وهي أرض الشام، فارق -صلوات الله عليه- قومه ودينهم وهاجر إلى الشام"(٢)، وقال الشنقيطي:"هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تُشِيرُ إِلَى هِجْرَةِ إِبْرَاهِيمَ وَمَعَهُ لُوطٌ؛ مِنْ أَرْضِ الْعِرَاقِ إِلَى الشَّامِ؛ فِرَارًا بِدِينِهِمَا"(٣)

قال الطبري:"وهذه القصة التي قص الله من نبأ إبراهيم وقومه؛ تذكير منه بها قوم محمد -ﷺ- من قريش؛ أنهم قد سلكوا في عبادتهم الأوثان، وأذاهم محمدا على نهيه عن عبادتها، ودعائهم إلى عبادة الله مخلصين له الدين، مسلك أعداء أبيهم إبراهيم، ومخالفتهم دينه، وأن محمدا في براءته من عبادتها وإخلاصه العبادة لله، وفي دعائهم إلى البراءة من الأصنام، وفي الصبر على ما يلقى منهم في ذلك سالك منهاج أبيه إبراهيم، وأنه مخرجه من بين أظهرهم؛ كما أخرج إبراهيم من بين أظهر قومه حين تمادوا في غيهم؛ إلى مهاجره من أرض الشام، مسلٍّ بذلك نبيه محمدا -ﷺ- عما يلقى من قومه من المكروه والأذى، **ومعلمه أنه منجيه منهم كما نجى أباه إبراهيم من كفرة قومه**"(٤).

إن من عرف هداية القرآن في النجاة من معاشرة أهل الشر؛ حرص كل الحرص على تحقيقها، وسأل الله تعالى أن ينجيه من أهل الشر كما أنجى المصطفين من خلقه.

---

(١) تفسير الطبري١٨/٢٠٨.

(٢) المرجع السابق١٨/٤٦٨.

(٣) أضواء البيان٤/١٦٤.

(٤) تفسير الطبري١٨/٤٦٨.

النجاة من شر المخلوقات عموماً

قال الله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ﴾ الفلق: ٢.

مخلوقات الله تعالى كثيرة، لا يكاد يحصرها أحد؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ المدثر: ٣١ قال قتادة: "أي: من كثرتهم"[(١)]، ومن مخلوقات الله ما هو خيرٌ محض؛ لا شر فيه بوجه؛ كالجنة والملائكة والنبيين، فإنهم خيرٌ محض، والخير كله حصل على أيديهم[(٢)].

ولكن هناك مخلوقات كثيرة فيها شرٌ. والشر فيها إما بالطبع؛ كشرور الحيات والعقارب والهوام، ومنه: إحراق النار، وإهلاك السموم، وإما بالإرادة؛ كشرور الإنسان، وشرور الجان. وشر المخلوقات الاختياري؛ إما لازم كالكفر، أو متعد كالظلم[(٣)].

إن المخلوقات التي فيها شرٌ كثيرة، وشرورها متنوعة؛ فمنها ما ينتبه إليه المقصود بالشر، ومنها ما لا يخطر له على بال. فانظر إلى الحرائق وما تحدثه، وإلى الصواعق وما ينتج عنها، وإلى الحر المؤذي، وإلى البَرْد وأمراضه، وإلى المخترعات وحوادثها، وإلى الهوام ولسعاتها، وإلى البحار وإغراقها، وإلى الجبال وحوادثها وحيواناتها، وإلى الصحاري المقفرة وما هلك فيها...هكذا بلا حصر. وتأمل من جهة أخرى إلى الشرور الخفية التي لا تدركها بحواسك؛ كالسحرة، وحسد الحاسدين، والشياطين.

إن الشر المخلوق، وشر المخلوقات؛ تقلق كل أحد، وتورثه الهم؛ والمخلوق الضعيف مضطر إلى النجاة منها، وقد يسلك سبيلاً خاطئاً، فيذهب إلى السحرة ليدرك النجاة، وفي ذلك هلاكه، أو يسأل الكهان؛ وفي ذلك دماره، أو يعتمد على الشياطين ويقع في الأوهام والخرافات والكفر والشرك.

ولما كان الأمر بهذه الخطورة؛ رسم القرآن المنهج الصحيح لتتحقق النجاة من كل تلك الشرور؛ يجد ذلك قارئ القرآن إذا تأمل ما يقرأ، يجد ضمن آيات الكتاب الكريم قول الله

---

(١) أخرجه الطبري٢٤/٣١.

(٢) انظر: بدائع الفوائد٢/٤٤١.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي٥/٥٥٠، وانظر: نظم الدرر٨/٦٠٤.

تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ﴾ الفلق: ١ – ٢، فهنا أمر الله نبيه -ﷺ- أن يستعيذ من شرّ كل شيء، إذ كلّ ما سواه، فهو ما خَلَق[١]؛ فـ"(مِن شَرِّ مَا خَلَقَ) أي: من شر جميع ما خلق"[٢]، فيشمل ما يفعله المكلفون من المعاصي والمآثم، ومضارّة بعضهم بعضا؛ من ظلم وبغى وقتل وضرب وشتم وغير ذلك، وما يفعله غير المكلفين منه؛ من الأكل والنهس واللدغ والعض كالسباع والحشرات، وما وضعه اللّه في الموات من أنواع الضرر؛ كالإحراق في النار، والقتل في السم[٣] ويدخل فيه شرور الأطعمة المُمْرضة، وشرور الماء[٤]"والهواء، وغير ذلك"[٥]

إن العموم في الآية مستفادٌ من"إضافة (شر) إلى (ما)"[٦]، الموصولية[٧]"وقد أجمع القراء على الإضافة"[٨]"و(ما) عام؛ يدخل فيه جميع من يوجد منه الشر؛ من حيوان -مكلف وغير مكلف-، وجماد"[٩]،"وجاز إدخال الجن والإنسان تحت لفظة (ما)؛ لأن الغلبة لما حصلت في جانب غير العقلاء حسن استعمال لفظة (ما) فيه؛ لأن العبرة بالأغلب"[١٠]، وعلى هذا تكون

---

(١) انظر: تفسير الطبري٢٤/٧٠٢.

(٢) تفسير السمعاني٦/٣٠٥، وانظر: المحرر الوجيز٥/٥٠٣، وزاد المسير٩/٢٧٣.

(٣) انظر: الكشاف٤/٨٢٠.

(٤) مفاتيح الغيب٣٢/١٧٧.

(٥) بدائع الفوائد٢/٤٤١.

(٦) البحر المحيط١٠/٥٧٥.

(٧) (ما) موصولية؛ بمعنى الذي. قال ابن القيم في بدائع الفوائد[٢/٤٣٦]:"«ما» هاهنا موصولة ليس إلا"، ولكنه جوّز في شفاء العليل[ص٢٧٠] أن تكون مصدرية، وهذا قاله بعض المفسرين[أنظر:اللباب٢٠/٥٧٠]، وقال عنه الآلوسي:"تكلف مستغنى عنه"[روح المعاني١٥/٥١٩].

(٨) اللباب في علوم الكتاب١٦/٣٢٧.

(٩) البحر المحيط١٠/٥٧٥.

(١٠) مفاتيح الغيب٣٢/١٧٧.

الاستعاذة من كل شر في أي مخلوق قام به الشر: من حيوان، أو غيره، إنسيا كان أو جنيا، أو هامة أو دابة أو ريحا، أو صاعقة، أي نوع كان من أنواع البلاء"[١].

وهذا الشر الذي خلقه الله، وخلق فاعليه؛ لم يُسند في الآية إليه -سبحانه-، وإنما أسند إلى الخلق الفاعلين له[٢].

---

(١) بدائع الفوائد٢/٤٤١.

(٢) قال ابن القيم:"الشر مسند في الآية إلى المخلوق المفعول، لا إلى خلق الرب تعالى الذي هو فعله وتكوينه، فإنه لا شر فيه بوجه ما، فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى، فإن ذاته لها الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وأوصافه كذلك؛ لها الكمال المطلق والجلال التام؛ ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة؛ لا شر فيها أصلا، ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، ولعاد إليه منه حكم تعالى وتقدس عن ذلك، وما يفعله من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم، هو خير محض إذ هو محض العدل والحكمة وإنما يكون شرا بالنسبة إليهم؛ فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم؛ لا في فعله القائم به تعالى، ونحن لا ننكر أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة فإنه خالق الخير والشر"قال:"وإذا أشكل عليك هذا فأنا أوضحه لك بأمثلة؛ أحدها: أن السارق إذا قطعت يده فقطعها شر بالنسبة إليه، وخير محض بالنسبة إلى عموم الناس؛ لما فيه من حفظ أموالهم، ودفع الضرر عنهم، وخير بالنسبة إلى متولي القطع؛ أمرا وحكما؛ لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عموما بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم، المضر بهم، فهو محمود على حكمه بذلك وأمره به، مشكور عليه، يستحق عليه الحمد من عباده، والثناء عليه، والمحبة"قال:"وأكثر الناس تضيق عقولهم عن مباديء معرفتها فضلا عن حقيقتها"وقال: لفظ النبي -ﷺ-:"والشر ليس إليك"يتضمن تنزيهه في ذاته تبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بوجه ما، لا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه، وإن دخل في مخلوقاته كقوله:"قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ. مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ"[بدائع الفوائد٢/٤٣٦]. وقال ابن تيمية:"الرب لا يفعل سيئة قط، بل فعله كله حسن وحسنات، وفعله كله خير؛ ولهذا كان النبي -ﷺ- يقول -في دعاء الاستفتاح-:"والخير بيديك، والشر ليس إليك"فإنه لا يخلق شرا محضا؛ بل كل ما يخلقه ففيه حكمة هو باعتبارها خير، ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس؛ وهو شر جزئي إضافي. فأما شر كلي، أو شر مطلق؛ فالرب منزه عنه، وهذا هو الشر الذي ليس إليه. وأما الشر الجزئي الإضافي؛ فهو خير باعتبار حكمته[مجموع الفتاوى١٤/٢٦٦]. وفي هذا المعنى يحسن نقل ما أورده الجاحظ من قصيدة شاعر المعتزلة-بشر بن المعتمر- التي ذكر فيها كثير من المخلوقات؛ وقوله فيها:

وكلُّها شرٌّ وفي شَرِّها ** خيرٌ كثيرٌ عند مَنْ يدري

الطريق الذي نجده في الآية للنجاة من شر الأشرار؛ هو اللجوء إلى خالقه، والمتصرِّف في فاعليه، فهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً إلا بإذنه؛ فيُستعاذ به منهم، علّم الله خلقه هذا في أول آيات سورة الفلق -التي هي عند الله أبلغ ما يُقرأ[1]-، فقال: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ﴾ الفلق: ١ – ٢،"قال بعض العارفين: لا تشتغل قط بمن يؤذيك، واشتغل بالله يرده عنك، وقد غلط في هذا خلق كثير، اشتغلوا بمن يؤذيهم؛ فطال عليهم الأذى مع الإثم، ولو أنهم رجعوا إلى مولاهم؛ لكفاهم أمرهم"[2].

إن الطريق الذي أوضحه القرآن هو أحسن الطرق للنجاة من الأشرار، ولكن كثيراً من الناس لم يطبقوا توجيه القرآن، فوقعوا في الشر من حيث يظنون أنهم يسعون للخلاص من الشر، ذهبوا للسحرة والمشعوذين، وتعلقوا بالأولياء والقبور، بل ربما تعلقوا بالجن؛ فزاد بلاؤهم، ولم يظفروا ببغيتهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ ﴾ الجن: ٦.

إن الغاية الصحيحة، تحتاج إلى وسيلة صحيحة لتحقيقها، والقرآن الكريم حدّد هنا الغاية؛ وهي النجاة من شر المخلوقات عموما، وأوضح الوسيلة؛ وهي الاستعاذة بالله من شرهم، واللجوء إليه، والتوكل عليه، والثقة به سبحانه. وإذا كفاك الله تعالى فلن يضرك مخلوق-كائناً من كان- كما قال الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ

ثم قال في شرح هذا البيت:"يقولُ: هي وإن كانَتْ مؤذيَةً، وفيها قواتل، فإن فيها دواءً، وفيها عبرةً لمن فكّر، وأذاها محنة واختبارٌ، فبالاختبار يطيع النّاسُ، وبالطاعة يدخلون الجنّة"[الحيوان٦/٤٠٦].

(١) قال النبي -ﷺ-لعقبة بن عامر -رضي الله عنه-:"لَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا أَبْلَغَ عِنْدَ اللهِ مِنْ {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}" [أخرجه ابن حبان في صحيحه٣/٧٤حديث ٧٩٥، وقال محققه-شعيب الأرناؤوط:"إسناده صحيح"].

(٢) البحر المديد١/٣٠٠.

وليس المقصود ترك الأسباب المادية التي يعملها لدفع شرِّ أعدائه، وإنما المراد- ما ذكره ابن القيم- وهو "إفراغ القلب من الاشتغال به، والفكر فيه؛ وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له؛ فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره"[بدائع الفوائد٢/٢٤٠].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ الزمر: ٣٦، قال الطبري:"يخوّفك هؤلاء المشركون يا محمد بالذين من دون الله من الأوثان والآلهة أن تصيبك بسوء، ببراءتك منها، وعيبك لها، والله كافيك ذلك"[1].

إذا صلحت الغاية، وصحت الوسيلة؛ تحقق المراد بإذن الله؛ فامتثل ما أمرك الله به و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾، تحصل على النجاة التي تريدها.

(١) تفسير الطبري٢١/٢٩٤.

المبحث الخامس: النجاة من الابتلاء

(وأتناول فيه ما يلي):

- المقصود بالابتلاء هنا.
- النجاة من الإذلال والتسخير.
- النجاة من تسلط الأعداء.
- النجاة من الضر، والسوء، والكرب.
- النجاة من السجن.
- النجاة من صور معينة للموت؛ (وفيه ما يلي):
  - تمهيد.
  - النجاة من الموت بالحرق.
  - النجاة من الموت بالغرق.
  - النجاة من القتل.
  - النجاة من الرجم.
- نجاة الأبناء من القتل والذبح.

المقصود بالابتلاء هنا:

ستجد في هذا المبحث أن الابتلاء لغة يطلق على معانٍ متعددة، ومن أشهر معانيه: الشدائد والمحن[١]. وكذلك يجد المتأمل للقرآن أن الابتلاء جاء-أيضاً- مستعملاً في معانٍ متعددة، وستجد في هذا المبحث بعض أقوال المفسرين الدالة على ذلك.

وأصل معنى الابتلاء في اللغة: الاختبار[٢]، وهذا -أيضاً- أصل معناه في الاستعمال القرآني. والاختبار قد يكون بالخير والنِعَم، وقد يكون بالشرور والنِقَم؛ وهذا المعنى واضح في قول الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ الأنبياء: ٣٥، قال ابن زيد:"نبلوهم بما يحبون وبما يكرهون، نختبرهم بذلك لننظر كيف شكرهم فيما يحبون، وكيف صبرهم فيما يكرهون"[٣]، وهذا المعنى للابتلاء قد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الأعراف: ١٦٨، فالمعنى -كما أفاد الطبري-: واختبرناهم بالرخاء في العيش، والخفض في الدنيا والدعة، والسعة في الرزق، وهي (الحسنات)؛ ويعني بـ(السيئات): الشدة في العيش، والشظف فيه، والمصائب والرزايا في الأموال[٤].

وبهذا يتبين أن"أصل البلاء في كلام العرب:الاختبار والامتحان، ثم **يستعمل في الخير والشر**؛ لأن الامتحان والاختبار قد يكون بالخير كما يكون بالشر، فالعرب تسمي الخير بلاء، والشر بلاء[٥].

---

(١) انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة١/٤٠، ولسان العرب؛ مادة(بلا).

(٢) انظر: تفسير الطبري٢/٤٩.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره١٨/٤٤٠.

(٤) انظر: تفسير الطبري١٣/٢٠٩.

(٥) انظر: المرجع السابق٢/٤٩.

وقد يأتي البلاء مراداً به النعمة خاصة؛ كما في قول الله تعالى:﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنفال: ١٧،"البلاء ها هنا النعمة"(١)؛ قاله النحاس(٢).

وقد يأتي البلاء مراداً به الشر خاصة، وهو الأكثر في الاستعمال والعُرف(٣)، ومنه قول الله تعالى-في قصة أصحاب السبت-:﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ الأعراف: ١٦٣، أي: نشدد عليهم(٤)، قال الحسن البصري:"يقيض لهم البلاء؛ ليهلكوا فيه"(٥)، ومن هذا المعنى حديث سعد بن أبي وقاص-ﷺ-قال:"قلت يا رسول الله: أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه؛ فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة"(٦)، وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ -ﷺ-قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ لاَ تَزَالُ الرِّيحُ تُمِيلُهُ، وَلاَ يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ الْبَلاَءُ"(٧)، وحديث:"إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ

---

(١) معاني القرآن٣/١٤١.

(٢) النحاس (٠٠٠ - ٣٣٨ هـ)أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري، أبو جعفر النحاس: واسع العلم، كثير الرواية، مفسر، أديب. وكان من أذكياء العالم. مولده ووفاته بمصر. كان من نظراء نفطويه، وابن الأنباري. زار العراق واجتمع بعلمائه.وصنف (تفسير القرآن) و (معاني القرآن) و (إعراب القرآن) و(ناسخ القرآن ومنسوخه).[انظر:سير أعلام النبلاء١٥/٤٠١، والبلغةص٩، والأعلام١/٢٠٨].

(٣) انظر: تفسير عبد الرزاق١/٢٦٠و٢١٦/٢ و٣/١٠٤، ١٢٣وغيرها. وتفسير الطبري١/٣٤٦، ٣٥٠، ٥٥٥، و٥/٢٦٧، ٢٧٨، ٢٩٥، و٦/١٧٩، و٧/٧٨، وغيرها؛ ففيها آثارٌ كثيرة أطلق فيها البلاء والابتلاء على الشدائد والمصائب خاصة.

(٤) انظر: تفسير القرطبي٧/٣٠٥.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٥/١٥٩٩.

(٦) أخرجه الترمذي٤/٦٠١حديث ٢٣٩٨.قال الترمذي:"حديث حسن صحيح".

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه٤/٢١٦٣حديث ٢٨٠٩؛ باب مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجر الأرز، باب مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجر الأرز.

عِظَمِ البَلاَءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ"(١)، وحديث:"إنّ الله تعالى لَيَتعاهدُ عَبْدَهُ المؤْمِنَ بالبَلاءِ؛ كما يَتَعاهَدُ الوالِدُ وَلَدَهُ بخَيْرٍ"(٢)، وحديث:"إنّ الله لَيَدْفعُ بالمسْلِمِ الصالِح عن مائَةِ أهْلِ بَيْتٍ مِنْ جِيرانِهِ البَلاَءَ"(٣)، وحديث:"أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ تَكُونُوا أَصْحَابَ بَلاَءٍ، وَأَصْحَابَ كَفَّارَاتٍ، فَوَالَّذِي نَفْسُ أَبِي الْقَاسِمِ بِيَدِهِ؛ إِنَّ اللَّهَ لَيَبْتَلِي الْمُؤْمِنَ بِالْبَلاَءِ؛ فَمَا يَبْتَلِيهِ إِلاَّ لِكَرَامَتِهِ عَلَيْهِ، لأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْزَلَ عَبْدَهُ بِمَنْزِلَةٍ لَمْ يَبْلُغْهَا بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ دُونَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ مِنَ الْبَلاَيَا مَا يُبَلِّغُهُ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ"(٤).

إطلاق البلاء وتقييده:

يلاحظ من الكلام السابق؛ أن البلاء والابتلاء إن أريد به الخير قُيد به، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ الأنفال:١٧، وكذا إن أريد به الخير والشر؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الأعراف: ١٦٨، أما إذا أطلق فلا يراد به إلا الشر خاصة. وهو بهذا المعنى الأخير المراد هنا(٥).

كما سيلاحظ القارئ الكريم؛ أن هناك شدائد تُذكر في هذا المبحث متشابهة مع مباحث سابقة؛ كالنجاة من الغرق، لكن سيتبين له أن الغرق هنا أريد به النجاة من الغرق الذي يعرض لفردٍ أو مجموعة خاصة، وليس الغرق العام الذي ينزل عقوبة لقوم كذبوا المرسلين.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه٤/٦٠١حديث ٢٣٩٦. قال الترمذي:"هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ".

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان١٢/٤٠٦حديث ٩٦٤٨. قال الألباني:"ضعيف"[انظر: ضعيف الجامع، حديث ١٦٤٩].

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط٤/٢٣٩.قال الهيثمي:"فيه يحيى بن سعيد العطار،وهو ضعيف"[مجمع الزوائد٨/٨٧].

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده ص٣٩٠.

(٥) استنبطت هذا المعنى من الكلام السابق للمفسرين واللغويين.

النجاة من الإذلال والتسخير

بيّن القرآن أن الإنسان بطبعه يريد العزة، ويسعى لتحقيقها لنفسه، وينفر من الذل والاستذلال؛ فأشق الأشياء على الإنسان أن يعيش مُسْتَذَلّاً مهاناً مُسَخَّراً، وقد كشف القرآن عن ذلك من خلال ما بيّنه من أن سبب شرك المشركين هو إرادتهم العزة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ ﴾ مريم: ٨١، وبيّن سبحانه أن من المنافقين من نافق باتخاذ الكفار أولياء يريدون بذلك العزة، قال سبحانه في وصفهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ النساء: ١٣٩. وبيّن سبحانه الطريق الصحيح للحصول على العزة في قوله سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ فاطر: ١٠، فبين أن لا عزة إلا للّه ولأوليائه، فليطلبها مبتغيها من اللّه[1].

فإذا استذل الإنسان في حياته لم يهنأ بعيش، وكانت الحياة عليه مُرَّة، يتجرع غصص الإذلال مع كل نَفَس من أنفاسه، ومع كل لحظة من لحظات عمره، وقد تصل به الحال أن يُفضل الموت على حياة الذلة.

إن للنجاة من الذلة طعماً يعرفه حق معرفته من عايش آصار الذلة وأغلالها، وقد ذكر الله تعالى في كتابه قصة بني إسرائيل؛ كيف كان فرعون وجنوده يستذلون رجالهم ونساءهم، وبيّن سبحانه كيف أنه أنجاهم من ذلك الاستذلال، وأنقذهم منه؛ فبيّن سبحانه بذلك قيمة هذه النعمة العظيمة- نعمة النجاة من الذلة-.

كان فرعون يقتل ذكور بني إسرائيل، ويبقي إناثهم، إذلالاً لهم؛ ليُظهر لهم أنه يحكمهم كما يريد، ويُسخِّر النساء للخدمة؛ وهذا إذلالٌ آخر، كشف القرآن عنه بقول الله سبحانه: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ البقرة: ٤٩، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ

(١) انظر: الكشاف٣/٦٠٢، والبحر المحيط٩/١٨.

أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ الأعراف: ١٤١، فعبّر بالآية الأولى بالتذبيح (يُذبِّحون)، وفي الآية الثانية بالتقتيل(يُقَتِّلون)، مما يبين شدّة الأمر وصعوبته، فـ"كانوا في نهاية الذل، وكان خصمهم في نهاية العز"[١]. ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾"أي: يستبقون نساءكم، أي:بناتكم. وعدّ إبقاء النساء على الحياة بلاء، لأن آل فرعون إنما استبقوا نساءهم للاستذلال والخدمة"[٢]، أو أنه عدّ مجرد بقاء النساء بدون الرجال بلاء، فبقاؤهن في هذه الحالة بلاء وأي بلاء[٣] أو"أن هذا الاستحياء للإناث كان المقصد منه خبيثا وهو أن يعتدوا على أعراضهن ولا يجدن بدا من الإجابة بحكم الأسر والاسترقاق"[٤].

وكشف القرآن عن نوعٍ ثالث من أنواع الاستذلال لبني إسرائيل، وهو تسخير آل فرعون لهم في الأعمال الشاقة، وهذا ما فسّر به المفسرون قول الله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ إبراهيم: ٦، ففي هذه الآية أضيفت الواو في قوله:(وَيُذَبِّحُونَ)؛ أدْخلت الواو في هذا الموضع، لأنه أريد الخبرُ عن أن آل فرعون كانوا يعذبون بني إسرائيل بأنواع من العذاب غير التذبيح[٥]، فالواو توجب أنه قد أصابهم من العذاب شيء سوى التذبيح، وإذا كان بغير واو فإنما هو تبيين الأول[٦].

---

(١) مفاتيح الغيب٣/٦٦.

(٢) زاد المسير١/٧٨. وانظر: تفسير النسفي١/٤٣.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب١٩/٦٧، وتفسير المراغي١٣/١٢٩

(٤) التحرير والتنوير١/٤٧٦.

(٥) انظر: تفسير الطبري١٦/٥٢٤.

(٦) انظر: معاني القرآن للنحاس٣/٥١٦.

والمراد بسوء العذاب هنا:"استخدامهم في أصعب الأعمال"(١) والتكاليف الشاقة(٢) واستعبادهم(٣).

نجد أن القرآن في الآيات السابقة؛ حثَّ بني إسرائيل على تَذكُّر هذه النعمة العظيمة، - نعمة النجاة من الإذلال والاستعباد والتسخير- فهي نعمة، وأي نعمة، ومن ذاق الاستعباد والإذلال عرف قيمة هذه النعمة أكثر من غيره.

وموسى -عليه السلام-، وهو نبيهم الذي حصل في زمانه نجاتهم من ذلك- حرَّضَهم على أن يتذكروا هذه النعمة، شكراً لله الذي حققها لهم؛ ذكر الله ذلك عنه في قوله:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ إبراهيم: ٦، مما يكشف أهمية هذه النعمة، وضرورة أن يكون شكر الله عليها متناسباً مع قيمتها العظيمة.

كما نجد أن القرآن الكريم ذكّر ذريّة أولئك الأقوام الذين حصلت لهم هذه النعمة بها؛ وذلك في قول الله تعالى:﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ البقرة: ٤٩، قال الطبري:"قوله:(نَجَّيْنَاكُم) عطف على قوله﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ البقرة: ٤٧ فكأنه قال: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، واذكروا إنعامنا عليكم -إذ نجيناكم من آل فرعون- بإنجائناكم منهم"(٤). قال أبو حيان:"هو خطاب لمن كان بحضرة الرسول -ﷺ- من بني إسرائيل والمراد أسلافهم"(٥) والخطاب بهذا لمن لم يدرك فرعون ولا المنجَّين منه، سببه

---

(١) زاد المسير١/٧٨.

(٢) انظر:مفاتيح الغيب٣/٦٤.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي٣/٣٣٩.

(٤) تفسير الطبري٢/٣٦.

(٥) البحر المحيط٥/١٦.

أنهم كانوا أبناء من نجاهم من فرعون وقومه، فأضاف ما كان من نعمه على آبائهم إليهم، قاله الطبري[١]، وقال البغوي: اعتدها منّة على الأبناء وهي حاصلة للأسلاف؛ لأنهم نجوا بنجاتهم[٢]، وأفاد السمرقندي أن سبب ذلك"أنهم كانوا يتولون آباءهم"[٣].

فالنجاة من ذلك نعمة على من حصلت لهم تلك النعمة، ونعمة على أهلهم، ونعمة على ذرياتهم، وهذا هو أحد الجوانب التي تعظُم لأجلها هذه النعمة.

لقد كان بنو إسرائيل يعيشون ذلك الذل والاستعباد والاضطهاد، ظلماً من فرعون وعدواناً، فأنجاهم الله من كل ذلك؛ قال السعدي:كانوا"بين قتيل، ومذلل بالأعمال الشاقة، مستحيي على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه، فهذا غاية الإهانة، فمنّ الله عليهم بالنجاة التامة، وإغراق عدوهم وهم ينظرون؛ لتقر أعينهم،﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ أي: الإنجاء،﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: إحسان، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره"[٤].

وليس شكر هذه النعمة خاص ببني إسرائيل؛ بل كل من سلِم من الذل والاستعباد والإهانة، وعاش حراً عزيزاً؛ فإنه يجب عليه شكر هذه النعمة التي يعيشها، سواء حصلت له هذه النجاة بعد أن ذاق مرارة الذل، أو عاشها ولم يذق طعم الذل يوماً؛ وهذا ما ذكّر به مؤمن آل فرعون قومَه، فقد قصّ الله قصته، وكان من ضمن ما قصه الله عنه ما ذكره في قوله سبحانه:﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ غافر: ٢٩، قال ابن كثير:"أي: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، وتصديق رسوله -ﷺ- واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله"[٥]. فهو هنا يرشدهم إلى ما فيه بقاء عزهم وظهورهم، فلا أحد

---

(١) انظر: تفسير الطبري٢/٣٨.

(٢) انظر:معالم التنزيل١/٩٠. وانظر:الكشف والبيان١/١٩١.وتفسيرالخازن١/٤٣.

(٣) بحر العلوم١/٧٧

(٤) تفسير السعدي ص٥٢.

(٥) تفسير ابن كثير٧/١٤٢.

يستذلهم، فلفت انتباههم إلى هذه النعمة، وبيّن لهم أن بقاءها يكون بشكر الله، وتصديق رسوله موسى -عليه السلام-.

وما استديمت النعم إلا بالشكر، فليشكر الله كلُ من تفضّل عليه بهذه النعمة العظيمة، نعمة كونه يعيش حُراً عزيزاً، ليس مُذلاً ولا مهاناً، فهي من أجَلِّ النعم وأعظمها.

النجاة من تسلط الأعداء:

يتعوذ المتعوذون من تسلط الأعداء، ويضرعون إلى الله أن يحميهم من ذلك، فما أشدّ تسلط عدو الإنسان عليه. إن نجاة الإنسان من تسلط أعدائه عليه؛ نعمة لا يُقدَّر قدرها بثمن.

إن الإنسان يعيش نعماً عظيمة، وهو غافل كل الغفلة عن مجرد معرفتها، فكيف سيقوم بشكر نعمة لا يشعر أصلاً بوجودها، لأنه لم يذق مرارة فقدها. ولهذا فإن على الإنسان أن يُعمل جهده في التعرف على نعم الله عليه، وهو لن يستطيع إحصاءها، وقد نبه القرآن إلى ذلك في قول الله سبحانه: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ النحل: ١٨.

إن مما يبين أهمية ارتباط الإنسان بالقرآن أنه قد يذكِّره بنعمة غفل عنها، ومن هذا نعمة النجاة من تسلط الأعداء، إن قارئ القرآن سيجد هذه النعمة مذكورة في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ المائدة: ١١، والمعنى –كما أفاد الطبري–: اذكروا النعمة التي أنعم الله بها عليكم، فاشكروه عليها...ثم وصف نعمته التي أمرهم جل ثناؤه بالشكر عليها مع سائر نعمه، فقال، هي كفُّه عنكم أيدي القوم الذين همُّوا بالبطش بكم، فصرفهم عنكم، وحال بينهم وبين ما أرادوه بكم[1]، وقال السعدي:"يُذكِّر تعالى عباده المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان، وأنهم –كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم وبلادهم وسبيهم نعمةً – فليعدوا أيضا إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة. فإنهم الأعداء قد هموا بأمر، وظنوا أنهم قادرون عليه. فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم، فهو نصر من الله لعباده المؤمنين ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك، ويعبدوه ويذكروه، وهذا يشمل كل من هَمَّ بالمؤمنين بشر،

(١) انظر: تفسير الطبري١/١٠٠.

من كافر ومنافق وباغ، كف الله شره عن المسلمين، فإنه داخل في هذه الآية"[١]. إن النجاة من تسلط الأعداء نعمة، فليقم بشكرها من أُنْعِم عليه بها، كما أرشدت إليه الآية السابقة.

ويجد قارئ القرآن آية أخرى لفتت الانتباه إلى هذه النعمة، وهي قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ النساء: ٩٠، قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: أطيعوا الذي أنعم عليكم بكفِّهم عنكم مع سائر ما أنعم به عليكم"[٢].

فقارئ القرآن يجد أن القرآن قد عدّ كف الأعداء، والنجاة من تسلطهم نعمة؛ والنعمة تستحق الذكر والشكر، وأمر الله بهذا صراحة في الآية الأولى؛ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ المائدة: ١١. فليلتزم المؤمن بهذا التوجيه الكريم، لعل الله أن يديم له هذه النعمة طيلة حياته، وإن كان فاقدها أن ينعم بها عليه.

---

(١) تفسير السعدي ص٢٢٤.

(٢) تفسير الطبري٨/٢٣.

النجاة من الضر، والسوء، والكرب

هذه الحقائق الثلاث المتقاربة المعنى، المزعجة لمن يعاني من أحدها، يضيق منها صدره، وتسوء بها حياته، قد أخبر القرآن أن النجاة منها مطلبُ مَنْ وقع فيها، وببيان الطريق الصحيح للنجاة منها، وبما يجب على من نجا منها.

النجاة من الضر:

يجد المتأمل كتاب الله أن القرآن تحدث عن الضر بشكل عام، كما تحدث عن بعض أجناس من الضر بشكل خاص؛ وبيّن أن الإنسان يسعى للنجاة من كل شيء اسمه ضرّ، لكنه إنما يسعى للنجاة منه إذا وقع.

أما أجناس الضر التي تحدث عنها القرآن؛ فنجد منها:

الشدة في البحر بخوف الغرق، فإن الإنسان عندما يعاين ذلك ويشاهده؛ يتغير سلوكه، فهو إن كان معرضاً قبل ذلك عن الله؛ فإنه سيكون مقبلاً في تلك الحالة، ولكنه سيعاود الإعراض بعد حصول مطلوبه إن لم يكن شاكراً؛ قال الله تعالى:﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ الإسراء: ٦٧، فالضر الذي أصابهم هنا هو مقاربة الغرق في البحر، وبينت الآية حال أولئك المشركين بعد النجاة من ذلك الضر. قال البغوي:"﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ﴾ الشدة وخوف الغرق ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ من الآلهة ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلا الله؛ فلم تجدوا مغيثا غيره ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ ﴾ أجاب دعاءكم وأنجاكم من هول البحر وأخرجكم ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الإيمان والإخلاص والطاعة؛ كفرا منكم لنعمه"[(١)].

---

(١) معالم التنزيل٥/١٠٧.

المرض الشديد، والشدة في المال والأهل؛ فقد سمى القرآن ذلك ضُراً؛ وذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ الأنبياء: ٨٣ – ٨٤. فأيوب قد أصيب ببلاء عظيم في نفسه، وأهله، وولده، وماله، قال ابن كثير في تفسير الآية:"يذكر تعالى عن أيوب، عليه السلام، ما كان أصابه من البلاء، في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل مرضية. فابتلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده -يقال: بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عز وجل، حتى عافه الجليس، وأفرد في ناحية من البلد، ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته"[(١)].

وبعد مدة طويلة من المعاناة[(٢)] -ثماني عشرة سنة، كما سيأتي في حديث أنس بن مالك -ﷺ- سأل الله أن يكشف ما به من الضر، وأن ينجيه من هذا البلاء، فحدث ما أخبر الله عنه من كشف ذلك الضر عنه -ﷺ-، حيث أنبع الله له الماء حينما ضرب برجله الأرض لما أمره الله بذلك، فاغتسل من ذلك الماء، فذهب عنه كل ما يجد من البلاء، كما بيّن الله ذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ص: ٤١ – ٤٣، وقد حدّث أنس بن مالك -ﷺ-، عن رسول الله -ﷺ-، أن أيوب -نَبِيَّ اللهِ -ﷺ- لَبِثَ فِي بلائه ثماني عَشْرَةَ سَنَةً؛ فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلاَّ رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانَ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ وَاللَّهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ! فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ

(١) تفسير ابن كثير٥/٣٥٩.

(٢) انظر: تفسير الطبري١٨/٤٦٩.

سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللَّهُ؛ فَيَكْشَفَ عَنْهُ مَا بِهِ؟ فَلَمَّا رَاحا إِلَى أَيُّوبَ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ أَيُّوبُ: لاَ أَدْرِي مَا تَقُولُ؛ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مني أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ على الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ تبارك وتعالى؛ فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا؛ كَرَاهِيَةَ أَنْ يذكران اللَّهَ إِلاَّ فِي حَقٍّ. وَكَانَ يَخْرُجُ إِلى الحَاجَة فَإِذَا قَضَاها أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَت عَلَيْه؛ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ:(أَنِ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)، فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَتَلَقَّتْهُ تنظر؛ وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلاَءِ، وَهُوَ أَحْسَنُ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ : أَيْ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللهِ -ﷺ- هَذَا الْمُبْتَلَى[1]؟ وَاللَّهِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ رَجُلاً أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا، قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ. قَالَ: وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ[2]: أَنْدَرٌ لِلْقَمْحِ، وأَنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللَّهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَتْ أَحَدُهُمَا[3] عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَ، وَأَفْرَغَتِ الأُخْرَى فِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْوَرِقَ حَتَّى فَاضَ"[4]. وبهذا زال الضر، وانكشف البلاء، وتحققت لنبي الله أيوب النجاة، بعد ضُرٍ استمر به ثماني عشرة سنة.

عموم ما يشمله اسم الضر:

تحدث القرآن عن الضر من غير تقييده بجنس معين في آياتٍ كثيرة؛ فالضر أجناس لا حصر لها، وتعقيدات الحياة المستمرة يوجد فيها أنواع جديدة من الضر، لذا فإن في عدم تقييد الضر بجنس منه في بعض الآيات ما يستوعب هذه الأجناس، ومن الآيات التي ورد فيها اسم الضر من غير تَقييده بجنس معين منه؛ قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ

---

(١) هذا يبين أن بلاء أيوب-عليه السلام- وقع بعد نبوته، لا كما يتوهم البعض أنه ابتلي قبلها.

(٢) أندران: مثنى أندر؛ والأندر: الموضع الذي يجعل فيه الزرع إذا حصد؛ ويسمى أيضاً: الجرين، والمربد، والبيدر، والجوخان[انظر:المخصص٣/١٨٢].

(٣) هكذا رواية البزار:"كانت أحدهما"، والمشهور لغة أن يقال:"كانت إحداهما"، وقد جاءت هكذا في روايات أخرى لغير البزار، لكن اخترت رواية البزار لتصحيح المحدثين لها، كما تراه في تخريجها.

(٤) أخرجه البزار في مسنده١٣/٢٨حديث٦٣٣٣؛ قال الهيثمي:"رجال البزار رجال الصحيح"[مجمع الزوائد٨/١٤١]، وقال البوصيري:"إسناد صحيح"[إتحاف الخيرة المهرة٧/٥٧].

زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ يونس: ١٢. فالآية هنا لم تحدد جنس الضر، فهي شاملة لجميع الأضرار التي يصح لغة أن تسمى ضراً. وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ النحل: ٥٣ ـ ٥٤، قال الطبري:"يقول: إذا أصابكم في أبدانكم سَقَم ومرض، وعلة عارضة، وشدّة من عيش"[١] فهي بهذا شاملة لجميع أجناس الضر.

أحوال الإنسان وهو يطلب النجاة من الضر:

أوضح القرآن في الآيتين السابقتين؛ أن الإنسان يحرص على النجاة من الضر بعد وقوعه، ويتضرع في جميع أحواله للنجاة منه حينئذٍ، وهذا واضح في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ يونس: ١٢، قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وإذا أصاب الإنسان الشدة والجهد؛ (دَعَانَا)، يقول: استغاث بنا في كشف ذلك عنه"(لِجَنْبِهِ) يعني مضطجعًا لجنبه"[٢]؛ (أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا) قال البغوي:"يريد في جميع حالاته، لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات"[٣]، وفائدة ذكر هذه الأحوال: الإفادة"أنّ المضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر"[٤]، والآية ليست خاصة بالكافر-على ما يظهر- بل يراد بها جنس الإنسان، سواء كان كافراً، أم كان مسلماً غافلاً[٥] فـ"هذا وصف الذين لم يدركوا حقائق العبودية في مشاهد الربوبية؛ فإنهم إذا أظلم عليهم ليل البلاء؛ قاموا إلى إيقاد مصباح التضرع؛ فإذا انجلت عنهم الغياهب بسطوع أنوار فجر الفرج؛ نسوا ما كانوا فيه ومروا كأن لم

---

(١) تفسير الطبري١٧/٢٢٥

(٢) المرجع السابق١٥/٣٦.

(٣) معالم التنزيل٤/١٢٤. وانظر: تفسير القرطبي٨/٣١٧.

(٤) الكشاف٢/٣٣٢.

(٥) انظر: تفسير القرطبي٨/٣١٧، والبحر المحيط٦/٢٠.

يدعوا مولاهم إلى كشف ما عناهم"[١] كما بيّن الله ذلك في نهاية الآية في قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾، قال الطبري:"يقول: استمرَّ على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضر، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه، وترك الشكر لربه الذي فرّج عنه ما كان قد نزل به من البلاء"[٢].

كما كان من حديث القرآن عن الإنسان إذا أصابه الضر؛ بيانه أنه يجأر إلى الله، متضرعاً لأجل أن يكشف ما به من البلاء، وبيان أنه حتى لو كان دينه الشرك فإنه يغير حاله من الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الإيمان؛ يفعل ذلك لأجل النجاة من الضر الذي أصابه، ولكن فريقاً من الناس ينقلب على عقبيه بعد كشف ما به، ويعود إلى الشرك الذي كان قد تركه حين كان يعاني الضر؛ بيّن الله هذه الحال في قوله سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ النحل: ٥٣ ـ ٥٤، قال الطبري:"يقول: إذا أصابكم في أبدانكم سَقَم ومرض، وعلة عارضة، وشدّة من عيش(فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ) يقول: فإلى الله تصرخون بالدعاء وتستغيثون به، ليكشف ذلك عنكم، وأصله: من جؤار الثور، يقال منه: جأر الثور يجأر جؤارا، وذلك إذا رفع صوتا شديدا من جوع أو غيره"[٣]، ثم قال:"ثم إذا وهب لكم ربكم العافية، ورفع عنكم ما أصابكم من المرض في أبدانكم، ومن الشدة في معاشكم، وفرّج البلاء عنكم (إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)يقول: إذا جماعة منكم يجعلون لله شريكا في عبادتهم، فيعبدون الأوثان، ويذبحون لها الذبائح شكرا لغير من أنعم عليهم بالفرج مما كانوا فيه من الضرّ"[٤].

---

(١) روح المعاني٦/٨٦.

(٢) تفسير الطبري١٥/٣٦.

(٣) المرجع السابق١٧/٢٢٥.

(٤) المرجع السابق.

استيعاب الإنسان لدرس طلبه النجاة من الضر، نعمة عظيمة:

سعي الإنسان للنجاة من الضر؛ يكشف له حقيقة عظيمة، استيعابه لها نعمة تفوق بكثير الأذى الذي جاءه من الضر؛ وقد كشف القرآن عن هذه الحقيقة للمشركين، في قول الله تعالى – بأسلوب التحدي– ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ الإسراء: ٥٦؛ ففي هذه الآية "أمر من الله تعالى لنبيه–ﷺ– أن يأمرهم بما يظهر به عجز شركائهم، رداً عليهم في قولهم: لسنا بأهل لعبادته استقلالاً، فنحن نعبد بعض المقربين ليشفع لنا عنده"[(١)]، قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد –ﷺ–: قل يا محمد لمشركي قومك الذين يعبدون من دون الله من خلقه: ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه عند ضرّ ينزل بكم، فانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم، أو تحويله عنكم إلى غيركم"[(٢)].

وقال السعدي: اتخاذهم آلهة مع عجزهم عن كشف الضر؛ نقص في الدين والعقل وسفه في الرأي. ومن العجب أن السفه عند الاعتياد والممارسة وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول؛ يراه صاحبه هو الرأي السديد، والعقل المفيد، ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة هو السفه"[(٣)]، فحالة الضر تكشف لهم هذه الحقيقة، وتبين لكل ذي عقل بطلان الشرك، وصحة التوحيد، فالمشركون يعرفون حالهم؛ وأنهم عند الضر لا يطلبون النجاة إلا من الواحد الأحد–سبحانه وبحمده– فالآية فيها إبطال الإلهية المزعومة للأصنام ببرهان الحس، وهو مشاهدة أنها لا تغني عنهم كشف الضر[(٤)]. إن السعي للنجاة من الضر قد أحدث كل هذا.

---

(١) نظم الدرر٤/٣٩٦.

(٢) تفسير الطبري١٧/٤٧١.

(٣) تفسير السعدي ص٤٦٠.

(٤) انظر: التحرير والتنوير١٤/١١١.

وبهذا الكشف القرآني لهذه الحقائق يتبين أن النجاة من الضر من أعظم ما يسعى إليه الإنسان.

النجاة من السوء

مما يكشف أهمية النجاة من المساوئ عند الإنسان، تعدد ألفاظها في القرآن الكريم؛ فقد جاءت بلفظ الكشف؛ وذلك في قول الله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ النمل: ٦٢. وبلفظ الوقاية؛ في قول الله تعالى: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ غافر: ٩، على أحد التفسيرين للآية، وهو أن المقصود وقايتهم من المساوئ[١]. وبلفظ الصرف؛ في قول الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ يوسف:٢٤، على أحد التفسيرين للسوء، وهو أن المقصود كل ما يسوؤه[٢]، أو الثناء القبيح[٣].

المراد بالسوء:

السُوء: نعت لكل شيء رديءْ، فهو اسم جامعٌ للآفات والدّاء[٤]، وأساء فلانٌ بفلان؛ إذا فعل به ما يكره[٥] هذا أحد معنيي السيئة والسوء[٦]، وهذا المعنى هو المراد هنا.

الحديث عن النجاة من السوء:

يريد الإنسان أن يعيش حياته صفواً بلا كدر، ونعيماً بلا بؤس، وراحة بلا تعبٍ، ولكن الله تعالى طبع حياته على غير هذا، وأخبر سبحانه عن الحقيقة في قوله: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ البلد: ٤، قال الطبري:"قال بعضهم: معناه؛ لقد خلقنا ابن آدم في شدّة وعناء

---

(١) الجواب الكافي ص٨٠، وروح البيان١١٩/٨، والتفسير المنير٨٢/٢٤.

(٢) فتح القدير٢٦/٣. وانظر:النكت والعيون٢٦/٣.

(٣) انظر: معاني القرآن للنحاس٤١٦/٣، وتفسير السمعاني٢٣/٣، وتفسير القرطبي١٧٠/٩، وتفسير الخازن٥٢٣/٢، وفتح القدير٢٦/٣.

(٤) انظر:كتاب العين؛مادة(سوء).

(٥) انظر: لسان العرب؛مادة(سوأ).وتاج العروس؛مادة(سوأ).

(٦)والمعنى الآخر: العمل القبيح، ومنه أطلق على المعصية سيئة. [انظر:لسان العرب؛مادة(سوأ)، وتاج العروس؛مادة(سوأ)].

ونصب"[١]، فلا تصفو الحياة له، ولابد أن يرى ما يسوؤه فيها؛ ولكنه يسعى للنجاة من ذلك، قبل وقوعه، وبعد وقوعه. فالإنسان بطبعه لا يريد العناء.

إن النجاة من السوء مطلبُ كلِ إنسان؛ فعلى الإنسان أن يعلم من هو الذي ينجي من السوء حقاً؛ حتى يتوجه إليه ليكشف بلواه، وقد بيّنه القرآن بأوضح بيان في قول الله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ النمل: ٦٢؛ والمراد بالسوء في الآية"كل ما يسوء، وهو عام في كل ضر؛ انتقل من حالة المضطر، وهو خاص إلى أعم، وهو ما يسوء، سواء كان المكشوف عنه في حالة الاضطرار أو فيما دونها"[٢]، فالآية بيّنت المقصود ليكشف السوء، وهو الله تعالى؛ حيث أفادت أنه"لا يقدر على تغيير الحال؛ من فقر إلى غنى، ومن مرض إلى صحة، ومن ضيق إلى سعة؛ إلا القادر الذي لا يعجز، والقاهر الذي لا يغلب ولا ينازع"[٣].

إن المصاب بالسوء يستطيع أن يحدد هدفه بسهولة؛ فالهدف هو النجاة من السوء؛ ولكنه قد يتخبط في الوسيلة التي توصل إلى هذا المقصد، والطريق الذي يجب سلوكه ليتحقق المطلوب، فإذا تدبّر القرآن وجد بغيته؛ بما ذكره الله تعالى في قصة يوسف-عليه السلام- حيث قال سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ يوسف: ٢٤، بقراءة الكسر[٤]؛ فالإخلاص طريق الخلاص؛ فليخلص من أصابه السوء لينجو مما أصابه، وليخلص من نجا من السوء لتستمر نجاته، وليستمر على الإخلاص؛ لئلا يعطب كالمشركين، الذين إذا نجوا عادوا إلى شركهم.

وإذا كانت النجاة من مساوئ الدنيا مطلبٌ، فإن النجاة من مساوئ الآخرة أهم، والسعي لها أوجب. ومساوئ الدنيا لا تعتبر مساوئ إذا قورنت بمساوئ الآخرة؛ وقد نبه القرآن إلى هذا في ما نقله من دعاء الملائكة للمؤمنين؛ الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن

---

(١) تفسير الطبري٢٤/٤٣٣.

(٢) البحر المحيط٨/٢٥٩.

(٣) تفسير الخازن٣/٣٥١. وانظر: مفاتيح الغيب٢٤/١٧٩.

(٤) وبها قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر.[انظر:السبعة لابن مجاهد ص ٣٤٨].

تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ غافر: ٩؛ أفاد الطبري أن معناها: اصرف عنهم سوء عاقبة سيئاتهم، ومن تصرف عنه سوء عاقبة سيئاته يوم القيامة، فقد رحمته، فنجيته من عذابك[١]، وقال البغوي:"{ٱلسَّيِّـَٔاتِ} العقوبات"[٢] فالعقوبات سيئات؛ لأنها تسوء صاحبها[٣]، فهذا"دعاء بالسلامة من عموم كل ما يسؤهم يوم القيامة"[٤]. والنجاة مما يسوء يوم القيامة هو الفوز حقاً؛ ولذا ختم الله الآية السابقة بقوله: ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ؛ أي:"النجاة الكبيرة"[٥]، قال الطبري:"لأنه من نجا من النار؛ وأدخل الجنة فقد فاز، وذلك لا شك هو الفوز العظيم"[٦] فهو"النعيم الذي لا ينقطع؛ في جوار مليك لا تصل العقول إلى كنه عظمته وجلاله"[٧].

---

(١) انظر: تفسير الطبري٢١/٣٥٧.

(٢) معالم التنزيل٧/١٤٢.

(٣) انظر: تفسير السعدي ص٧٣٢.

(٤) التحرير والتنوير٢٤/١٥٥.

(٥) تفسير القرطبي١٥/٢٩٦.

(٦) تفسير الطبري٢١/٣٥٧.

(٧) تفسير الخازن٤/٧٠.

النجاة من الكرب[1]:

الكرب داخلٌ في عموم المساوئ، وجاءت آيات في القرآن فيها إفراد الكرب بالحديث؛ ولا شك أن هذا الإفراد مقصودٌ، إذ إن الكرب: أشد السوء. وإذا كان القرآن تحدث عن السوء بشكل عامٍ، فإن من المناسب الحديث عن أشَدِّه بشكل خاص.

إذا كان كل ما يسوء يكدر على الإنسان صفو حياته، وينغص عليه معيشته؛ ولو لم يصل إلى حد الكرب؛ فإن المساوئ الشديدة التي تأخذ بنفْسِه فلا يكاد يفكر في غير الخلاص منها، فيكون تفكيره منصباً على النجاة منها؛ سيكون تكديرها عليه أعظم، وتنغيصها أكبر.

إن مما يبين عِظَم الكرب حال الإنسان حينما يصيبه؛ فإنه يضطر إلى الربط على قلبه؛ وإلا لفقد إيمانه، أو عقله؛ كما بيّن الله ذلك في قصة أم موسى -عليه السلام- حينما قبض عليه آل فرعون؛ فقال: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ القصص: ١٠.

حديث القرآن عن النجاة من الكرب:

كروب الدنيا متعددة ومتنوعة، وعندما تحدث الكروب الحقيقية تتبخر الحلول الوهمية، ولا يصح عند الجد إلا الصحيح؛ وتنقشع حين الكروب ما تراكم على قلوب الغافلين من الخرافات التي أصابت بصائرهم بالعمى أو الضعف؛ فجعلتهم لا يدركون الحقائق على حقيقتها، وجعلتهم يجعلون مع الله آلهة أخرى. صوّر القرآن هذه الحقيقة، وجعلها منطلقاً ليبني عليها حقيقة أخرى أهم منها؛ وهي بيان بطلان الشرك، والدعوة إلى التوحيد، وإذا كان الشرك بطل نفعه مع كروب الدنيا، فبطلان نفعه مع كروب الآخرة أوضح وأبين. تجد القرآن صوّر هذا كله بعبارة سلسلة عذبة، قصّ فيها واقع المشركين عند الكرب، في قول الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ

(١) الكَرْبُ، والكُرْبَةُ: الغمّ الشديد الذي يأخذ بالنفس؛ يقال: كَرَبَهُ الغمُّ؛ إذا اشتدَّ عليه، وتقول: كَرَبْتُ القيدَ، إذا ضيَّقته على المقَيَّد [انظر: الصحاح؛مادة(كرب)].

﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ الأنعام: ٦٣ – ٦٤، قال سيد قطب:إنها تجربة يعرفها كل من وقع في ضيقة، أو رأى المكروبين في لحظة الضيق.. إن تذكر الهول، وتصور الخطر، قد يردان النفوس الجامحة، ويرققان القلوب الغليظة، ويذكران النفس لحظات الضعف والإنابة كما يذكرانها رحمة الفرج ونعمة النجاة[١]، إن الآية تذكر الغافلين بأن إنجاء الله لهم لم يقتصر على إنجائهم من كربة ظلمة البحر والبحر، بل ينجيهم من هذه الكربة، ومن كل كربة، ولكنهم يشركون بعد أن كشف الكربة؛ مع أنه تبين لهم بها بطلان الشرك، وعدم نفعه وقت المحنة. قال الخازن:"يريد أنهم يقرون بأن الذي أنجاهم من هذه الشدائد هو الله تعالى، ثم إنهم بعد ذلك الإقرار يشركون معه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع"[٢]، وقال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد-ﷺ-: قل لهؤلاء العادلين بربهم سواه من الآلهة-إذا أنت استفهمتهم عمن به يستعينون عند نزول الكرب بهم في البر والبحر-: الله القادرُ على فَرَجكم عند حلول الكرب بكم، ينجيكم من عظيم النازل بكم في البر والبحر من همِّ الضلال وخوف الهلاك، ومن كل كرب وهمٍّ سوى ذلك، لا آلهتكم التي تشركون بها في عبادته، ولا أوثانكم التي تعبدونها من دونه، التي لا تقدر لكم على نفع ولا ضرّ، ثم أنتم بعد تفضله عليكم بكشف النازل بكم من الكرب، ودفع الحالِّ بكم من جسيم الهم، تعدلون به آلهتكم وأصنامكم، فتشركونها في عبادتكم إياه"[٣]، وقال السعدي:"فأي برهان أوضح من هذا؛ على بطلان الشرك، وصحة التوحيد؟"[٤].

من الكرب: تسليط الأعداء

إن القرآن الكريم- وهو ينوع الأساليب- قد جاء هنا بالحديث عن النجاة من الإذلال، والنجاة من تسليط الأعداء؛ حين أطلق على ذلك اسم الكربة، وفعلاً إنها كربة؛ وأي كربة-

(١) انظر:في ظلال القرآن٢/١١٢٤.

(٢) تفسير الخازن٢/١٢١.

(٣) تفسير الطبري١١/٤١٥.

(٤) تفسير السعدي ص ٢٦٠.

وقد تبين ذلك حين الحديث الخاص عنهما- نجد أن الله سمى ذلك كربة في قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ الصافات: ١١٤ ـ ١١٦، قال قتادة:"أي من آل فرعون"(١)؛ فالآية تشير إلى ما كان من تسلط فرعون عدو بني إسرائيل عليهم، وما كان من استذلاله لهم؛ قال الطبري:"لأن فرعون وقومه كانوا أعداء لجميع بني إسرائيل، قد استضعفوهم، يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، فنصرهم الله عليهم، بأن غرّقهم ونجى الآخرين"(٢).

من الكرب: ظلمات البر والبحر، والحيرة في الطريق؛ وإضاعته:

قبل أسطر قلائل؛ وردت الآية التي أطلق فيها اسم الكرب على ظلمات البر والبحر، وهي قول الله تعالى:﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ الأنعام: ٦٣ ـ ٦٤، وظلمة البر والبحر: تشمل كل ما يكون فيهما من الكُرب؛ قال قتادة في قوله:﴿ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ قال:"يقول: من ينجيكم من كرب البر والبحر"(٣)، وقال مقاتل:"﴿ ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ يعني: الظلل، والظلمة، والموج"(٤)، وقال النحاس:"الظلمات ها هنا الشدائد. والعرب تقول يوم مظلم إذا كان شديدا"(٥)؛ فالظلمات تشمل جميع الشدائد؛ وبالأخص: إضاعة الطريق؛ ففي البر والبحر قد يُتاه(٦) عن الطريق، فلا

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره٢١/٩٣.

(٢) تفسير الطبري٢١/٩٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٤/١٣٠٨.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان١/٣٥١.

(٥) معاني القرآن٢/٤٣٩.

(٦) التيه: الحيرة؛ يقال: تاهَ في الأرض، أي ذهب متحيّراً، قال الله تعالى-في قصة بني إسرائيل-: "يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ»(المائدة /٢٦)أي: يحورن ويحارون ويضلون.[انظر: مجاز القرآن١/١٦٩، والصحاح؛مادة(تيه)].

يدر أين يسلك ليصل إلى مقصده؛ قال ابن عباس:"إذا أضل الرجل الطريق، دعا الله:"لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين"[١]، وقال الطبري: من الذي ينجيكم"من ظلمات البر"، إذا ضللتم فيه فتحيَّرتم، فأظلم عليكم الهدى والمحجة. ومن ظلمات البحر إذا ركبتموه، فأخطأتم فيه المحجة، فأظلم عليكم فيه السبيل، فلا تهتدون له؛ غير الله"[٢]؛"كان المشركون إذا سافروا في البر والبحر فضلُّوا الطريق وخافوا الهلاك، دعوا الله مخلصين له الدين فينجيهم[٣]

ولا شك إن إضاعة الطريق في البراري والبحار مهلكة؛ هلك بها أناس كثيرون في قديم الدهر وحديثه؛ فالنجاة منها نعمة عظيمة؛ وقد امتن الله على خلقه بما يسره لهم من الأسباب التي تعينهم على النجاة من ذلك في آياتٍ في كتابه؛ ومنها قوله تعالى:﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ النمل: ٦٣؛ قال ابن جريج:"الظُّلماتِ في البر: ضلاله الطريق. وفي البحر: ضلاله طريقه، وموجه، وما يكون فيه"[٤]؛ وقال السعدي:"أي: من هو الذي يهديكم حين تكونون في ظلمات البر والبحر، حيث لا دليل ولا معلم يرى ولا وسيلة إلى النجاة؛ إلا هدايته لكم، وتيسيره الطريق، وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها"[٥]. كما ورد امتنان الله على خلقه بالأسباب التي تجعلها وسيلة للنجاة من إضاعة الطريق؛ وذلك في قول الله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ الأنعام: ٩٧؛ قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والله الذي جعل لكم، أيها

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره١١/٤١٥. وابن أبي حاتم في تفسيره٤/١٣٠٨.

(٢) تفسير الطبري ١١/٤١٤.

(٣) انظر:معالم التنزيل٣/١٥٢.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره١٩/٤٨٥.

(٥) تفسير السعدي ص ٦٠٨.

الناس، النجوم أدلةً في البر والبحر إذا ضللتم الطريق، أو تحيرتم فلم تهتدوا فيها ليلا؛ تستدلّون بها على المحجَّة؛ فتهتدون بها إلى الطريق والمحجة، فتسلكونه وتنجون بها من ظلمات ذلك"[١].

إن إضاعة الطريق كربة عظيمة؛ وإن لم يشعر بذلك من لم يتصور خطورته، وإن النجاة منه نعمة كبيرة، يجب أن يقوم العباد بشكرها لمسديها سبحانه وتعالى؛ وما وضعه الله من الأسباب التي تؤدي إلى تلك النجاة بعد حصولها، أو منع حصولها أصلاً؛ من آلاء الله التي يجهل قدرها الجاهلون.

من الكرب: عذاب الله:

وإذا كان تسليط الأعداء، واستذلالهم؛ سمي كرباً؛ فإن عذاب الله النازل بالمكذبين للرسل عليهم السلام أولى بأن يسمى كرباً، والنجاة منه نجاة من أعظم الكروب؛ ونجد تسمية عذاب الله كرباً، في آيتين من كتاب الله؛ كلتاهما تتحدث عن نجاة نوحٍ -عليه السلام- وأهله من ذلك العذاب؛ أحدهما قول الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ الأنبياء: ٧٦، والثانية قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الصافات: ٧٥ ـ ٧٦؛ قال السدي:"من الغرق"[٢]، ويشمل ذلك نجاته من قومه الكافرين؛ قال الطبري:"قوله:(مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ) يقول: من الأذى والمكروه الذي كان فيه من الكافرين، ومن كرب الطُّوفان والغرق الذي هلك به قوم نوح"[٣].

وبهذا يكون القرآن قد أوضح أنواعاً من الكروب، وبين بأن النجاة منها مطلبٌ لكل إنسان؛ وبأن الكروب تكون في الدنيا، ولكن كروب الآخرة أعظم وأكبر؛ وأن النجاة من الكرب نعمة لابد من شكرها، والقيام بحقها.

---

(١) تفسير الطبري١١/٥٦١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره٢١/٥٩.

(٣) تفسير الطبري٢١/٥٨.

النجاة من السجن:

لاشك أن السجن من أعظم البلاء؛ وأن النجاة منه من أعظم النعم، وقد ورد في القرآن ذكر نعمة النجاة من السجن؛ من خلال ما ذكره الله من قصة يوسف -عليه السلام-، الذي وصفه النبي-ﷺ- بأنه "الكريم ابن الكريم ابن الكريم"(١)، المسجون ظلماً.

جاء ذكر نعمة النجاة من السجن في القرآن بلفظ الإخراج؛ حيث ذكر الله في كتابه قول يوسف-عليه السلام-لأبيه-عليه السلام-في قوله سبحانه: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ يوسف: ١٠٠؛ فعدّ إخراج الله له من السجن إحساناً من الله عليه، وخصها بالذكر، فلم يذكر نعمة الله عليه بإخراجه من الجب؛"قيل:لأنّ نعمة الله عليه في النجاة من السجن أكبر من نعمته عليه في إنقاذه من الجب، وذلك أنّ وقوعه في البئر كان لحسد إخوته، ووقوعه في السجن مكافأة من الله لزلّة كانت منه"(٢).

إن السجن عذابٌ ينقطع به الإنسان عن الحياة، ويعيش الذل تحت حُكم السجان، ولكن السجن مع شدته، أخف من المعصية التي هي أسر الهوى. وهذا واضح في قصة يوسف-عليه السلام- حيث إنه هدد بالسجن إن لم يرتكب المعصية، فنطق بتلك الكلمة العظيمة التي ذكرها الله عنه بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ يوسف: ٣٣، قال ابن إسحاق:"أي: السجن أحبّ إليّ من أن آتي ما تكره"(٣)، ذكر ابن القيم، أن شيخ الإسلام ابن تيمية قال له:"المحبوس من حُبِسَ قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه"(٤).

إن السجن شديد على النفس، ولذا نجد المتنفذين يهددون مخالفيهم بإيداعهم السجون على مخالفتهم لهم، لأنهم يعلمون أن ذلك من أسباب تركهم المخالفة؛ وهذا ما بينه الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري٤/١٨٤حديث٣٣٩٠؛كتاب أحاديث الأنبياء؛ باب قول الله تعالى : {لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين}.

(٢) الكشف والبيان٥/٢٦٠، وانظر: تفسير القرطبي٩/٢٦٧.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره١٦/٨٨.

(٤) الوابل الصيب ص٦٧.

عن فعل امرأة العزيز مع يوسف-عليه السلام-، حيث دعته إلى الفاحشة، فلما رأت إصراره على الامتناع هددته بالسجن؛ وقد ذكر الله ذلك في قوله سبحانه: ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ يوسف: ٣٢. وكذلك هدد فرعون موسى-عليه السلام- بالسجن؛ وهذا ما بينه الله بقوله: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الشعراء:٢٩.

إن مما يبين شدة السجن على السجين، ما فعله بيوسف-عليه السلام-، فهو مع فضله وكرمه ونبوته-عليه السلام-، إلا أن طول السنين في السجن أضعف صبره، فنطق بتلك الكلمة التي كانت سبباً في عقوبة الله له بإطالة السجن عليه مدة أخرى؛ ذكر الله ذلك في قوله: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ يوسف: ٤٢؛ قال الطبري:"هذا خبرٌ من الله جل ثناؤه عن غفلة عَرَضت ليوسف من قبل الشيطان، نسي لها ذكر ربه الذي لو به استغاث لأسرع بما هو فيه خلاصه، ولكنه زلَّ بها؛ فأطال من أجلها في السجن حبسَه، وأوجع لها عقوبته"(١)، قال مجاهد:"ذلك أن يوسف أنساه الشيطان ذكر ربه وأمره بذكر الملك، وابتغاء الفرج من عنده، فلبث في السجن بضع سنين"(٢)، وقال مالك بن دينار:"لما قال يوسف للساقي:(اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ)، قيل له: يا يوسف، اتخذت من دوني وكيلا؟ لأطيلن حبسك! فبكى يوسف؛ وقال: يا ربّ، أنسى قلبي كثرة البلوى"(٣). والحديث المرفوع في ذلك فيه كلام(٤).

---

(١) تفسير الطبري١٦/١١١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٧/٢١٤٩.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره١٦/١١١.

(٤) أخرج الطبراني في الكبير١١/٢٥٠ حديث١١٦٤٠ أن النبي-ﷺ-قال عن يوسف:"لولا الكلمة؛ لما لبث في السجن؛ حيث يبتغي الفرج من عند غير الله -عز وجل-"قال ابن كثير: ضعيف جداً"[انظر: تفسيره٤/٣٩١]، وصححه الألباني[صحيح الجامع حديث٣٩٨٤].

فالسجن بلاء شديد، والنجاة منه نعمة عظيمة، وإحسان كبير، ومن عرف الأمر حق معرفته؛ عرف قيمة قول يوسف الذي ذكره الله بقوله: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ يوسف: ١٠٠؛ فعدّه إحساناً من ربه به. ولكن من سُجن ظُلماً أو خطأ ففي ما جرى ليوسف-عليه السلام- تسلية له، وما دام أن قلبه لم يحبس عن الله بالأهواء والفتن، فسجن الجسم- مع فظاعته- أهون وأيسر؛ كما بين ذلك يوسف-عليه السلام- فيما ذكر الله عنه بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ يوسف: ٣٣، وقد سبق ذكر هذه الآية قريباً.

النجاة من صور معينة للموت:

تمهيد: الإنسان يريد النجاة من الموت، ولابد له منه

المتأمل للقرآن لا يجد عناء في إدراك هذه الحقيقة؛ فقد بينها القرآن في آياتٍ كثيرة، ومنها ما يلي: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ العنكبوت: ٥٧.

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ النساء: ٧٨.

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ الجمعة: ٨.

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ ق: ١٩.

صحيح أن الموت مكروه طبعاً، ولكن لابد لكل نفس من تجرع كأسه؛ كما بيّن الله ذلك في قوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ العنكبوت: ٥٧، وقوله: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ النساء: ٧٨.

إنه حقيقة؛ ولكنها كريهة جداً للإنسان، ولذا فإنه يفعل كل سبب يظن أنه ينجيه من تلك الحقيقة؛ كما قال الله تعالى: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ البقرة: ١٩، وهل وضع الأصابع في الأذن سيرد الموت؟!. يكشف القرآن تلك الحقيقة التي يراها من تأمل الواقع أمامه، وهي أن الإنسان يترك بلده وموطنه هروباً من الموت؛ قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ البقرة: ٢٤٣؛ إن الهروب من الموت لن يرد الموت؛ وكل الأسباب التي تبذل لأجل ذلك لن تجدي نفعاً، قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ﴾ الأحزاب: ١٦، فالموت صائر ولابد، الإنسان يفر من الموت، والموت يلاقيه، كما في قول الله سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ الجمعة: ٨، فالتعبير بالفرار له دلالته الخاصة المعبرة عن كراهية الإنسان للموت. وقريبٌ من التعبير بالفرار استعمل القرآن تعبيراً آخر يكشف عن ذلك الموقف، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾

ق:١٩،"أي :"تهرب وتروغ"[١]، والتعبير بالمجيء استعارة فيها"تهويل لحالة احتضار الإنسان وشعوره بأنه مفارق الحياة التي ألِفها وتعلق بها قلبه"[٢].

قد يظن ظانٌ أن الكافر فقط هو الذي يهرب من الموت؛ أما المؤمن فإن وضعه مختلفٌ؛ وهذا الظن خاطئ؛ فالناس كلهم -مؤمنهم وكافرهم- يكرهه، حتى جاء في الحديث القدسي:"مَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"[٣]. لكن هناك أصنافٌ من الناس تكون كراهيتهم للموت أشد من غيرهم، ومحبتهم للحياة أعظم، وتعلقهم بها أكبر، كما هو حال اليهود الذين بيّن الله حالهم في قوله: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ البقرة: ٩٦؛ قال ابن عباس:"يعني اليهود"[٤].

لابد من الموت؛ كما قال الله سبحانه: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ الواقعة: ٦٠، وفي الساعة المحددة له؛ كما قال الله تعالى:﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ النحل: ٦١، فعندما تحين ساعته لا تفرط الملائكة الموكلون بقبض روحه بقبضها في حينها دون تقديم ولا تأخير؛ كما بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ الأنعام: ٦١. هـ

---

(١) الوجيز للواحدي ص١٠٢٣.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/٢٥٤.

(٣) أخرجه البخاري٨/١٣١حديث٦٥٠٢؛ كتاب الرقاق، باب التواضع.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره٢/٣٦٩.

ذا موقف الإنسان من الموت يكرهه بكل أشكاله وصوره. ولكن هناك صورٌ من الموت أبشع من غيرها مما يزيد ذلك الشعور بالكراهية، ويطلب النجاة من تلك الصور المعينة للموت، وهي التي سيتم تناولها-بمشيئة الله- هنا. وإليك ما تحدث القرآن عنه منها:

النجاة من الموت بالحرق:

الموت بالحرق من أشد أنواع الميتات بلاء؛ وقد جاء القرآن بذكر هذا النوع من الموت، وبذكر النجاة منه في آياتٍ منها: قول الله تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ البروج: ٤ – ٨، وذكر الله تعالى قصة إبراهم؛ فقال: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ العنكبوت: ٢٤، وقال: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ ﴾ الأنبياء: ٦٨ – ٧١، وهذه الآيات ذكرت الإحراق بالنار، وذكرت نعمة الله تعالى على الإنسان حينما ينجيه منها بعد تعرضه لها؛ ولا شك أن عدم التعرض لها أصلاً نعمة أكبر.

إن من أشد المناظر بشاعة رؤية الإنسان وهو يحترق حياً، أو رؤيته متفحماً بعد الاحتراق، ذلك المنظر مفزع جداً لا يتحمله قلب الإنسان السوي، ولذلك جاء الشرع الإسلامي بتحريم الإحراق بالنار، حتى لو فعل الإنسان أقبح الذنوب- وهو الشرك-؛ لم يكن لحاكم المسلمين أن يحرقه، فعن حَمْزَةَ الأَسْلَمِيُّ[1] -ﷺ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- أَمَّرَهُ عَلَى سَرِيَّةٍ وَقَالَ له: «إِنْ وَجَدْتُمْ

(١) حمزة الأسلمي(....- ٦١هـ) حمزة بن عمرو بن عويمر بن الحارث الأسلمي، كنّاه النبي-ﷺ-أبا صالح. كان كثير العبادة، ويسرد الصوم حتى في السفر. حدثت له كرامة يوم العقبة؛ حين أنفر المنافقون ناقة رسول الله -ﷺ- فسقط بعض متاع رحله، قال حمزة :نوّر لي في أصابعي الخمس؛ فأضاءت حتى جعلت ألقط ما شذ من المتاع:السوط والحبل وأشباه ذلك. وهو الذي بشّر كعب بن مالك بتوبته. وفي أحد الأسفار تعاقب هو ورسول الله -ﷺ- على راحلة؛ قال : فكان النبي -ﷺ- يدعوه للركوب المرة،

فُلاَنًا فَاحْرِقُوهُ بِالنَّارِ». فَوَلَّيْتُ فَنَادَانِي؛ فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ:«إِنْ وَجَدْتُمْ فُلاَنًا فَاقْتُلُوهُ وَلاَ تُحْرِقُوهُ؛ فَإِنَّهُ لاَ يُعَذِّبُ بِالنَّارِ إِلاَّ رَبُّ النَّارِ »[1].

وقد حدث أن عَلِيّ بن أبي طالب[2] -ﷺ- أتي بِزَنَادِقَةٍ فَأَحْرَقَهُمْ، فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ -ﷺ- فَقَالَ:(لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحْرِقْهُمْ، لِنَهْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:"لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ"، وَلَقَتَلْتُهُمْ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّه-ﷺ-:"مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ"[3]،"فَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيًّا؛ فَقَالَ: صَدَقَ ابْنُ عَبَّاسٍ"[1].

فعلي -ﷺ- اجتهد؛ فأجج هذه النار؛ لعلها تكون سبباً في توبتهم؛ فينجوا من نار الله الكبرى.

والمرتين، والثلاث؛ فلا يركب؛ يقول: يا رسول الله إني أجد بي قوة، فينزل النبي -ﷺ- فيحمله؛ ويقول: يا متعب! هلم فاركب؛ فكان أحب أسمائه إليه. توفي وهو ابن إحدى وسبعين. وقيل: ابن ثمانين. [انظر تاريخ دمشق ١٥/٢٢٥].

(١) أخرجه أبو داود في سننه٣/٨حديث ٢٦٧٥، كتاب الجهاد، باب كراهية حرق العدو بالنار، قال الألباني في تعليقه على سنن أبي داود:صحيح.

(٢) علي بن أبي طالب(١٠قبل البعثة- ٤٠هـ) بن عبد المطلب، أبو الحسن ابن عم النبي-ﷺ-رابع الخلفاء الراشدين. زوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ. وأمه: هاشمية، وهو بذلك أول هاشمي ولد بين هاشميين، وأصغر ولد أبي طالب. أحد أصحاب الشورى الذين نص عليهم عمر-ﷺ-، وأول خليفة من بني هاشم. وأول الناس إسلاماً في قول كثير من أهل العلم. تربى في حجر النبي-ﷺ- ولم يفارقه، ولما آخى النبي-ﷺ-بين أصحابه-ﷺ-، قال له:أنت أخي، ونام مكان النبي-ﷺ-ليلة الهجرة؛ اشتهر بالفروسية والشجاعة والإقدام، وشهد معه المشاهد إلا غزوة تبوك؛ جعله النبي ﷺ فيها خليفة عنه على المدينة فكان من النبي-ﷺ- بذلك؛ بمنزلة هارون من موسى"، وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد. ومناقبه كثيرة، حتى قال الإمام أحمد:"لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلي"، وسبب ذلك بغض بني أمية له؛ فكان كل من كان عنده علم شيء من مناقبه من الصحابة بثه. وقد ولّد له الرافضة مناقب موضوعة هو غنى عنها. قتل ليلة سبع عشرة من رمضان. ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ونصف شهر.[انظر: البداية والنهاية لابن كثير٧/٢٢٣، والإصابة لابن حجر٤/٥٦٩].

(٣) أخرجه البخاري٩/١٨ حديث٦٥٢٤، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم.

لكن الكفار لشدة قسوة قلوبهم وغلظتها يتلذذون برؤية هذا المنظر يحدث للمؤمنين، لا لذنب إلا لأنهم آمنوا بربهم، وهذا مما يكشف حقيقة ما أخبر عنه القرآن أنهم ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ التوبة: ١٠، وليت الأمر يتوقف عند مجرد الفرحة لحدوث ذلك قدراً، بل هم بأنفسهم يحرقون المؤمنين إن استطاعوا ورأوا أن ذلك لا يضرهم في عاجل أمرهم، وقد قصّ القرآن فعلهم هذا بالمؤمنين مرتين: **أما إحداهما** فقد حققوا مرادهم وأحرقوا من آمن، وهي ما حصل من أصحاب الأخدود[٢]، **وأما الثانية**؛ فلم يحققوا ما أرادوا فقد نجى الله نبيه إبراهيم-عليه السلام-من نارهم التي أشعلوها ليحرقوه بها.

أصحاب الأخدود؛ حفروا الأخاديد، وأشعلوا فيها النيران وأحرقوا فيها المؤمنين؛ ذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ البروج: ٤ – ٨، إن الصبر على هذا مما لا يكاد يطيقه إنسان، ولذا كان الجزاء عظيما وكبيراً جداً؛ بيّنه الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ البروج: ١١، ولم يأت وصف الفوز بالكِبَر إلا في قصة من فُتنوا من المؤمنين من قِبَل

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه٣/١١١ حديث١٤٥٨، كتاب الحدود عن رسول الله-ﷺ-، باب: ما جاء في المرتد، وقد صححه الترمذي عقب إخراجه له، وقال:"هذا حديث صحيح حسن والعمل على هذا عند أهل العلم في المرتد".

(٢) الأخدود، جمعٌ، مفرده (الخد) وهو:"الحُفْرَةُ المستَطيلةُ في الأرض"[انظر:تاج العروس؛ مادة (خدد)].

أصحاب الأخدود، وما ذلك—والله أعلم— إلا لشدة فظاعة ما وقع لهم، ولذا"كان النبي-ﷺ- إذا ذكر ما جرى من أصحاب الأخدود تعوذ بالله من جهد البلاء"(١).

إن مما يعزي كل مؤمن في أيٍ من إخوانه إن احترق ما أخبر به النبي-ﷺ-من أن الحريق شهيد، فقد قال النبي-ﷺ-:«الشَّهَادَةُ سَبْعٌ سِوَى الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: الْمَطْعُونُ(٢) شَهِيدٌ، وَالْغَرِقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ(٣) شَهِيدٌ، وَالْمَبْطُونُ(٤) شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ الْحَرِيقِ شَهِيدٌ، والذي يَمُوتُ تَحْتَ الْهَدْمِ شَهِيدٌ، وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ(٥) شَهِيدٌ »(٦).

إن النجاة من الحرق نعمة عظيمة، ويعرف قدرها حقاً من تصّور عِظَم الإحراق بالنار على النفس، فمنظر النار وهي تحرق الجسد البشري مهول مخيف، وهذا ما حصل فعلاً لإبراهيم —عليه السلام- وهي قصة أخرى ذكرها القرآن لمحاولة إحراق مؤمن من قِبَل الكفار، وجريمته التي استحق بها الإحراق عندهم؛ أنه أراد الخير لهم، وأراد إنقاذهم من نار الآخرة، وسخط الجبّار-سبحانه- ؛ قال الله تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه١٩/٦٩حديث ٣٥٤٧٤.كتاب الزهد؛ باب ماذكر عن نبينا في الزهد، عن الحسن مرسلاً.

(٢) المطعون: هو الذي يموت بالطاعون وهو الوباء.[انظر: شرح النووي على مسلم١٣/٦٢].

(٣) ذات الجَنْبِ: إما السل، أو الدبيلة(قَرْحَة تَثْقُبُ البَطْن)، أو طول المرض.[انظر: غريب الحديث لابن الجوزي١/ ١٧٦، وفتح الباري لابن حجر١/١٢٠].

(٤) المبطون: من مات بداء البطن، والمراد بداء البطن:الإسهال، وقيل : الاستسقاء، وقيل: انتفاخ البطن ، وقيل : هو الذي يموت بداء بطنه مطلقا. [انظر: شرح النووي على مسلم١٣/٦٢].

(٥) المرأة تموت بجمع: معناه تموت بولدها في بطنها، وقيل: بل من نفاسه، وقيل: بل تموت بكراً لم تفتض، وقيل: صغيرة لم تحض.[مشارق الأنوار١/١٥٣، وانظر:شرح السنة للبغوي٥/٣٧٠].

(٦) أخرجه أبو داود٣/١٥٦ حديث ٣١١٣، كتاب الجنائز، باب فضل من مات بالطاعون. قال الألباني في تعليقه على سنن أبي داود:صحيح.

تَعْلَمُونَ ﴾ العنكبوت: ١٦ ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ إنه يريد لهم الخير ما استطاع، ولكنهم جهلة لا يعلمون، ولهذا قصّ الله موقفهم فقال: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ العنكبوت: ٢٤، لقد باءوا بالفشل، فقد أنجاه ربه من النار التي أرادوا إحراقه بها؛ نصرة لآلهتهم المفتراة، كما ذكر الله ذلك بقوله: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ ﴾ الأنبياء: ٦٨ ـ ٧١.

إن النجاة من الإحراق بالنار نعمة عظيمة، وفيما حدث لإبراهيم – عليه السلام– آية لما يصنعه التوكل، بل آيات، كما ذكر الله سبحانه: ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ العنكبوت: ٢٤، فعن ابن عباس –رضي الله عنهما– موقوفاً قال: {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ–ﷺ–حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ –ﷺ–حِينَ قَالُوا:{إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}[1]، وعنه أيضاً: "كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ –حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ–: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ"[2]، فكانت نتيجة ذلك أن أنجاه الله من الحرق بالنار.

(١) أخرجه البخاري٦/٤٨ حديث٤٢٨٧، كتاب التفسير، باب:إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم.

(٢) أخرجه البخاري، ٦/٤٨ حديث ٤٢٨٨، كتاب التفسير، باب:إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم.

النجاة من الموت بالغرق:

قد مر سابقاً حديث القرآن عن النجاة من الغرق العام، الذي يرسله الله عذاباً ليهلك به أمة من الأمم المكذبة لرسله عليهم السلام. وبقي الكلام عن النجاة من الغرق الخاص، الذي يحدث عندما يركب الإنسان البحر، أو عند السباحة في الماء.

إن تصور الغرق يبعث في نفس الإنسان مشاعر متباينة، تجعل الموت بهذا السبب من أشد الأشياء على نفسه. إن ميتة الغرق ميتة يؤلم النفس تصورها؛ ويسعى الإنسان للنجاة منها، ومما يدل على شناعتها أن عُد الغريق شهيد، قال النبي-ﷺ-« الشَّهَادَةُ سَبْعٌ سِوَى الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: الْمَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالْغَرِقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ، وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ الْحَرِيقِ شَهِيدٌ، والذي يَمُوتُ تَحْتَ الْهَدْمِ شَهِيدٌ، وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدٌ »[1].

تعرّض القرآن للحديث عن هذا النوع من الموت، وتحدث عن سعي الإنسان للنجاة منه حين تعرضه لأسبابه، وجعل القرآن هذا الأمر وسيلة من وسائل الدعوة إلى توحيد الله بألوهيته، وإفراده بالعبادة. تحدث القرآن عن الغرق، وعن النجاة منه ؛ وإليك حديث القرآن عن النجاة من الموت غرقاً.

ذكر الله تعالى قصة موسى والخَضِر[2]-عليهما السلام-، وما فيها من أحداث حينما التقياً، وكان أول فعل ذكره القرآن من أفعال الخَضِر بعد لقائهما، ما ذكره الله في قوله:

---

(١) أخرجه أبو داود٣/١٥٦ حديث ٣١١٣، كتاب الجنائز، باب فضل من مات بالطاعون. قال الألباني في تعليقه على سنن أبي داود:صحيح.

(٢) الخَضِر-عليه السلام- عبدٌ صالحٌ من عباد الله، كان موجوداً زمن موسى-عليه السلام-، والصحيح أنه نبي؛ كما يدل على ذلك ظاهر أدلة الكتاب والسنة، أعطاه الله عِلماً يتبيّن بعضه من خلال تأمل ما ذكره الله عنه في سورة الكهف في قصته مع موسى-عليه السلام-. يدعي كثيرٌ من المتصوفة: عدم موته، ويحيلون بعض علومهم عليه؛"ومن أحال على غائبٍ فما أنصف"ولكن الصحيح أنه مات قبل النبي-ﷺ- بمدة، بل مات قبل بعثة عيسى-عليه السلام-، وإن كان رجح القول بعدم موته ابن الصلاح، والنووي، وبعض العلماء؛ فقد جزم بموته البخاري، وإبراهيم الحربي، وأبو جعفر بن المنادى، وأبو يعلى بن الفراء، وأبو طاهر العبادي، وأبو بكر بن العربي، وطائفة.[انظر:الرد على المنطقيين لابن تيمية ص١٨٤، ومجموع فتاوى ابن تيمية١/٢٤٩، وفتح الباري لابن حجر٦/٤٣٤، ومجموع فتاوى ابن باز٩/٢٨٧].

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ الكهف: ٧١؛ قال الطبري:"يقول: لقد جئت شيئا عظيما، وفعلت فعلا مُنكرا"(١) ففعلك هذا يؤدي إلى غرق أهلها. نسي موسى ما كان وعد به الخضر من الصبر على ما يراه من التصرفات التي لم يألفها حين خرق الخضر السفينة؛ إن خرقها يؤدي إلى غرق أهلها.

الغرق حدثٌ فظيع! ولفظاعته يوقظ الغافلين. فتأمل حال الإنسان الغافل عن قدرة الله الذاهل عن مكره يشعر بالأمان وهو على اليابسة، ولا شك أن هذا منكرٌ عظيم، فقد أنكر الله على الآمنين من مكره في قوله: ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ الأعراف: ٩٩، كيف أن أغطية قلبه تنكشف عندما يركب في البحر فيخاف الغرق. ويزيد الأمر انكشافا؛ هيجان الأمواج! كما وصف الله ذلك بقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ يونس: ٢٢.ليس غريباً أن تنكشف الأغطية عن قلب ذلك الإنسان، فهو قد رأى الغرق بأم عينيه، إنه يريد النجاة من الغرق، وهو مستعدٌ لأن يسقط كل تلك الآلهة المزعومة، فقد تبين له أنها لم تغن عنه شيئاً، كما قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ لقمان: ٣٢، لقد اتضحت الحقيقة، وانكشف الغطاء، فتلك الآلهة المزعومة غابت عن الذهن وقت الشدة؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ الإسراء: ٦٧، استيقظوا من رقدتهم حالة الخطر المحدق.

---

(١) تفسير الطبري١٨/٧٢.

ليس غريباً أن يحدث ذلك، فحتى أشد العتاة طغياناً يصغر أمام هذا الحدث المحدق ويلين، فقد أبرز القرآن هنا صورة فرعون، ذلك الطاغي، الباغي، المتجبر، الذي ادعى الألوهية، وادعى الربوبية، يصوِّر القرآن حالته وقد أدركه الغرق، وذلك في قول الله سبحانه:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ يونس: ٩٠."لقد سقطت عن فرعون الباغي العادي المتجبر الطاغي كل أرديته التي تنفخ فيه فتظهره لقومه ولنفسه قوة هائلة مخيفة، ولقد تضاءل وتصاغر"[1]. وقد ذكَّر الله سبحانه هذا النوع من الناس بأن قدرته لا تنحصر في البحر، فقال سبحانه:﴿ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴾ الإسراء:٦٨؛ فالنجاة من الغرق ينبغي أن تكون درساً لكل إنسان، فيصحح عقيدته، ويقوي إخلاصه، ويحقق توحيده لربه، في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته.

(١) في ظلال القرآن٣/١٨١٨.

النجاة من الموت بالقتل:

القتل موحش، القتل مرهوب، النجاة منه فوز.

النجاة من القتل في المعارك:

تحدث القرآن عن النجاة من القتل في آياتٍ متعددة، فمرة يبين أنه إن كان مقدراً فإنه لا مفر منه، فمن كتب عليه القتل سيقتل ولابد؛ قال الله تعالى مبيناً هذا لمن شك فيه: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الأحزاب: ١٦، معناها أنه"لا بد لكل شخص من حتف أنف، أو قتل في وقت معين؛ سبق به القضاء، وجرى عليه القلم"[١]؛ من قدّر الله عليه أنه يُقتل فسيقتل مهما كانت الأسباب التي يعتصم بها، كما قال الله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ آل عمران: ١٥٤، فمن كتب عليه القتل في موضع معين؛ فإنه سيذهب إلى ذلك الموضع حتى يصرع في الموضع الذي كُتب عليه أن يصرع فيه[٢]. فهذا حديث القرآن عن القتل في المعارك، وبيانه أن من ترك الجهاد في سبيل الله طلباً للنجاة من القتل؛ فإنه طالبٌ للنجاة من غير طريقها، وأن فعله هذا لن ينجيه من القتل.

---

(١) تفسير البيضاوي٤/٣٦٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري٧/٣٢٤.

النجاة من القتل صبراً:

صورة أخرى من القتل تحدث القرآن عنها، وعن النجاة منها؛ هذه الصورة من القتل أشنع من القتل في حالة القتال، إنها القتل صبراً[١]، لشناعة هذه النوعية من القتل حذر النبي-ﷺ-من لم يعلم أن المقتول يُقتل بحقٍ أن يحضره، فقال -في حديث خرشة بن الحارث[٢]-ﷺ: "إذا رأيتم الرجلَ يُقْتلُ صَبْرًا فلا تحضروه؛ فإنه لعله يقتلُ ظلمًا فتنزل السخطة فتصيبكم"[٣]؛ وبيّن النبي-ﷺ-في حديث ابن عباس-رضي الله عنهما-سبب شمول اللعنة للحاضر الذي لا يعلم أنه يقتل بحقٍ، حيث قال النبي-ﷺ-فيه:"لا تقفن عند رجل يقتل؛ فإن اللعنة تنزل على من حضره؛ حين لم يدفعوا عنه، و لا تقفن عند رجل يضرب مظلوما؛ فإن اللعنة تنزل على من حضره"[٤].

إن القتل صبراً صورة للموت رهيبة، رهبها رجلٌ من أشجع الناس؛ وهو موسى-عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-[٥]، لقد خاف منها قبل أن يُبعث، فخرج من بلده عندما حُذِّر من ذلك؛ بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ

---

(١) القتل صبرا هو : هو أن يُمسَك شيءٌ من ذوات الرُّوح حيًّا، ثم يُرْمى بشيء حتى يموت، وكلّ من قُتِل في غير معركة ولا حَرْب ولا خَطأ فإنه مقتول صَبْرا.[النهاية لابن الأثير، مادة(صبر)].

(٢) خرشة بن الحارث المرادي-ﷺ-، صحابي، من بني زبيد، وفد على النبي-ﷺ- وشهد فتح مصر"[الإصابة لابن حجر٢/٢٧٣].

(٣) أخرجه ابن سعد [انظر:الطبقات الكبرى٧/٥٠١]، وأخرج نحوه الإمام أحمد [أنظر: المسند٢٩/٦٥،حديث رقم(١٧٥٢٢)] قال الهيثمي:"فيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف، وبقية رجالهما(يعني: أحمد والطبراني) رجال الصحيح"[مجمع الزوائد للهيثمي٦/٣١٠].

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان٦/٩٣، حديث رقم(٧٥٨٠) وقد حسّن سند البيهقي الحافظ المنذري[الترغيب والترهيب٣/٢٠٧] والحافظ العراقي[المغني عن حمل الأسفار في الأسفار٢/٣٠٥].

(٥) يبين لك شجاعة موسى-عليه السلام- مجابهته فرعون حاكم زمانه، الطاغية، المتجبر، بكل رباطة جأش؛ وقوله له:"وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا (الإسراء:١٠٢) فهذه الجملة قالها موسى-عليه السلام- لفرعون؛ مقارعة له، وإظهار لكونه لا يخافه، وأنه يعامله المثل.[انظر:التحرير والتنوير١٤/١٧٩].

يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ القصص: ٢٠ – ٢١، ولما وصل مدين كان من أشدّ ما يمكن أن يطمئنه؛ أن يتأكد من نجاته من ملاحقة من يريدون قتله، وهذا ما حصل فعلاً، فإنه جاء لوالد المرأتين اللتين سقا لهما؛ فبشَّره بالنجاة من ذلك القتل، قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ القصص: ٢٥، فهذا حال موسى –عليه السلام–، وهو موسى –عليه السلام–.

ويبين لك عِظم شأن النجاة من القتل صبراً: قصة صاحبا يوسف –عليه السلام– في السجن، فلقد كانت أعظم بشارة من يوسف –عليه السلام– لأحد صاحبي السجن؛ بشارته له أنه لن يقتل، ولمعرفة يوسف –عليه السلام– بمدى فرحة ذلك الشخص بالنجاة؛ بدأ يطلب منه أموراً ذكرها الله بقوله: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ يوسف: ٤٢، فيوسف –عليه السلام– صاحب فضل عليه، لأنه بشّره بنجاته؛ حين عبّر له الرؤيا، وهذا الذي نجا قد تذكّر بعد مدة طويلة صاحبه الذي بشّره بنجاته، وأخبر الملك عندما رأى رؤيا أن في السجن من يحسن تعبير الرؤيا؛ كما ذكر الله ذلك بقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾ يوسف: ٤٥، فهذا حال البشر الذين كانوا مهددين بالقتل ممن هم ليسوا بأنبياء؛ فهذه البشارة بالنجاة مصدرها الرؤيا الصادقة، وجاءت البشارة لموسى –عليه السلام– بالنجاة حين المناجاة، فموسى –عليه السلام– حين مناجاته لربه سبحانه، كلفه الله بالرسالة، فشكى لربه ما يخافه من القتل؛ فأمّنه ربه؛ ذكر الله ذلك بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ القصص: ٣٣، وفي آية أخرى: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ﴾

الشعراء: ١٤ – ١٥.

إن النجاة من القتل صبراً نعمة عظيمة، نعمة يجب أن تذكر فتشكر، لقد امتنّ الله بها على موسى-عليه السلام- وذكّره بها؛ كما بيّن الله ذلك بقوله له: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ طه: ٤٠؛ (فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ)"يعني من القود"[١]، فالله -تعالى- في هذه الآية؛ يعدّد على موسى-عليه السلام- نعمه عليه؛ وعدَّ الخامسة من هذه النعم: أن نجاه من القتل[٢]، وقد كان قبل هذه البشارة مغموما؛ مخافة أن يقتل بالقبطي؛ فنجاه الله[٣].

(١) بحر العلوم٢/٣٩٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب٢٢/٤٨.

(٣) انظر: زاد المسير٥/٢٨٥،

النجاة من الرجم:

تحدث القرآن عن الرجم والنجاة منه في آياتٍ عديدة منها ما يلي:

قول الله تعالى:﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ ﴾ الدخان: ٢٠.

وقول الله تعالى:﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يس:١٦-١٨.

وقول الله تعالى:﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾ هود: ٩١.

وقول الله تعالى:﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ الكهف: ٢٠.

معنى الرجم:

أصل الرجم لغة:"الرَّمْيُ بالحِجارة حتى الموت، ثم قيل لكل قَتْلٍ: رَجْم"[(١)]، ويطلق الرجم على السب، والهجران، والطرد، واللعن[(٢)]"واشتهر عند المسلمين أن الرجم: هو الرمي بالحجارة حتى الموت؛ لأن هذا حد الزاني المحصن، الذي جاء به القرآن المنسوخ لفظه، والباقي حكمه، كما بيّن ذلك عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ[(٣)]-ﷺ-على منبر الرسول - ﷺ-

---

(١) تهذيب اللغة؛ مادة(رجم)، ولسان العرب؛مادة(رجم)، وتاج العروس،مادة(رجم).

(٢) تاج العروس،مادة(رجم).

(٣) عمر بن الخطاب (٤٠قبل الهجرة-٢٣هـ) هو عمر بن الخطاب ابن نفيل، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة، ثاني الخلفاء الراشدين، أسلم سنة ست من النبوة، وهو ابن ست وعشرين سنة، ولما أسلم اعتز المسلمون، وانتصفوا ممن غلظ عليهم، وأصابت المشركين كآبة لم يصابوا بمثلها؛ فسماه رسول الله -ﷺ- يومئذ: الفاروق. كان أبيض تعلوه حمرة، طوالا، أصلع، في عارضه خفة. هاجر جهرا، وشهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها، كان شجاعاً؛ يرهبه الشيطان ويفر منه. عالماً، ملهماً، زاهداً في الدنيا، مقلاً منها.ولي

بمحضر جمع من الصحابة-ﷺ-[١].

حديث القرآن عن النجاة من الرجم

آياتٌ عديدة في القرآن تحدثت عن الرجم[٢] والنجاة منه، تلك القتلة التي تُعد من أشنع القتلات[٣]، وأقبحها[٤]، وأخبثها[٥]، والرجم قِتلة حقارة وخزي[٦]؛ ولذا كان من البدهي أن يفر الإنسان منه أشدّ فرار، ويختفي إن ظنّ أنه يراد به هذا، ولو في الكهوف والجبال، وهذا ما ذكره الله عن أصحاب الكهف في قوله: ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى

الخلافة سنة ثلاث عشرة. أول من دعي بأمير المؤمنين، وأول من كتب التاريخ للمسلمين، وأول من جمع الناس على صلاة التراويح. قتله أبو لؤلؤة المجوسي، فلما عِلم عمر فرح أن الله لم يجعل ميتته بيد رجل يدعي الإسلام.استأذن عائشة أن يدفن مع صاحبيه فأذنت؛ فدفن في حجرتها. توفي وعمره ثلاث وستون عاما[انظر:صفة الصفوة١/٢٦٨-٢٩٣].

(١) خطب عمر بن الخطاب الناس في خلافته؛ فقال:"إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ مُحَمَّدًا -ﷺ- بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ؛ قَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا، فَرَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ؛ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ، وَإِنَّ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أَحْصَنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ؛ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَبَلُ أَوْ الِاعْتِرَافُ"[أخرجه البخاري٦/٢٥٠٣،حديث(٦٤٤٢). كتاب كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب: رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت، ومسلم(٥/١١٦،حديث(٤٥١٣) كتاب الحدود، باب رَجْمِ الثَّيِّبِ فِي الزِّنَا].

(٢)- من المفسرين من فسّر الرجم الوارد في الآيات بالرجم المشتهر، وهو الرمي بالحجارة حتى الموت، وهناك من فسرها بالشتم والسب، وعند ورود كل آية – إن شاء الله- أذكر المراد بالرجم فيها، ومن قال به.

(٣) انظر: زاد المسير٤/١٥٣، والبحر المحيط٥/٢١٢، وتفسير السعدي ص٦٩٣.

(٤)تاج العروس، مادة(رجم)

(٥)نظم الدرر٤/٤٥٨، وفتح القدير٣/٣٩٤.

(٦) التحرير والتنوير١١/٣١٩.

﴿ ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ الكهف: ١٦،"الظاهر أن المراد القتل بالرجم بالحجارة، وكان ذلك عادة فيما سلف فيمن خالف في أمر عظيم؛ إذ هو أشفى للقلوب، وللناس فيه مشاركة"[(١)]، إنه فرارٌ من الرجم! أو مما هو أقبح منه؛ وهو الردة، كما أوضحوا هم ذلك فيما ذكره الله عنهم بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ الكهف: ٢٠.

الرجم عقوبة قاسية، فمن المقبول جداً، والمرضي به، والمسلم له وجوباً، أن يجعل الرجم لمقابلة جريمة شنيعة، تنتهك بها الأعراض، وتختلط بها الأنساب، كزنا المحصن"إِنَّ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أَحْصَنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ؛ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الْحَبَلُ أَوْ الِاعْتِرَافُ"[(٢)]، فقد ضوعفت العقوبة على المحصن؛ لأن الداعي إليها أضعف، كما هي عادة الشرع في مضاعفة العقوبة عند ضعف الداعي للمخالفة[(٣)] فالثيب قد وجد السبيل الشرعي لقضاء شهوته؛ بخلاف البكر، وفي هذه العقوبة مصلحة للجميع، فهي تزجر من لم يقع عن

---

(١) روح المعاني١٥/٢٣١.، وانظر: الجواهر الحسان٢/، ٣٧٤، المحرر الوجيز٣/٥٢٩. وأضواء البيان٣/٢٥٠.

(٢) أخرجه البخاري٦/٢٥٠٣،حديث٦٤٤٢ كتاب كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة باب:رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت، ومسلم٥/١١٦،حديث٤٥١٣ كتاب الحدود، باب رَجْمِ الثَّيِّبِ فِي الزِّنَا.

(٣) أفاد هذه الفائدة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب-رحمه الله-[كتاب التوحيدص١٤٠]- أخذاً من حديث سلمان-ﷺ-مرفوعاً:"ثَلاثَةٌ لا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهَ بِضَاعَةً، لا يَشْتَرِي إِلا بِيَمِينِهِ، وَلا يَبِيعُ إِلا بِيَمِينِهِ"أخرجه الطبراني في الأوسط٥/٣٦٧،حديث رقم(٥٥٧٧)، قال الحافظ المنذري:"رواته محتج بهم في الصحيح"[الترغيب والترهيب٢/٣٦٧]، وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: رواه الطبراني بسند صحيح. [كتاب التوحيد؛ص١٤٠].

الوقوع، وتفيد من وقع فلعلها تكّفر خطيئته[1]، ومصلحة للمجتمع بأمنه على الأعراض والأنساب.

لكن المصيبة الكبرى، والشناعة العظمى، أن تجعل هذه العقوبة لمنع الخير والحق، ولزجر المصلحين، أو الصالحين، وترويعهم، وإخافتهم، وهذا يحدث باستمرار، وقد سرد القرآن من هذا قصصاً كثيرة؛ منها ما أخبر الله تعالى في كتابه عن شعيب- عليه السلام- في قوله:﴿ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ هود: ٩١. ومعنى لرجمناك لقتلناك بالرجم، وقيل معنى لرجمناك لشتمناك[2]، وليس هذا خاصٌ بشعيبٍ عليه السلام فقط، بل إن كثيراً من الأنبياء -عليهم السلام- هددوا بالرجم كما هو ظاهر فيما قصّه الله تعالى عن الأنبياء الثلاثة الذين أرسلوا إلى قرية واحدة، قال الله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يس: ١٣ – ١٨.

---

(١) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ-رضي الله عنه-قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فِي مَجْلِسٍ فَقَالَ: « تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ؛ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ »[أخرجه البخاري١/١٥،حديث١٨، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، ومسلم٥/١٢٦حديث٤٥٥٨؛ كتاب الحدود،باب الْحُدُودُ كَفَّارَاتٌ لأَهْلِهَا].

(٢) فتح القدير٢/٧٥١،وانظر: تفسير ابن كثير ٢/٧٥٩، والتحرير والتنوير١١/٣١٩.

بل لقد بلغ من قسوة أهل الباطل على الحق وأهله؛ أن يهدد الأب ابنه بالرجم، كما حدث من آزر –والد إبراهيم الخليل -عليه السلام- فقد ذكر الله مقولته لابنه في قوله: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ مريم: ٤٦. مع أن الابن قد بالغ في الرفق والتؤدة، وإظهار الشفقة والنصح، كما بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ مريم: ٤١ – ٤٦.

ولما كان الرجم ميتة بشعة؛ كان من البدهي أن يطلب الإنسان النجاة منه، وأن يحتمي بمن يحميه منه، كما ذكر الله ذلك عن موسى –عليه السلام- حين قال للمعرضين عن دعوته: ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ ﴾ الدخان: ٢٠،"يقول: وإني اعتصمت بربي وربكم، واستجرت به منكم أن ترجمون"[1]. فإذا تحققت النجاة من الرجم، فتلك نعمة عظيمة لابد من الشكر لمسديها –سبحانه وبحمده–.

(١)تفسير الطبري٢٢/٢٧.

نجاة الأبناء من القتل والذبح:

جاء في القرآن التذكير بنعمة نجاة الأبناء من الذبح؛ لمن كانوا يتعرضون لذلك، في آياتٍ منها؛ قول الله تعالى مخاطباً بني إسرائيل:﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ الأعراف: ١٤١، ووردت آية أخرى بلفظ: التذبيح، وهي قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ البقرة: ٤٩، ووروردها بلفظ التذبيح كأنه إشارة إلى شدة تمكن آل فرعون من ذلك، وعدم إقامتهم لبني إسرائيل أدنى وزنٍ. وهاتين الآيتين وردتا في سياق تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم، وكان من أجلها نعمة إنجائهم من تسلط آل فرعون عليهم بتقتيل أبنائهم، وتذبيحهم.

ما أشق قتل الأبناء على الآباء؛ لأن الغالب أن مشاعر الود، والحب، والشفقة؛ الموجودة في قلوب الآباء لأبنائهم؛ لا تصفها العبارات، ولا يعبّر عنها بالإشارات، ومن جرّب تلك التجربة عرف تلك المعرفة، إن كثيراً من الآباء عندما يمرض ابنه، أو يتعرض لشدة ومشقة؛ يتمنى أن لو كانت الإصابة به لا بابنه.

جاء في بعض كتب الأدب أن رجلاً طولب بمالٍ، وضُربَ فلم يسمح به، فأُخذ ابنه وضُرب فجزع؛ فقيل له في ذلك، فقال: ضرب جلدي فصبرت وضربت كبدي فلم أصبر[1].

قال الشاعر[2]:

وَإِنما أَوْلاَدُنَا بَيْنَنـا... أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلى الأَرْضِ

---

(١) انظر: محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ص١٣٦.

(٢) هو حطان بن المعلى: شاعر إسلامي اشتهر بهذه القصيدة [انظر الأعلام للزركلي٢/٢٦٣].

لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلى بَعْضِهِمْ... لاَمْتَنَعَتْ عَيْنِي مِنَ الْغَمضِ[١]

ومن هنا كان من أشق ما يكون على النفوس قتل الأبناء أو ذبحهم، فهذا مما لا يكاد يتحمله قلب إنسان، ونجاة الأبناء من ذلك أعظم ما يمكن أن يقدّم للأبوين.

قصص قرآنية في نجاة الأبناء:

في عدة آيات من الكتاب الكريم؛ عرض القرآن قصتين فيهما نجاة الأبناء من القتل والذبح:

إحداهما: جاءت التضحية بالابن مِنْ قِبَلْ الأب؛ في قصة عجيبة، في غاية الروعة والجمال، وفي غاية التسليم والاستسلام. وكانت نجاة الابن بفداء عظيم نازل من السماء جزاء لذلك التسليم العظيم، تكملة لفصول تلك القصة التي لا يُعرف لها مثيلٌ.

وأما القصة الأخرى فكان الذبح لأبناء قوم استضعفوا بحكم طاغية متغطرس، لا يعرف العدل ولا الرحمة، بعيد كل البعد عن الحق واتباعه، إن رأى سبيل الرشد لم يسلكه، وإن رأى سبيل الغي سلكه[٢]. وقد أورد القرآن قتله لأبناء أولئك القوم في قصة مأساوية؛ تمثل نموذجاً للطغيان إذا تمكّن، وكانت النجاة من ذلك بمعجزة كبيرة حدثت، تبين نموذجاً لقدرة الله وعظمته، وتكشف أن الأمر له وحده سبحانه، وتعطي درساً عظيماً فيما يصنعه التوكل على الله وتسليم الأمر إليه.

---

(١) البيتان في ديوان الحماسة ١/٧٧.

(٢) بيّن الله تعالى أن هذا هو وصف فرعون وآله في قوله:"سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ"(الأعراف:١٤٦)

القصة الأولى: قصة إبراهيم مع ابنه اسماعيل -عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام-

وهي قصة لا يعبر عنها بمثل سردها، قال الله تعالى:﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ الصافات: ١٠١ - ١٠٧

عاش إبراهيم -عليه السلام- سنين من عمره وكبر وهو لا يولد له، ولما بلغ عمره ستاً وثمانين عاماً[١] بشّره الله بإسماعيل -عليه السلام-، وكان من البدهي أن يفرح بالولد الذي جاءه على كِبَر. بدأ الولد يشب وكلما شبّ فإن حبه ينمو في قلب أبيه ويزيد، ولا يلام على ذلك فهو بِكْره؛ والعادة أن القلب أعلق بأول الأولاد، وهو إليه أميل، وله أحب[٢]، ولما بلغ الولد أجمل مراحل عمره عند أبيه، وهي المرحلة التي يجاريه فيها عند الركض؛ كما وصف الله ذلك بقوله: (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ)"يعني: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل"[٣]،"بلغ سنا يكون في الغالب، أحب ما يكون لوالديه، قد ذهبت مشقته، وأقبلت منفعته"[٤]، أخذ شعبة من القلب؛ فجاء أمرٌ لم يكن بالحسبان، جاء أمر الله -ﷻ- لإبراهيم-عليه السلام- عن طريق الرؤيا- ورؤيا

---

(١) انظر : البداية والنهاية ١/١٥٣،و١/١٩٣.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان٢/٣٥٧.

(٣) تفسير ابن كثير٧/٢٧.

(٤) تفسير السعدي ص٧٠٥.

الأنبياء وحي- أن يذبح هذا الولد[١]؛ فكان الاختبار عظيماً، ولكن هذا الاختبار كشف عن جوهر إيمانه وحبه تنفيذ أوامر ربه، فلم يتلكأ ولم يتبرّم، بل بادر إلى إبلاغ الأمر لابنه بتسليم عجيب، ذكره الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ الصافات: ١٠٢، إنها استجابة عظيمة لأمر الله، ولا يقِلّ عنها عَجَباً استقبال الولد لهذا الأمر، ففي نفس الوقت الذي أبلغه الوالد بأمر ربه سبحانه بادر بقبول عجيب، ذكره الله بقوله: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الصافات: ١٠٢.

فلا أروع ولا أجمل من هذه القصة التي تبين عظمة استقبال العظماء لأمر العظيم — ﷺ- بلا تلكؤ، ولا تسخط، ولا تضجر.

وقد ذكر الله تفاصيل تنفيذ هذا الأمر؛ فقال:(فَلَمَّآ أَسْلَمَا) لقد استسلم الاثنان — عليهما السلام- للأمر،"أسلما لأمر الله؛ فاستسلام إبراهيم بالتهيُّؤ لذبح ابنه، واستسلام الغلام بطاعة أبيه فيما بلغه عن ربه"[٢]. وبدأ التنفيذ الذي ذكره الله بقوله:(وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ) "أي: صرعه

---

(١) بين كثيرٌ من العلماء أن هذا هو الصحيح، وهو أن الذبيح إسماعيل- عليه السلام- وهناك من قال إن المأمور بذبحه إسحاق- عليه السلام-، وقد بيّن كثيرٌ من العلماء بطلان هذا القول، وذكروا الأدلة التي توضح ذلك بما لا مزيد عليه؛ أبطله ابن القيم من عشرة أوجه[إغاثة اللهفان٢/٣٥٥]، وحسبك بترجيح ابن كثير إذا رجح، وقد أبطل القول بأن الذبيح إسحاق في تفسيره٧/٢٧، فقال:"قد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضا، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تُلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مُسَلَّماً من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل"، وهذا الإمامان استفادا كثيراً من أدلة ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- [الفتاوى٤/٣٣١] وكان مما قال:"الذي يجب القطع به أنه إسماعيل وهذا الذي عليه الكتاب والسنة والدلائل المشهورة... وشاع عند بعض المسلمين أنه إسحاق، وأصله من تحريف أهل الكتاب".

(٢) التحرير والتنوير٢٣/٦٥.

على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه"[١]، فالأمر شديد إنه يذبح ابنه وفلذة كبده، ولما"تَلَّهُ لِلْجَبِينِ"كان عَلَى إِسْمَاعِيلَ قَمِيصٌ أَبْيَضُ، فَقَالَ: يَا أَبَتِ إِنَّهُ لَيْسَ لِي ثَوْبٌ تُكَفِّنُنِي فِيهِ غَيْرُهُ، فَاخْلَعْهُ حَتَّى تُكَفِّنَنِي فِيهِ؛ فَعَالَجَهُ لِيَخْلَعَهُ، فَنُودِيَ مِنْ خَلْفِهِ:{أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا}، فَالْتَفَتَ إِبْرَاهِيمُ؛ فَإِذَا هُوَ بِكَبْشٍ أَبْيَضَ أَقْرَنَ أَعْيَنَ"[٢]، لقد وصلت التضحية في سبيل الله إلى هذا الحد.

وبعد هذا النجاح الكبير للولد والوالد؛ حدثت مفاجأة سارّة، فيها نجاة الولد من الذبح؛ ذكرها الله-ﷻ- بقوله:(وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ)، قد"حققت ما أمرناك به في المنام، من تسليم الولد للذبح، وبالعزم، والإتيان بالمقدمات"[٣]"ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه"[٤]، فبهذا حصل المقصود؛ فليس المقصود ذبح الولد، بل المقصود"إخلاء السر من عادة الطبيعة، لا تحصيل الذبح"[٥] قال ابن القيم:" لم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه؛ ليخلص القلب للرب"[٦]. وقال رحمه الله:"لما اتخذ الله تعالى ابراهيم خليلا، والخلة تتضمن أن يكون قلبه كله متعلقا بربه، ليس فيه شعبة لغيره، فلما سأله الولد وهبه اسماعيل، فتعلق به شعبة من قلبه، فأراد خليله سبحانه أن تكون تلك الشعبة له ليست لغيره من الخلق، فامتحنه بذبح ولده، فلما أقدم على الامتثال؛ خلصت له تلك الخلة، وتمحضت لله وحده،

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٨/٧.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤٣٩/٤حديث(٢٧٠٧) قال الهيثمي:"رجاله رجال الصحيح، غير أبي عاصم الغنوي وهو ثقة"[مجمع الزوائد٣٢٧/٣].

(٣) البحر المديد١٨٠/٦.

(٤) تفسير السعدي؛ص٧٠٦.

(٥) البحر المديد١٨٠/٦.

(٦) الجواب الكافي ص١٣٤.

فنسخ الأمر بالذبح لحصول المقصود، وهو العزم وتوطين النفس على الامتثال"[١]. غار الخليل [يعني الله-ﷻ-]، على قلب خليله[يعني إبراهيم-عليه السلام-]، أن يكون فيه مكان لغيره، فامتحنه به[يعني بإسماعيل-عليه السلام-]، وأمره بذبحه؛ ليظهر سر الخلة في تقديمه محبة خليله على محبة ولده، فلما استسلم لأمر ربه، وعزم على فعله، ظهر سلطان الخلة في الإقدام على ذبح الولد، إيثارا لمحبة خليله على محبته، نسخ الله ذلك عنه وفداه بالذبح العظيم[٢].

وحصلت النجاة المفرحة بافتداء الولد من الذبح؛ قال الله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ[٣] بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ جاء في الحديث أنه"كَبْشٌ أَبْيَضَ أَقْرَنَ أَعْيَنَ"[٤]. وروي عن ابن عباس-رضي الله عنهما- قوله:"الصخرة التي بمنى بأصل ثبير[٥]، هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه، هبط عليه من ثبير:كبش أعين أقرن له ثغاء، فذبحه"[٦]، وقال سعيد بن جبير:"كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفًا"[٧]، قال ابن كثير:"توارثت قريش قرني الكبش الذي فدي به إبراهيم خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل، إلى أن بعث الله رسوله -ﷺ-"[٨].

---

(١) إغاثة اللهفان٢/٣٥٦.

(٢) انظر:جلاء الأفهام ص٢٧٤، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٩٣

(٣) الفداء: إعطاء شيء بدلاً عن حق للمعطَى...وأسند الفداء إلى الله لأنه الآذِن به، فإن الله أوحى إلى إبراهيم أن يذبح الكبش فداء عن ذبح ابنه، وإبراهيم هو الفادي بإذن الله، وابن إبراهيم مُفْدىً"[التحرير والتنوير١٦/٢٥].

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٤/٤٣٩حديث(٢٧٠٧) قال الهيثمي في مجمع الزوائد٣/٣٢٧:"رجاله رجال الصحيح، غير أبي عاصم الغنوي وهو ثقة."، وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات، رجال الصحيح؛ غير أبي عاصم الغنوي، فقال عنه الحافظ في التقريب: مقبول، ولمعظم هذا الحديث شواهد وطرق يتقوى بها".

(٥) ثبير: جبل بين مكة ومنى، على يمين الداخل من منى إلى مكة.[المصباح المنير- ص٤٦].

(٦) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة٢/١٦٧.

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره٢١/٨٨.

(٨) تفسير ابن كثير٧/٣٢.

هذه تفاصيل تلك النجاة المفرحة التي حصلت بهذا الفداء العظيم، لقد شملت كل متبع ملة إبراهيم-عليه السلام- حيث شرع الله الهدي والأضاحي"فالهدي اقتداء بالخليل-عليه السلام-، حيث فدى ابنه إسماعيل بذبح عظيم، وأمر الله تعالى هذه الأمة بالاقتداء به، فشرع الله لهم الأضاحي"[(١)]،"لما حصلت المصلحة؛ عاد الذبح مفسدة؛ فنسخ في حقه، فصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا سنة في أتباعه إلى يوم القيامة"[(٢)].

وبهذا ننهي هذه القصة الجميلة العطرة في نجاة رسول الله إسماعيل-عليه السلام[(٣)]- ابن رسول الله إبراهيم-عليه السلام- من الذبح. وننتقل بعدها إلى قصة مأساوية لبني إسرائيل.

أما القصة الثانية؛ فقصة إنجاء الله أبناء بني إسرائيل من قتل فرعون وذبحه لهم:

فرعون مثالٌ للطاغية المستبد المتغطرس، لقد كان من شدة طغيانه أنه يقتل الأطفال والرضع من أبناء طائفة من الناس-هم بني إسرائيل-؛ كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ القصص: ٤، وكان سبب هذا التصرف المشين منه، أمرين:

الأول: استضعاف هذه الطائفة – وهذا الذي كشفته الآية السابقة- وكان ذلك قبل بعثة موسى-عليه السلام- فحينها كان"هذا الملك الجبار العنيد؛ يستعملهم في أخس الأعمال، ويكُدُّهُم ليلا ونهارًا في أشغاله وأشغال رعيته"[(٤)]"ويسخرهم لضرب اللبن، وللأعمال الشاقة"[(٥)]، وفي تقتيله

(١) مجلة البحوث الإسلامية ٣٤/٢١١.

(٢) جلاء الأفهام ص٢٧٥.

(٣) قال الله تعالى:"وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا"(مريم: ٥٤).

(٤) تفسير ابن كثير ٦/٢٢٠.

(٥) التحرير والتنوير ٢٠/١١.

الأبناء ضمان استمرار استضعاف هذه الطائفة، وقيل:ليس ذلك إلا لمجرد الفساد[١]، وهناك روايات أن من أسباب فعله ذلك"تخوفه هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام، يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه"[٢]. وهذا وإن كان صحيحاً لكن ليس ظاهراً من الآيات السابقة.

الثاني: إظهار قهره وقوته وجبروته – وهذا بعد بعثة موسى-عليه السلام-، وهذا قد بيّنته آياتٌ أخرى، مثل قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ الأعراف: ١٢٧.

وكان من ضمن من أراد قتلهم بالسبب الأول طفلاً قد أراد الله له شأناً عظيماً، وأن يكون من أولي العزم من الرسل –وهو موسى عليه السلام-، ولكن الله أراد غير ذلك، وإرادة الله هي النافذة، لقد أراد الله غير ما أردت يا فرعون! فإن هناك غلام يكون"منشؤه ومرباه على فراشك، وفي دارك، وغذاؤه من طعامك، وأنت تربيه وتدلله، وتتفداه، وحتفك، وهلاكك وهلاك جنودك على يديه، لتعلم أن رب السموات العلا؛ هو القادر الغالب العظيم، العزيز القوي الشديد المحال، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن"[٣]، في قصة عجيبة راجعها في سورة القصص.

---

(١) انظر: البحر المحيط٨/٢٨٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/٢٢٠-٢٢١[وقال ابن كثير- رحمه الله – هنا"وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل، حين ورد الديار المصرية، وجرى له مع جبّارها ما جرى، حين أخذ سارة ليتخذها جارية، فصانها الله منه، ومنعه منها بقدرته وسلطانه. فبشر إبراهيم-عليه السلام-ولده أنه سيولد من صلبه وذريته مَن يكون هلاك ملك مصر على يديه، فكانت القبط تتحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذر من قدر"أ.هـ. وقيل: رأى رؤيا بذلك. وقيل: أتاه منجموه فقالوا: أنا نجد في علمنا أن مولودا من بني إسرائيل قد أظلك زمانه الذي يولد فيه، يسلبك ملكك، ويغلبك على سلطانك، ويخرجك من أرضك ويبدل دينك.[وانظر لهذه الأقوال- أيضاً-: تاريخ الطبري١/٢٣٢].

(٣) تفسير ابن كثير٦/٢٢١

لقد بلغ الأمر إلى حد أن الأمهات -لما فيهن من الشدة والكرب- تخترع الحيّل التي ترجو أن يكون بها نجاة ولدها من القتل، ومنهن أم موسى -عليه السلام- فقد كانت تلقي ولدها في الماء خوفاً على رضيعها من القتل-وقد كان هذا بوحي من الله- كما قال سبحانه:﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ القصص: ٧.

لم يختلف الأمر على بني إسرائيل ببعثة موسى-عليه السلام- فقد كانوا في الحالتين يُقتّل أبناءهم، وإن اختلف السبب الذي كان فرعون يقتل لأجله أبناءهم ويستحيي نساءهم؛ كما ذكروا هم ذلك لموسى -عليه السلام-فيما نقله الله عنهم بقوله:﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ الأعراف:١٢٨-١٢٩

عاش بنوا إسرائيل مدة من الزمن على هذا الحال، وقد قدّر الله عليهم ذلك ليتبين صدق إيمانهم من عدمه، وكيف يكون ظنهم بالله تعالى ويقينهم بقدرته إن استعانوا به، وليتبين مدى صبرهم عن الدنيا وزينتها، وصبرهم على دينهم وطاعة ربهم، وتحملهم الأذى، وكان موسى -عليه السلام-يرشدهم إلى ذلك ويدلهم عليه، بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ الأعراف: ١٢٨، وقد نجحوا في ذلك بفضل الله عليهم، قال الله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ الأعراف: ١٣٧"أي بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من جهة فرعون وقومه"(١)، لقد صبروا"على دينهم وعلى عذاب فرعون"(٢)، فجعلهم الله أئمة؛ قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

(١) تفسير أبي السعود٣/٢٦٧.

(٢) معالم التنزيل٣/٢٧٣

يُوقِنُونَ ﴾ السجدة:٢٤،"لما صبروا عن الدنيا[١]...ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يُقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا"[٢].

ولما حصل المقصود، حان وقت الفرج، كما بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ طه: ٧٧ ــ ٨٠، ها هي النجاة قد حصلت –بحمد الله–.

قد أهلك الله عدوكم فالآن لا تقتّل أبناؤكم، قد حصلت لهم النجاة من القتل والذبح الذي كان يمارس عليهم زمن استضعافكم من قِبَل فرعون، ذكّرهم الله بذلك في قوله: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ الأعراف: ١٤١، وقوله:﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ البقرة: ٤٩.

قد حصلت النجاة لكم من ذبح أبنائكم، فاذكروا نعمة الله عليكم، فإنها من أجلّ النعم وأعظمها، وهذا ما أمرهم به رسولهم–ﷺ–، كما ذكر الله ذلك بقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٠/١٩٥، وتفسير ابن كثير ٦/٣٧١.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٦/٣٧١

﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ إبراهيم: ٦. فهذه نجاة من البلاء العظيم الذي كان بني إسرائيل يعيشونه[1].

(١) فائدة: قال ابن كثير رحمه الله:"لما كانوا [يعني بني إسرائيل]صابرين على أوامر الله وترك نواهيه وزواجره، وتصديق رسله، واتباعهم فيما جاءوهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. ثم لما بدلوا وحَرَّفوا وأوَّلوا، سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عمل صالحًا، ولا اعتقاد صحيحًا"[تفسير ابن كثير ٣٧١/٦].